المجذوب.. والذكريات

أحاديث الأدب والسياسة

بين الخرطوم - ولندن - والقاهرة - وباريس

***

علي أبوسن

الجزء الثاني



تصميم الغلاف : المؤلف

المحتويات

(الجزء الثانى)

الموضوع	الصفحة
الرسالة الثالثة عشرة..............................	٧
الرسالة الرابعة عشرة..............................	٢٣
الرسالة الخامسة عشرة..............................	٢٦
رحيل شيخ المرضى.. ومرثية يحى الفضلى..............	٢٩
نكسة يونيو.. ومأزق الدبلوماسيّة العربيّة فى الغرب..........	٣٣
الشيخ زايد فى لندن لأول مرّة........................	٣٥
محاضرة فى ترينيتى.. والحالة الآيرلنديّة..................	٤٢
جمال محمد أحمد، ساحر البساطة.. وكبير أساقفة كانتربيرى........	٤٥
جمال وفرقة الباليه الغينية التى بهرت لندن..............	٤٥
ثورة أكتوبر تخلق مشكلة إعلامية للسفارات..............	٤٧
الرسالة السادسة عشرة..............................	٤٨
الرسالة السابعة عشرة..............................	٤٩
الرسالة الثامنة عشرة..............................	٤٩
الرسالة التاسعة عشرة..............................	٥٣
الرسالة العشرون..................................	٥٥
الرسالة الحادية والعشرون..........................	٥٨
سيناريو الشاعر محمد عبدالحى.. لقصيدة الشيخ إبراهيم عبدالدافع......	٦٣
وثيقة تنازل الملك بادى عن البطانة....................	٨٣
الرسالة الثانية والعشرون..........................	٨٧
لقاء المجذوب وروزمارى............................	٨٨

الموضوع	الصفحة
الرسائل بين العهد الديمقراطى..والعهد الديكتاتورى..............	٩٥
الرسالة الثالثة والعشرون................................	٩٧
أحاديث الأجازات ما بين لندن - وباريس - والخرطوم...............	١٠٠
آخر عمل فى لندن................................	١٠٥
آخر المشاعر فى لندن... سودانية نادرة تقلب المفاهيم.............	١٠٦
الحياة.. والعمل فى باريس.................................	١٠٩
رحيل عبد الناصر................................	١١٧
أنقلاب هاشم العطا................................	١١٨
مأساة محمد ميرغنى.. تجربة دبلوماسية فريدة................	١١٩
إصدار كتاب بالفرنسية عن الجنوب........................	١٢١
ظاهرة أسمها: منصور خالد................................	١٢٣
رأى المجذوب فى منصور خالد................................	١٣٧
مع محمود رياض.. فى الجامعة العربية........................	١٦٣
فى ضيافة عيدى أمين................................	١٧١
مع الأميرة مس بجايا فوق مساقط النيل........................	١٧٣
سباق بالطائرات.. ومعارك بالتلفونات........................	١٧٥
البحث عن " نصّاب " سودانى، باسم الجامعة العربية............	١٧٨
أحاديث العودة الثالثة إلى الخرطوم........................	١٨٠
إسدال الستار على الذكريات الأوربية........................	١٨٠
حياة القاهرة: الرسم، السينماء، الموسيقى، وفضل السودان على البيضان	١٨١
زيارة محمد أحمد محجوب للقاهرة........................	١٨٥
د. نوفل، نادية رحاب، وسفير تنزانيا........................	١٨٨
سرير الخديوى................................	١٩٢

الموضوع	الصفحة
هيكل يفشل مع جينى.. ومرشد سياحى ينقذ سمعة العرب..........	١٩٦
حكاية بهيّة الشكرية.. المصريّة...........................	٢٠٢
مع التدهور.. تذكّرنا المشروعات المرفوضة.................	٢٠٩
إضاءآت.. ذكرناها..	٢١١
فى الخرطوم.. عودة أجواء أكتوبر.......................	٢١٥
أحمد السيد حمد، يقبل نصيحتى بالأستقالة.. ثمّ يتهرّب.........	٢١٥
إصدار كتيّب.. عن الترابى.................................	٢١٧
أدب المقاومة.. تبادل الرسائل مع عزيز التوم..................	٢١٧
مأزق الحركة الأتحادية... والورثة العاجزون...................	٢٢٢
مؤآمرة المهندس عوض الكريم.. وخاله........................	٢٢٨
آخر اللقاءآت..	٢٢٩
محمود محمد طه.. وفايزة عمسيب............................	٢٢٩
ردّ الأعتبار.. لمحمود محمد طه............................	٢٣٠
الشاعر الحلمنتيشى.. خليل عجب الدور.......................	٢٣١
محمد حاجّ حسين..	

صرتُ لا آبهُ للناس إذا عـابوا طريــــقى

لم أحاسبهم، وعندى السيفُ ذو الحدّ الصفيق

سقطوا فى حِيَلِ الفقــر وأوهام الرّقيــــق

صدقت عندى المصابيح على ضوء الرّحيق

وجَلَوْتُ القمرَ المحبــــوسَ فى ذاك الفريق

والذى يحملُ تاجَ الشّــوكِ مصلوبا صديقى

المجذوب

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

<<<<<<< الأهداء >>>>>>>>

أخى محمد...

حينما بدأت الصفحات الأولى من هذا الكتاب.. بوحى من خطاباتك،

لم أكن أعرف أننى سأكتب مذكّراتى...

ومع تطوّر فصول الكتاب... أدركت أنّ أيام صداقتنا وحواراتنا،

كانت هى العمر الجميل...

فألى روحك العذبة السّامية...

أهدى هذا الكتاب، الذى هو منك... وإليك.

" على "

الرسالة الثالثة عشرة : معنى الأبوّة. خطيب روزمارى. الأنجليز وعدم الأنحياز .

الخرطوم ١١/ ٢ / ٦٧

عزيزى على،

ونظرت إلى الخطاب الأزرق، وعرفت خطّك، وتحرك فى أعماقى سرور ذكّرنى أيام الصّبا.. أيام كان الفرح فرحا ـ وطربت غاية الطرب.. صرتَ أباً ! كيف لم تخبرنى بذلك ؟. وأنت الآن تعرف معنى الحياة حقّا، ويتّسع قلبك لفهم الآخرين ـ ندى على!..أرجو لها حياة صافية متألّقة بالمعانى العظيمة ــ أنت الآن شيئ آخر ـ تلمس الحياة لمسا مباشرا ـ ولا بدّ أن تكون الآنسة ندى آية فى الحلاوة ـ أعوّذها بربّ الناس ـ ضَعْ بجانبها مصحفا واجعل لها تميمة ـ لقد تحرّك قلبى إليك حركة جديدة، فأنت والد ، وأنا أعلم ما يعنى هذا حقّا.

والحمل، كما رأيت تجربةٌ للرجل ــ فما يزال مهموما، وقد يساوره نَدَمٌ مصدرُه الأشفاق ، فأذا جاء المخاض صعد الأشفاق والخوف إلى قمّة من العذاب فريدة ، لم تكن تخطر على البال، فأذا جاء الوضع فتحت عينيك على أمر مدهش ـ ليست لك علاقة بالوليد..علاقته بثدى أمّه، فأذا ابتسم بعد شهرين، بدأت علاقتك العميقة المثيرة ـ وهذا أول حمل لك، وأعرف ما عانيت تماما.. يا حليلك !

هذا كلام لا أقوله لكلّ أب سودانى.. وإنّما أقوله للفنان الشاعرعلى..فقد رأيت رجالا يولد لهم فلا يهتمّون ولا يفكّرون فى فترة الحمل والولادة، وإنما يهتزّون فخرا لأنّهم أثبتوا رجولتهم. وهذا شعور جاهل منفصل عن الحياة والعلاقات الأنسانية.

أحمد الله ـ حَمْدَ شاكِرٍ نُعْمَى ـ على سلامة السيدة الفضلى وسلامتك، وأبارك ندى بكلّ ما أوتيتَ من حُنُوٍ وتَرَقُّبٍ وأُبُوّة.. وأصبْتَ ، فلن تَعْمُرَ الحياة بغير الفن. وإذا صحّ لى أن أتنبأ ـ وأنا من أنبياء الدّامر ومن سادات البشر كما علمت

- لقلتُ أن السيدة ندى ستكون سيدة جليلة ذات شأن بحول الله ورعايته.. وهى قد ورثت منك نُبْلا وكرما وأريحيّة.

هذا وقد أزعجنى ما علمت من أزمة روزمارى - بنتى! وأصابنى الوسواس - هل أرادت إرسال خطاباتى بواسطتك لأن خطيبها رأى هذه الخطابات الغريبة التى تصل من الخرطوم فكان ذلك سببا للخلاف - لو صحّ ذلك فلك أن تتصورّ ما أصابنى. وليتك تحدثّنى عن هذه الأزمة.. كم يشغلنى أمرها ! تصوّر فتاة على أبواب الزواج فى أنجلترى، تحلم بالأستقرار وينهار ذلك. وكنت أتصور أن علاقتها مع خطيبها قامت على فهم، وأن كل واحد منهما أصبح ضروريا للآخر.. خطيبها ! هل معنى ذلك أنه ألبسها الخاتم.. أم هو Boy Friend ، وصدقّتك حين قلت إنها زميلة لك قديمة.. والعلاقات التى تصوّرتُها كانت تعجبنى، وأنا - بعد كلّ هذا - أحببتها من خلالك، وحبّى لها فى حقيقته حبّ لك وثيق.. أتمنّى أن يعود اليها الصفاء، وأن لا يكون الخلاف مع خطيبها حادّا يحطّم أحلامها فى أمل سعيد.. أتمنّى أن تكتب روزمارى إلىّ.

وقبل أن يصلنى خطابك الأزرق الجميل كنت أفكّر فى الكتابة إليها، ولكن خطر لى أن ذلك يكلّفك سعيا وميعادا وجلسة.. وفى ذلك نفقات روحية ومادّية.. فأدركَنى الحياء منك، وقلت أصبرُ حتى تكتب روزمارى إلىّ. تسألنى ماذا أقول لروزمارى ؟ كلام كثير.. أتعلّق بها لأخرج من حالة السودان.

إن الأطفال لا يتألمون فى فترة الطفولة، وحَدُّها البلوغ.. لايتألمون ألما عميقا، وقد يكون ألمهم ظاهريا، للتعبيرعن حالة.. وهم لا يبكون إلاّ إذا جاعوا أو مرضوا أو بلّوا ثيابهم من البول..لا يبكى الطفل قط إلاّ لما ذكرت.. والطفولة فى غاية الرّوعة، والأطفال سعداء فى فترة الطفولة، وهم فى نشوة من الحياة، يكتشفون فى كلّ يوم جديدا فيطربون.. وتربية الأطفال أمر دقيق جدا، والطفل حساس جدا.. ومَدارُ حياته الحبّ الوفير.

وطفلى عوض الكريم عمره ٥ أشهر، ويعرفنى جدا، ويتعلّق بى لأنّه يعرف أننى أحبّه ، فأذا مررت بسريره أظهر الفرح وحرك يديه ورجليه، وحاول النهوض، ونظر بعينيه فى إلحاح حتى أحمله . ولا بدّ أن أحمله وأطوف به فى الدار..فأذا تجاهلته عرف ذلك واضطرم وجهه وانكسر خاطره.

حذّرنى والدى من الحبّ العميق..يقول: أحبب هونا مّا.. يروّضنى بذلك حتى تَسلّمَ نفسى.. وزوجى تكره تدليل الأطفال، وتجعل لكلّ ذنب عقوبة.. ولكننى أشعر بضعفهم وحاجتهم، فأضعف معهم وأدلّلهم. ولو كان الأمر لى لجعلت حياتهم كلّها لعبا وفُسحة، من غير ضرورة للمدرسة.. ولكن الحياة قاسية ولا بدّ أن نَقْسو أحيانا على من نرحم، كما يقول أبوالطيب الحكيم.. هذا كلام، فأنا لا أستطيع ضرب الأطفال قط.. أذكر ضرب أبى لى وأمّى، وأذكر التأنيب وقارص القول ، فقد كنت طفلا حسّاسا.. ثمّ إننى خالفت كلّ أمر، ووطّنت نفسى على خلق نفسٍ لى أخرى.. وما زلت أعانى من هذا.. وتعلُّقى بروزمارى من هذا القبيل، فأنا أحبّ الخروج من نفسى القديمة، ولذلك صرت شاعرا ورسّاما حالما.. أتوق إلى حبّ وسلام.. ولكن ظروفى هنا تضغط علىّ ، ويصيبنى لذلك التشتّات والقلق والعزلة .

أن فترة المراهقة خطرة، ولكن الطفل الذى يحوطه والداه بالرعاية والأحترام والصراحة فى كلّ شيئ لن يكون البلوغ له صدمة .

وأراك مهموما منذ الآن بأمر ندى يا أبا ندى.. وذلك حق، فأنت والد، وأضحك فى سرور حين أتخيّلك محوطا بالبنات والبنين.. وأصبتَ فى أعطاء البُنيّة الحلوة الفن، فسيكون فهمها للحياة أعمق، وستعيش بذلك فى طفولة سعيدة طويلة. والعبد الفقير كاتب هذه السطور يرى الفنّان طفلا، لأنّه يقابل الأشياء بدهشة، ويحاول أن يقترب منها بالحب ، ويعبّر عنها ويُبْقِيها.. فهو لذلك موجود فى كلّ شيئ.. ألفنّ عِبءٌ ثقيل فى بلد كالسودان.. ولو أنفقتُ ما أنفقتُ فى العبث

السياسى ، لكنتُ اليوم (خ...) عظيما من زعماءالسياسة ، يُشار إليه .. بى شنو؟

لفت نظرى ما قلتَ عن الأنجليز، والدور الجديد الذى يعجزون عن العيش فيه الآن. وقد كنتُ تحدّثتُ قبل زمان طويل إلى صديق، قلتُ له لو أنّ الأنجليز تزعّموا كتلة الحياد الأيجابى، للعبوا دورا جديدا مشرّفا فى تاريخ العالم، ولَنَعِمَت الدنيا بسلام لا مثيْله ، وهذا يحلّ مشاكلهم ومشاكل العالم حلاّ إنسانيا.. وكان كلامى حلما بعيد المنال. هل يريد ديجول هذا..وأراده الشيخ الجليل بيرتراند راسل، ويريده كلّ عاقل. تصوّر لو أقدمت أنجلترى على هذا، ماذا سيكون موقف أمريكا أو الصين. والصين كما ترى خطر حقيقى على العالم... سيتحوّل العالم العربى تحوّلا خطيرا، أرجو أن تتأمّل هذا.

لقد نفع التهديد، وجاء خطابك الأزرق موجزا بليغا، أرضانى.

أوافقك.. ترجمة الشّعر العربى إلى أية لغة أخرى صعب... وصحيح أننى حين أكتب إليك أرتحل إلى عالم أفضل.. ألم تشعر روزمارى بسرور أننى أهديت إليها شعرا عربيا؟ أرجو أن يكون لصداقتى بها مستقبل حافل بالعطف والمودّة.

تسألنى عن السودان ؟ إنشقاق الأنصار قد وقع، ولن يجدى معه شيئ.. ولووضعنا أفكار الصادق جانبا، فنحن لن نغفل إصرار أحفاد المهدى على الخصومة ، فقد كان المهدى عنيدا.. والأمام [الهادى] يحاول الأتّصال بالسيّد على، وهذا منطقى جدّا.. ويَخْرُج الأخوان المسلمون ليقودوا الجماهير التقليدية باسم الأسلام، ولكنهم لا يستطيعون، فالأمام يريد أن يقود، والسيد على يخاف من الأخوان.. ولن ينفع الختمية اندماجهم فى حزب الأتّحاديين .. وهناك تجمّع لم تتضح معالمه بعد، أُريدُ السّخط العام.. ولا بدّ أن تقوم فى السودان قوّة واعية.. تعى دورها فى إفريقية.. وأبشّرك فأن الأزهرى لن يكون فى هذه القوة الواعية، ولا شيخ على، فليس فى أنفسهم شيئ.

ومما يسترعى النظر، أنّ الختميّة لهم دور واحد فى تاريخ السودان.. هوالتّخريب.. ولاّ شنو يا شيخ العرب.. وهم لا يخرّبون إلاّ أنفسهم.

أتذوّق بسرور بالغ صراع الأمام والصّادق.. سيقوم الأمام بمجهود هائل، وهو قوى جدا من ناحية المال ، والرّجل خطر، والمعركة ضارية. وأخشى أن تكون وراء الأمام قوى أجنبية..وضَعْ هيلاسلاسى فى الحساب. أن الصادق يحتاج إلى قوّة نادرة وعمل متّصل ليهزم الأمام.. والأمام سينهزم بعد زمان قد يطول، ولا أدرى دور الصادق الآن، ولكننى أعرف سقوط الأزهرى، لا سقوط حـــزْبِهِ ، كما أعرف سقوط شيخ على.

المهم أنّ مصلحة الأمام والسيّد على، إنهـاء الجمعيـة [التأسيسـة] وقيام الأنتخابات فى أبريل، وأحسب أن الصادق لن يتخلّى عن الحكم، وسنرى كيف يكون الحال بعد انتخابات الجنوب التى يسعى السيد على إلى تخريبها، ويطمع فى نتائجها الأمام، ويخشى منها أزهرى، وهو لايستطيع معارضتها لكونه رئيس مجلس السيادة الذى أقرّ إجراءها.

والحزب الأشتراكى الجديد أراه ضعيفا الآن، أى لم تتضح معالمه بعد، ولو كنت من قادته لوثّقت علاقاتى باتّحادات العمّال والموظّفين للتحضير للأضراب السياسى.. فقد ضعفت ميول اتّحادات العمّال والموظّفين إلى الأحزاب، والأضراب السياسى مرحلة لاختبارقوّة الحزب الجديد.. وأحسب أن الشيوعيين سيضعفون، هذا أمر أراه الآن. وللصّراع الشيوعى الخارجى أثر يصرِف النّاس عن الشيوعية كلّها، وأنت ترى أن " ماو" يحاول تغطية الضّعف الشيوعى السّياسى بثورة.. والشيوعيون يضعفون لاختلافهم، إلاّ إذا جَرّ ماو هذا العالم إلى حرب، وسيقضى ذلك على الشيوعيّة.

الكلام فى السياسة ممل جدا.. وأنا غير ميّال إليها بصفتها الحاضرة.. يا حليلك ! تذهب إلى المستشفى لتتأمّل هذه الزائرة الغريبة، كأنّك غير مصدّق..

إصبر شهرين حتى تعرف ندى، ولا تفكّر منذ الآن في مصيرها، وسيكون لها رأى في كلّ شيئ بعد أن تحبو. أتمنّى أن أراها الآن.. خُذْ لها صورة بعد شهر وابعث بها إليّ ، مَنْ يدرى ؟ فقد تعجب ولدى ونتولّى عنك التفكير في مستقبلها. وأهل السودان كانوا يزوِّجون الأطفال منذ ولادتهم، لا بدّ أن يكون لهم رأى.. الفِرار من مشاكل البنات على الأقل. وما زلت أتعجّب من تفكير أهل السودان في هذا الخصوص. ولو تأمّلتَ ، فأنّهم يعالجون الأمور بطريقة عجيبة طمعا في الأستقرار.. وأحسب أن أهل السودان يفرّون من المشاكل إذا وجدوا سبيلاً للفرار. وليس لهم ، إذا يئسوا أو أُحْرِجوا إلاّ العناد والأصرار والموت الأحمر.. تطرّف وبساطة عجيبة .

ولكنّ السودان قد تغيّر كثيرا.. وامتلأ بالأفنديّة أولاد الحرام.

أفهم من خطابك أن الأنجليز يتغيّرون..لابدّ من هذا ، ولكنهم يخافون التغيير هذا طبيعي.. وعبدالناصر لا يرغمهم، وإنّما ترغمهم الظروف، لأنّ المستقبل مع عبدالناصر..الأنجليز يخافون من أمرين ؛ من عواقب التفكير القديم، ومن عواقب التفكير الجديد. وهم الآن قلقون ، وهذا طيب جدّا.. ولو كنت من مستشارى الرئيس العربى لطلبت إليه أن يدعو إنجلترى إلى كتلة الحياد الأيجابى، وأن يزور انجلترى. العالم فى حاجة إلى السلام الآن.. وليس لأنجلترى مستقبل مع أمريكا.

وروزمارى، لماذا خالفها خطيبها، هل هى شرسة ؟ أم هناك أمرأة أخرى. ولاحظت شيئا، وهو أنك تشير إلى روزمارى بسرعة كأنك لا تريد ذكر شيئ عنها.. الحكاية شنو ؟ نوِّرُونا.. هل خطاباتى هى السب ؟ أنا مهموم ولا يسعنى إلاّ ذلك ما دمت لا تخبرني بشيئ. لو رأيت أن تريحنى من هذه الناحية ، فعلتَ مشكورا.. هل طلبَتْ إلىّ أن أكتب إليها بواسطتك لأن عنوانها السابق وورود خطاباتى إليه عرّضها للكلام، هل الخلاف بين أُسْرَتيهما، وهل يعيشان معا.

جمال محمد أحمد رجل فاضل، لأنّه أديب.. ولو كان للناس هنا ذرّة من فهم، لمافتحوا أبواب الخارجية إلاّ لأصحاب البيان.

أنا أحبّ كتابة الخطابات، ثرثار من الطراز الأول. وأحب أن يعود الردّ إليّ عاجلا.. ماذا تقول ؟ أهددك مرّة أخرى !.. لا.. سوف انتظر لأرى.. وأنا كما أخبرتك فى غاية الشراسة، فأنا أحبّ بكلّ قلبى وأعصابى، وأنتظر المعاملة بالمثل، فأذا نقصت شعرة فى الميزان أسكرنى الغضب.. أوعك.. أعمل حسابك!

هل مرّ عليكم صلاح أحمد أبراهيم.. الجَنَى دا شاعر.. جمال يحبّه جدّا. وما كنت أعلم أن الطيب صالح فنان حتى قرأت له قصّة فى "حوار".

قدّم حسن نجيلة استقالته من لجنة النّصوص بعد أن ظهر هجوم عليها فى مجلّة الأذاعة ، أعتَبَرَهُ هجوما رسميا.. خوّاف .

وصدرت مجلّة " القلم " بتاعة حسن نجيلة، مطبوعة فى بيروت.. مش بطّالة، ولكنّها ستكلّفه الكثير، وأنا مشفق عليه وإن كنت لا أحب جبنه.

بدأ ترحيل أخواتنا الحبشيات.. هذا خطأ.. واجبى أن أرحل معهنّ، أخشى أن (ي...نا) الأخوان المسلمون، إذا لم يجدوا ما (ي...) .

جلست أكتب هذا عند وصول خطابك. تركت كلّ شيئ لأكتب إليك، ولك حبّى وشكرى.

أخوك

محمد المهدى مجذوب

فى هذا الخطاب الحميم، تبدو أبعاد جميلة فى شخصية المجذوب، وفى عمق العلاقة الأخويّة التى ربطت بيننا؛ فهو يتحدّث عن مولودتى الأولى بشغف الوالد الحقيقى.. وهو يفرح لى فرح الأب والأم، وهو ينصحنى ويرشدنى ويعلّمنى، كما يعلّم الأب فِلْذَاتِ كَبِدِه.

وأتوقف عند اهتمام المجذوب المتكرر والعميق بالسلام والأمن. السلام داخل النفس والسلام خارجها، السلام المحلّى والسلام الدولى. وهذا موقف أصيل لدى المجذوب ينعكس فى صور ومواقف كثيرة فى شعره. وقد استوقفنى ذلك فى عدد من قصائده، وهذه بعض النماذج :

أعِنّى أيُّها النّـــــائى بِوَعدٍ ولستُ أقولُ عن يأسٍ : أعِنّى
أُحبّكِ إذ علَوتِ بلا ريـــــاءٍ على وطرٍ يَعِــزُّ على التّدَنّى
أردتِ لىَ السَــلامَ وفى حنينى حلاوةُ ذلك الخجـلِ الأغــنّ

***

ربّ عادت بىَ الثّمـــــارُ إلى الجـــــوعِ فكانت مَنِيّتى من أمانى
وعُيونى غيّرتُها أطلب السّــــــــلمَ وضاحكتُ قُدْرَتى فى هوانى
فرّقنى الكؤوسُ فى أنفُسِ الشّـــــــربِ فقسّمتُ بينهم ما أُعـــانى
وتحاشيتُ أن يصادفنى المِحـــــــرابُ يشتاقُ سَجدةً فى جَنانـــى

***

كم لَذّنى منكِ الأمانُ وشاقنى سِرُّ البيان بجسمك المِعطاءِ
إن فاتنى منكِ اللّقاءُ فلم يزلْ عنّى إليكِ تَشَوّقى ودُعــائى

***

أورَقَ الشّعرُ فى يدىّ ولم أظفَــــــر بِظلٍّ على الرّياح الغـواشِمْ
يا ابنةَ الغيبِ فى جِوارِك ما أرجــــو من السّلم والوُعودِ الروائمْ
أنتِ فى ذلك النّداءِ وحَسْبى ليلةٌ فى نهارها ليلُ حـــالمْ

***

نُقاتِلُ أحزانا ، وحبًا ، وموطِناً تُقاتِلُنا فيه القيـــودُ القـــــواتِلُ
تَخــوّفَ منّى مِنبَرٌ كم أروضُه على الصّدق، تَخشى ما يقولُ المَحافِلُ
تمنّيتُ أنّ الشــــعر أمنٌ وغفلةٌ ولكنّه صَحوٌ مع الهـــمّ شــــاغلُ

وغير ذلك كثير من الصور والمعانى التى يشكّل السلام والأمن مِحورا مركزيا فى نسيجها.

وأقف عند وعى المجذوب الناضج بأفريقيا وأهميتها للعرب وللسودان، فلا يكاد يخلو تعليق من تعليقاته السياسية من أشارة إلى غياب البعد الأفريقى عن الأستراتيجية السوذانية.

والمجذوب شاهد عيان ومحلّل للمعركة بين الأمام الهادى المهدى وابن أخيه الصّادق، ولكنّه لا يستطيع إخفاء تعاطفه مع الصّادق.

والمجذوب ساخط على الأزهرى، متنبّئ بسقوطه لأنه " استحلّ العودة إلى أحضان الطائفية، ورفع راية الأسلام السياسى، مساهما فى خلق الأزمة الدستورية من أجل الحصول على رئاسة الجمهورية ."

وأقف عند حديث المجذوب عن أهل السودان؛ وكيف أن شخصيتهم الأساسية هى نبذ العنف وتجنّب المشاكل ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فأذا ما يئسوا أو أُحْرِجو، أختاروا العناد والأصرار والموت الأحمر. وهذا فى تقديرى تحليل دقيق وفهم عميق للشخصية السودانية.

وهذا يذكّرنى بما يرويه السِنّاب عن نصيحة الشيخ عوض الكريم عبدالله أبوسن لمدير المديرية " هوكسويرث " الذى أشرف على نزع الأراضى الشاسعة التى كان يملكها الشيخ إبراهيم عبداللاه أبوسن فى رفاعة، بناء على قانون أنجليزى بجعل الأدارة الأنجليزية هى المالك الوحيد لأراضى السودان. فقد تقدّم الشيخ إبراهيم بشكوى إلى الحاكم العام، فلما لم يستجب سافر إلى مصر سنة ١٩٣٦ وقدّم شكوى الملك فؤآد والملكَ جورج السادس ضدّ الحاكم العام، وأيّدت مصر الشكوى، وأرسلت استفسارا للحاكم العام. أنزعج هوكسويرث من تطوّر المسألة وسفر الشيخ إبراهيم إلى مصر، وذهب يستنجد بالشيخ عوض الكريم الذى قال له : (أنا ما قلتَ ليك أبْ آمنَه دا خوّاف بعيد.. لكين وقت يِنْبَلِى، بِيمُوت)

وهو نفس المعنى الذى قصده المجذوب عن الشخصية السودنية. ومن عجائب ما صادفنى فى مصر أيام الدراسة أننى ذهبت سنة ١٩٥٦ أبحث عن قبر جدّى أحمد باشا أبوسن فى المقابر الملكيّة بالأمام الشافعى، وكان ذلك أول عهدٍ لى بالمقابر المصريّة ذات الأسوار والحجرات، فأدخلنى الحُرّاس عبر دهليز مخيف وسط المقابر لأسأل حارس المقبرة الملكية العجوز فى حجرته وسط الأموات فتبعتهم وأنا أرتعش من الخوف، وخُيِّل إلىّ أننى لن أخرج حيّا .

وبعد مسيرة، نادى أحدهم: (يا حاج اسماعيل! فيه واحد هنا بيسأل على قبر واحد ما عرفناهوش، بيقول دا مات بقالة ميت سنة). صاح صوت من الحجرة: تعالوا هنا! قلت فى نفسى إنّ هذه هى النّهاية. ودخلنا من سرداب إلى غرفة ، فأذا بشيخ سودانى هَرِمٍ، بالجلاّبية والعمّة، تتدلّى لحيته البيضاء إلى صدره، يضع يده اليسرى المرتعشة فوق عينيه ليرى، ويمسك عصا "حَنْكُولْ" بيده اليمنى، وهو جالس فوق سرير عال، وإلى جانبه ترقد على سرير قصير جدّا، أمرأة سودانية فى حوالى الثلاثين، تلبس الثوب. صاح العجوز بانفعال: داير قَبُر مِنُو ؟قلت: أحمد باشا أبوسن. فأذا بالشيخ يقفز من سريره ويمُدُّ يده بالعصا فى اتّجاهى صائحا: هادا تَرَى. وأقبل نحوى يرتعش كلُّه ويسنده الذين حضروا معى، وسألنى: إنت أسمك مِنو؟ قلت وأنا أتلفّت لأرى القبر بناء على (هادا تَرَى).. أو ربّما لأتلمّس طريق الهرب : : أنا إسمي علي أبوعاقلة أبوسن. أمسك الرجل بيدى بقبضة حديدية مرتعشة، وأخذ ينهرنـي بأعلي صوته : إنتو وين ؟ إنتو وين ؟ إنتو وين ؟ ـ كاد يصفعني !ـ آخر زول جاء سأل عن القبر دا كان من عشرين سنة. (بعد ذلك بسنوات علمت من أهلي أن الشيخ إبراهيم عبدالله زار قبر جدّه أحمد باشا حينما حضر إلي مصر لتقديم شكواه ألي ملكها وملك بريطانيا ضدّ الحاكم العام البريطاني. كانت الزيارة سنة ١٩٣٦، وكان لقائي بالحاج إسماعيل سنة ١٩٥٦، عشرون سنة بالضبط).

جرّني الحاج أسماعيل جرّا إلي خارج الغرفة وعاد بي ـ محفوفا ومسنودا شبه محمول بمساعديه ـ من حيث أتينا حتي بوابة المقبرة الملكيــة. دخلنـا، ومـن القبّـة إلي اليمين.. مقصورة مستطيلة .. قبر قديم عليه شجرة صحراويّة خضراء شقّت طريقها في قلب الحجر.. وقف الرجل وأشار : (دا قبر جدّك !. هنا أسمه: قبر الأمير السودانى. أنا لمّا جيت هنا، جـدّك دا كـانت ذِكْرَتُـه خَـدّرة ، والشجرة دى زرعوها العرب. كانوا كل سنَة يجوا يبيعوا الجمال في إمبابة، ويعملوا " حوليّة " هنا قِدّام القبر، يضبحوا ضبــائح كتـيرة لمـدّة سبعة يـوم، وبعدين يسـافروا. ليهـم سنين ما جوا)

ويعود الرجل ليصيح في وجهي: (إنتو ويـن ؟ إنتـو ويـن ؟ إنتـو ويـن ؟. منو أزهرى دا البِقَي حاكم ؟ والميرغني دا شنو ؟ والمهدى دا كيف طلـع تـاني؟ البلد دى مــا حقّتكم إنتـو ، مـالكم ؟ حصـل ليكـم شنو ؟. ومـرّة أخـرى أعتراني الخوف. هل أنا في عالم الأساطير.؟ هل ذهبت فعلا إلي العالم الآخر ؟ مـن هـذا الرجل، وإلي أى عصر ينتمي؟ .

لم يمهلني. جرجرني مرة أخرى إلي غرفته ـ أذكر أن تلـك المـرأة التـي كانت معه لم تفتح فمها بكلمة، والغريب أنه قال لي إنهـا قادمـة مـن رفاعـة!!! ـــ وأنها ابنته، وزاد ذلك من إحساسي بأنني ذهبـت إلـي العـالم الآخـر!. طـوال هُذهِ الفترة لم أتفوّه بكلمة. انعقد لساني. وتضاءلت أهمية قبر جدّى إلــي الحدّ الأدنـي. أصبحتْ النّجاة هي الهـدف. فـي غرفتـه ، أحسسـت أننـي سجين. إبنتـه صامتـة، صمـت القبـور! ومضّجعـة، هذا يقول إنهـا مـن رفاعـة فعـلا، إذا لـم تكــن مـن الأمـوات! كـان وجههـا فـي اتجـاهي حينمـا دخلـت الغرفـة أول مــرّة ، ودون أن أشاهدها تتقلـب أصبـح ظهرهـا فـي اتجـاهي ثـم انقلبـت نحـوى وفتحـت عينيهـا.. توقعت شيئا.. لم يحدث. وجهها من النوع المحايد، ذلك النوع مـن الوجـوه الـذى ليس لـه أية اهتمامات أو حماس للتعبير، تنظر إليه فيقول لـك: أريد أن أنـام أيّهـا

الأحياء.

وهو لا يتوقف عن الحديث : جدّك دا كان حاجة عجيبة.. الناس كلها كانت بتتكلم عنّه. ـ أنا لا أصدّق كلمة مما يقول ـ كيف الفِرار؟ أين أنا ؟.. حاولت أن أتماسك سألته : متي جئتَ إلي مصر يا جدّى ؟

وبدأ يحكي حكايته. قال: (أنا جيت لي مصر عسكرى في جيش ودّ النّجومي! رسّلونا أنا وواحد زميلي للقاهرة عيون [جواسيس]، سافرنا قُبَّالْ معركة توشكي. لكن لما وصلنا للقاهرة هنا التلغراف ضَرَبْ قالوا ودّ النجومي كِتِلْ [قُتِل] والجيش كلّه انتهي. قاموا جماعتنا هنا قالوا لي أحسن نَخَبِّيك في مكان بعيد علشان مافي حدّ يعرفك. جابوني هنا ، واتعيّنت حارس للمقبرة الملكية من الزمن داك.) القصّة قابلة للتصديق، ولكنها لم تبدد مخاوفي. قلت له ببلاهة : ولكن لماذا تسكن في المقابر ؟ قال إن هذا هو عمله، ولكن له منزل في العباسية تسكن فيه أسرته وأولاده. وأضاف : ولدى ضابط في الجيش المصرى! ـ دون أن أصدّق القصة ـ سألته : ما دام ولدك في مركز ممتاز، لماذا لا تسكن معه وقد أصبحت في هذه السِّن ؟ ضحك وقال : ولدى قال لي زى كلامك دا. قال لي يا بابا المفروض ترحل من المقابر. قلت ليهو: يا ولدى! أرحل منّهِنْ بعد ما قرَّبْت ليهِن ؟! ثم يعود ليقول : جدّك الباشا كان هو الوحيد اللي الخديوى اسماعيل كان بيحترمه ويعمل حسابه، إنت عارف حكايته مع الخديوى في موضوع البامية. إرتاحت نفسي قليلا وقلت له إنني لم أسمع هذه الحكاية.

وفجأة دخل ضابط بزيّه الرسمي وسلّم: إزيّك يا بابا! في تلك اللحظة فقط تيقّنت أنني لست في الدار الآخرة !.. قدّمني لأبنه الذى قال إنه كان يستمتع بالحولية التي كان يقيمها العرب السودانيون كل سنة في ذكرى الأمير السودانى الشيخ أبوسن. كانت تبدو علي الضابط آثار سفر شاقّ طويل، وعلي وجهه ما يشبه آثار الحريق، وفهمت السبب حينما أخبرني أنه كان أحد ضباط القوات

المصرية في سيناء حينما وقع العدوان الثلاثي ــ الأنجليزى ، الفرنسي، الأسرائيلي ـ علي مصر ، وأنه قضي أسابيع طويلة هائما في صحراء سيناء يحاول تفادي الأسر علي يد القوات الأسرائيلية، حتي تمكن من العودة بمساعدة البدو.

أصرّ الحاج أسماعيل علي أن أتغدّى معه ـ ما أصعب الأكل وسط الأموات! ـ وحكي لي القصّة التي وجد الناس يتداولونها عندما وصل أول مرّة عن مأدبة الخديو اسماعيل حينما كان الشيخ أحمد أبوسن مقيما في القصر الملكي.

كان أحمد باشا علي يمين الخديوى في السُفرة ، ووراء كل واحد من الجالسين سفرجي يضع الأكل علي الطبق الذى أمامه. والخديوى هو الذى يقرر تغيير الصنف الذى أمام الجميع مشيرا بيده وقائلا بالتركية : كُشّي. فتضايق شيخ العرب من تغيير الصحون والأطباق والطعام ، ومن كَشٍّ الخديوى لها. قال الحاج اسماعيل : فلما أحضروا البامية ــ وكان أحمد باشا يحبّها ــ ، وما كاد يذوقها، حتي رفع الخديوى يده اليمني بالأشارة المعروفة فقبض أحمد باشا بيده اليسرى يد الخديوى وقال : (دى حرّم ما تكشّها!... يا الخديوى يا ولدي! نحن ناس عرب. نجلس حول أكلنا حتي نقنع ونقوم منه. نحن أولاد هاشم ، وهاشم سمّوه هاشم ليه ؟ ما لأنه كان بيهشم الثّريد. نحن أكلكم دا ما بينفعنا !)

فضحك الخديوى ضحكا شديدا حتي عجز عن الأكل، وأمر ـ خروجا علي البروتوكول ـ أن يُقدّم الأكل إلي أحمد باشا في جناحه بالطريقة التي يحبّها، وأن يُحضروا له عَوّاسة سودانية تَعِدّ له الكسرة.

أهلنا لم يعرفوا أصل الحكاية. ولكنهم سمعوا قصّة العوّاسة. وتعليق جدّهم، الذى كان حضوره للمرّة الثانية إلي مصر باستدعاء من الخديوى لأنه رفض تطبيق عقوبة الجَلد علي المتخلّفين عن دفع الضرائب بناء علي تعليمات

الخديوى الذى كان قد دخل في مرحلة الأفلاس بسبب تآمر الدول الأوربية عليه، وأصبح حديث الناس كلّه عن إفلاس البلد. وحينما أخبروا الشيخ أبوسن بأنهم فشلوا ، بالرغم من البحث الشديد ، في إيجاد عوّاسة سودانية ، قال متسائلا بسخرية : ألشّي.. الرّيفْ عِدم العوّاسْ ؟. وهو التعبير السوداني عن حالة الأفلاس المدقِع! وكان الخلاف بينه وبين الخديوى قد بلغ أشدّه.

وقد استوقفني في رواية الحاج اسماعيل لقصة البامية، أن أحمد باشا خاطب الخديوى قائلا: (يا الخديوى يا ولدى) واستبعدت أن يكون ذلك قد حدث، حتي رأيت الخديوى يخاطب أحمد باشا - في رسالته إلي الحِكِمْدار موسي باشا حمدى،حاكم السودان، المنشورة في مخطوطة كاتب الشونة، يقول له فيها:(والدنا أحمد بيك أبوسن، قوم علي أقدامك ليلا ونهارا وحصّل الأموال الميريّة ألخ.) [ص ٣٧ تحقيق مكي شبيكة سنة١٩٤٧مطبوعات كلية غردون التذكارية، بعنوان: تاريخ ملوك السودان]

لم أعد مرة أخرى لزيارة الحاج اسماعيل، لأن التجربة ـ بالرغم من نهايتها الطيبة ـ تركت في نفسي شيئا من الرهبة لم يذهب أثره لفترة طويلة.

وحينما عدت إلي السودان وأخبرت أهلي بتجربتي مع الحاج اسماعيل، وإعادة اكتشافي لمقبرة الرجل الذى يجلّونه إلي درجة التقديس، انبهروا وبُهِتوا. خاصة من حكايات الحاج اسماعيل شبه الأسطورية. فقد انقطعت أواصر العلاقة الحميمة بين آل أبوسن ومصر، مع المهدية، ومجاعة سنة ١٣٠٦هج. التي كادت أن تنقرض فيها قبيلة الشكرية، وأصبحت مصر هدفا بعيد المنال، وأصبح أنصارها وحلفاؤها في السودان موضع اتّهام، بل أصبح عِلمها وثقافتها وشخصيّتها موضع تندّر وانتقاص في أجهزة تعليم الأدارة الأستعمارية، حيث تعلّم أبناء السودان علي يد المستعمرين أن وُلاة دولة الخلافة الأسلامية العثمانية هم مثل عملاء دول الأستعمار الغربي الصليبية، وربما كانوا أسوأ !

تجربة شاهدها. ومرّت السنون...... ثلاثون سنة تقريبا علي لقائي بتلك ومع مرور السنين، أصبحت لا أحكي حكاية الحاج اسماعيل غير القابلة للأثبات. فقد تركت مصر وتقلبت بي الحياة في بلاد كثيرة. وأصبحت صورة الحاج اسماعيل باهتة في ذاكرتي حتي كادت أن تصبح وهما من أوهام الطفولة، خاصة وأنه لم يذهب أحد من الأهل أو غيرهم لزيارة القبر أو التعّرف إلي الرجل بعد ذلك، ولكن بقيت في نفسي حسرة المؤرّخ الذى فشل في إقامة الدليل علي الأشباح وسط المقابر المصرية ذات الأسوار والحجرات والدّهاليز والسراديب.

سنة ٨٦ ـ ١٩٨٥ ، في مكتبي بالمصرف العربي للتنمية الأقتصادية في أفريقيا ـ بالخرطوم.. كنت أدردش مع الزميل عِزّت فرحات عن ذكريات لنا قديمة في مصر عِشناها معا دون أن نتعارف وقتها. ووصل الحديث إلي العلاقات الأسريّة المصرية السودانية فقلت له أن جدّى مدفون هناك وحكيت له حكاية الحاج اسماعيل..

وكانت المفاجأة أن يقول لي عزت: هذا الرجل جدّى!! لم أصدّق أذنيّ وكررت السؤال: هل هذا الرجل حقيقة وليس من صنع خيالي؟ قال : بالعكس. هذا الرجل له أبناء وأحفاد عديدون الآن، والمرأة التي رأيتَها معه، وكانت مريضة، هي والدة الممثلة المصرية المعروفة محسنة توفيق! وأبنه الضابط الذى رأيته معه أصبح شخصا مهمّا. وحكي لي عزّت كل شيئ عن الأسرة ، بل أعطاني رقم تلفون " ماما شوشو " إبنة الحاج اسماعيل في القاهرة، وتحدثت إليها حينما جئت نازحا من حكم الترابي. وكانت قمّة المفاجأة أن عزّت أحضر لي صورة فوتوغرافية للحاج اسماعيل بدمه وعظمه ـ كما يقولون ـ وعرفت منه أن أسمه الكامل هو : محمد أحمد اسماعيل. والصورة معي الآن!

هذا... وقد حملني الأستطراد بعيدا. فقد أسكرني خطاب المجذوب!

أما الرسالة الرابعة عشرة من المجذوب فكانت رسالة عزاء ومواساة ، بعد

أن عزّاني شخصيا. فقد توفي والدى بعد عشرين يوما من ميلاد ابنتي. وسافرت إلي السودان، وحضر المجذوب للعزاء. وبعد عودتي إلي لندن كتب إليّ مواسيا. وعلاقة المجذوب بوالدى علاقة روحية جدلية !. كان شديد الأعجاب به. أول ما تحدثت إلي المجذوب عن والدى كان بسبب ملاحظاته المستمرة عنّي بأنني وُلِدت فنّانا. قلت له مرّة مازحا : أراك تقولها وكأن الفن أمر طارئ علي السنّاب، هل تعلم أنني تعلمت الرسم من والدى؟ قال لي إنه يعلم أشياء كثيرة عن والدى ؛ فهو يذكر أن عمّي الشيخ محمد حمد أبوسن حينما قدّمني إلي الأزهرى قال له : علي هو إبني ووالده أخي، وهو كبيرنا ، وقاضينا في الملمّات... أمّا حكاية الفن دى يا شيخ العرب؟.. كنت مصرّا علي مناكفته بما عندى من حقائق. قلت إن أبي كان يرسم علي الرّمال ب "الحدَاثَة ". قاطعني - وهو غزير العلم : إنت عارف إنو الحدّاثة بتاعة السنّاب دى هي صَوَلَجَان قريش، وكان اسمها " المِحْجَنْ " ؟ قلت: وما هو المِحجَن ؟ قال: عصا مُنْحَنية الرأس كالصولجان، كان يستخدمها زعماء قريش - راجع الأغانى! قلت: هذا حسن ولكن الفنّ موجود أيضا. وحدّثته عن حبّ والدى للشعر والأدب، وأنه كان يحفظ ديوان المتنبي. كان يستمع صامتا حتي قلت له أن والدى رفض الحلول محلّ والده في نظارة الخط الثاني، وتنازل عن النظارة لشقيقه الأصغر، وحينما سألته يوما لماذا رفض النظارة قال لي: النظارة تحت الأنجليز كلام فارغ. انتعش المجذوب لهذه القصة وقال: الآن أعترف لك، والدك شيخ عرب... وفنّان! فألي الرسالة :

الرسالة الرابعة عشرة : العزاء الرفيع.

١٩٦٧/٣/١٣

أخي السيد علي،

تحيات وأشواق... وعُدتَ إلي أُسرتك مطمئنا إن شاء الله... وأنت أبوك إلي ما شاء الله، موفّقا مبرورا ، تَلِدُك ندى، وأبناؤك في سعادة وحُبّ وفير.

كنت أخاف من الموت.. ولكنني، بعد التفكير، بدأت أستأنس به، فزال خوفي منه. وهو لن يكون نهاية.. وكنت أخشى من فقد الأحباء، فافتقدتهم. وفكرتّ في ذلك، فوجدت أنني قادر علي تذكّر اللحظات السعيدات التي وهبوني إيّاها.. فأذا ابتسمت للذكرى فأنا أبتسم لوجود الأحبّاء في نفسي.

المهم هو أن نرضي.. ففي الرّضا فُسحةُ طيبة هادئة، تجدُ فيها نفسك ونفوس الآخرين، ولا تنفرد بحزنك، لأنه تلاشي في أحزان الآخرين.. وهذه هي الحياة.

أكتب هذا سائلا عنك.. ولك حُبّي وشكرى، وللآنسة ندى تحياتي.

أخوك المحب

المجذوب

نَزَلَت عليّ هذه الرسالة، بما فيها من وُدّ وصِدقٍ وبِر، بردا وسلاما فكانت خير عزاء. موت والدى جاء مصحوبا بتجربة روحية فريدة لم أجد لها تفسيرا عبرالسنين. قبل أسبوع من الوفاة، انتابتني حالة قلق واكتئاب شديدة. وحينما سألتني زوجتي ماذا بك؟ قلت لها إنني أشعر بجَوِّ الموت! وقبل يومين من الوفاة طلبت إليها أن تُخرِج ملابسي السودانية التي لا نستعملها في لندن إلاّ في الأعياد القومية، وأن تضعها في حقيبة لأنني أشعر أنني سأسافر إلي السودان. رفضت زوجتي واعتبرت ذلك تخريفا لا معني له. وفي إحدى الليالي وصل

القلق قِمّته، فلم أنَمْ.. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل قفزت واقفا من السرير كالملسوع.. ثم لم أنم بعدها. في الصباح ذهبت منهكا إلي السفارة، منطويا علي نفسي من الجميع. جاءني الساعى وقال لي إن السيد القائم بالأعمال - بشرى حامد جبرالدار - يريد أن يراك في مكتب السفير. ذهبت. وجدته متجهّما. قال تفضّل. جلست. مَدَّ إليّ ورقة وهو يقول : والله يا علي أنا ما عارف أقول ليك شنو، ولكن هذه الأشارة اللاسلكية وصلت هذا الصباح. البركة فيكم، والدكم توفّي (أتضح أنه توفّي السـ١٢ ساعة بتوقيت السودان ، الثانية بتوقيت لندن!!)

لم أجد أيّة غرابة في الخبر، فقد كنت أعيش جوّ الموت حقيقة لمدّة أسبوع. حدثّت المجذوب بذلك فسألني : ماذا استحضرت بصفة خاصة عن والدك أثناء تلك اللحظات الروحية الحادّة ؟ قلت : تذكّرت حديثا جرى بيني وبينه حول أمّي ، فقد ماتت أمّي وأنا في الرابعة ، فلا أكاد أذكر عنها شيئا. تجرّأت وقلت له مرّة - وأنا في الجامعة - أنه لم يحدثّنا أبدا عن أمّنا ، وكيف كانت ؟ فكيف كانت؟.. فوجئ بالسؤآل الجريئ.. صَمَتَ بُرْهة ، وسَرَح ثم قال : كانت غريبة. بعد فترة وجيزة من زواجنا كانت تقرأ معي ديوان المتنبي! لقد تعلّمتْ في الخلوة ، مع خالك عثمان وخالها الشيخ القدّال ... ثم هزّ رأسه وقال: غريب أن تسألني أنت بالذات ، دون إخوتك، هذا السؤآل. أذكر مرّة أنني عدت من المحكمة بعد انتهاء العمل فوجدتّها تحملك - وأنت وليد - تحاول تنويمك و " تُلُوليك " قائلة :

يــــا حبــيباً أفْتَديهِ ... بســـــُوَيْدَاءِ فُــــؤادِى
وبِعَيــــــــنَىَّ أقِيـــــهِ ... نَمْ... وعِشْ حُرَّ المَبادِى

قال والدى : فسألتها : جِبتِ " اللولاى " دا من وين ؟ قالت : وجدته في واحدة من مجلاّتك " الأثنين والدنيا " أو " مُسامَرات الجيب ".

والقصّة الثانية، حينما فاجأنا الوالد بالزيارة في منزلنا الذى استئجرناه بأمدرمان،

أنا وأخي عبدالله، وكنّا حديثي عهد بالتخرّج، فأدخلناه إلي غرفته وذهبنا إلي غرفة بعيدة نتشاور حول الميزانية وما إذا كان عندنا ما يكفي لكي نثبت أننا قادران علي تحمّل استضافة الشيخ أبوعاقلة ، الذى تعلن الأسرة كلّها حالة الطوارئ في رفاعة والقضارف حينما يزورهما ، لفرط إصراره علي النظافة والأناقة وجودة الطهو وإتقان عمل الشاى والقهوة ، والذى يرفض ـ علنا ـ أكل أوشرب ما لا يعجبه!!... وبينما نحن نسأل بعضنا : إنت عندك كم ؟... سمعنا صوت خطواته السريعة جدا في بلاط البرندة ـ حافيا ، ولم أره يمشي حافيا قبلها في حياتي ـ فدخل علينا وهو يُنْشِدْ :

لا تَخْشَيَا منّي ، أنا النَّسِيـــمُ
كِلاكُمَا ، غُصــنٌ زَهــَا ، قَوِيمُ
والغُصنُ إلفٌ للهـــوى قَدِيمُ
والغُصْنُ طِفلٌ ، والهَوى.. كالمَهْدِ

ما تخافوا.. أنا عندى فلوس!!

فلمّا سمع المجذوب هذا الشّعر قفز وقال : علي الطلاق أنت شاعر أبن شاعر، وفنّان ابن فنّان !

والرسالة التالية التي وصلتني من المجذوب جاءت ردّا علي رسالة منّي كلّفته فيها بالأتصال بالأستاذ أحمد المرضى جبارة ، مسجّل جامعة الخرطوم ، وأبن عمّ زوجتى فى أمر لا أذكره الآن. والرسالة تعكس الأحساس العام بقرب وقوع انقلاب عسكرى، وفي نفس المجذوب رغبة خفيّة في أن يقوم الصادق المهدى بهذا الأنقلاب، وأن يكون انقلابا مدنيّاً! وهو ينقل إليّ الأشاعات التي تدور حول الرئيس أزهرى، والتي تزعُم أنه سيصيّف في أركويت، وزواج ابنته وسفر زوجته الخ.

الرسالة الخامسة عشرة : أشتات !

٦٧/٥/٥

عزيزي علي،

أحييك، وأسأل عن الآنسة ندى.. كيف أحوالها.. كيف حالكم في هذا البرد؟ أتصور أن الناس في أنجلترى يلزمون النيران طوال فصل الشتاء، ولا يخرجون لعمل. هكذا أتصوّر، وهو بالطبع تصوّر إنسان من شعبٍ آية في الكسل.

وبلغتني إشارتك، واتصلت فور وصولها بالسيّد المرضي، والتزم بالأمر ولعلّه أنجزه بعد حديثي معه. والسودان يقترب من أمر لا أدري ما هو. ولعلّ زعماءنا يعرفون ولكنهم يترددون حتي تقع الكارثة. وأحسب أنهم ينتظرونها ولا يبالون.

أنتخابات الجنوب، نجح وليام دينق، وسقط سانتينو. وهذه ظاهرة تضع أيدينا بعُنف علي وعي الجنوب، ولا بدّ مما ليس منه بدّ. وظاهرة أخرى لا أرى لها أهمية في المستقبل، وهي فوز حزب الأمّة في الجنوب. هذا أمر وقتي، إلاّ إذا فكّر السيد الصادق في انقلاب مدني الآن.. الآن...

أم ينتظر الناس الأنتخابات! ولكن الأتحاديين يخافون منها ؛ فهم ليسوا مع الختمية وليسوا مع الأنصار.. ولا أحد معهم إلاّ أسطورة رفع العلَم...علَم شنو؟! وليس هناك وعي كاف في الأقاليم لأسقاط النّواب التقليديين، والدوّامة في الخرطوم. العساكر كويسين.. هكذا يقول العامّة، وأخشي أن يصير هذا رأياً له أنصار.. وقد يقع انقلاب أمريكاني.. أنا أتحدّث إليك وأشعر بالخطر..لا، ليس وسواسا.. وهكذا كتب الله علينا لنعيش مع القلق.

كتبت هذا قبل زمان طويل وورد عليّ خطابك فاستمتعت به جدا، وسرّني أنك بخير.. والصبر مزِيّةٌ عُظمي، وهو أن تترك ما يُحزن إلي ما يَسُر.. ولا

يطيق هذا إلاّ أمثالك من الحكماء - وتسألني عن روزماري.. لقد صمتت قبل دهور وصمتُ أيضا..ولاأدري من أين يُصيبها الحرج.. ألا تستطيع أن تكتب عن نفسها كما كتبت إليها عن نفسي غير تارك شيئا.. لو عرفت عنوانها ، لكتبت إليها ، فأنا في أشدّ الشوق إليها.. وهل صالحت خطيبها.. وهل تزوّجت ؟ يا حليله !

أشكرك علي اهتمامك بأمر ديواني.. وأنت الوحيد الذي يهتمّ به هذا الأهتمام. وقد نظرت فيه قبل أيام فلم يعجبني. ومهما يكن من أمر فأنا عامل علي طبعه علي الآلة ، أملا أن يصل الناشر فيجدني قد أنجزت شيئا. والشّعر كثير، ومعني هذا أن أسقط الكثير جدا ، فلو استقام لي منه ديوان واحد جيّد لكان كافيا. أحدى القصيدتين اللتين أهديتهما إلي روزماري نشرتها مجلة " القلم " وأخطأوا في الأسم فكتبوه روزباري ، وأغضبني ذلك جدًا.. أرجو أن تبعث بشيئ من شِعرك لأنشره لك في القلم، ولا تنسي أن ترسل صورة مع القصائد ـ يا حليلك ! في غاية الزّهج.

صرت لا آكل اللحم، ولا أشرب الخمر، فمعدتي أصبحت رديئة، ومَرَدّ ذلك كما أظن هو تلَف أعصابي وقلقي.. كم نويت الهرب من هذه البلاد ، وهيهات ـ لا تشغل نفسك بأمور السودان ، فليس هنا شيئ يَعلّقُ به الفكر، فيرتِّب عليه نتيجة.

بدأ الحزب الوطني الأتحادى، أو الأتحادى الوطني! في التَصدّع. فقد طمِع قادته في خلافة الرئيس (ويا له من رئيس).. سافرت زوجه - كما قيل ـ إلي مصر لزيارة الحسين ، فقد طهّرت ولدها.. تأمّل يا عزيزى.. وبنت الرئيس خطبوها.. فجاءت الأحذية والملابس من الخارج. قال محدّثي. مئة جزمة ومئة فستان ، هذه مبالغة حَسَنَة لأنها تضع يدك علي ظنّ الناس في عظمة الرئيس.. وقصر أركويت تحت الأصلاح، وكذلك الطريق إليه ، فسوف يصيّف فيه الرئيس

الجليل.. وودّ الهندى حسين متكالب علي النّيابة... الأمام سيكون رئيس الجمهورية ، والصادق أيضا ، والأزهرى ، وبوث ديو.. سبحان الله ! سقط استانسلاوس في انتخابات الجنوب. وهو من أبناء الكنيسة الأبرار. وهذا يدلّ علي أن الوعي السياسي قد نضج في الجنوب. وأنا لا أشك في أن (ال...) سيملكون الشمال ، ومعهم الحبش وناس تشاد.. والله كويّس! مُش كدى يا شيخ العرب ؟... البلد كلّه (ل...)، والأخوان يعلّمون الناس كيف تكون (ال...) إسلاميّة.. ولقد ارتجف علي طالب الله واتّقدت عيناه حين قلت له إنني سأصير (ل...) تشبّها بأُلي الأمر، والتشبّه بالرجال فلاح.

هذا من السأم.. واسْعَدْ بأسرتك السعيدة.. أنا أشتهي لك سعادة وسلاما وعِصْمَةَ من كل سوء.

بدأ ولدى يخالفني.. والبنات أحسن من الأولاد ما في شك. ولا أحبّ أن أحاسب هذا الولد وأضيّق عليه حتي لا يتعلّم الكذب والنّفاق.. وتقول أمّه أنني أفسده.. وهي تريد أن أضربه بالكُرباج للتربية، وهذا فظيع، وهي تضربه في غيبتي.. صحيح أنّ الضرب الخفيف مفيد ، ولكنني أنفُر حتي من الكلام الجارح ، ورأى أبي الطيب (ولتقسُ أحيانا علي من ترحم) أحيانا ، ولكنني لا أستطيع. كيف حال الآنسة ندى.. هل هي تشبهك ؟ هل تقعد وحدها.. ما أحلي الأطفال.. خير ما تعطيه لها ، أن تكون من ربّات البيان.. ولها من ذلك ميراث عظيم، حفظها الله ، ولاتنس أن تجعل لها تميمة ، ضرورى جدا ، وعوّذها.. حفظها الله لك وأسعدكم جميعا.

هذا وسأكتب إليك فاكتب عن أي شيئ من غير استعداد كما أفعل. ولك شكرى، وبقيتَ لأخيك المحب.

المجذوب

وأقف عند مآخذ الشارع السوداني علي الرئيس أزهرى، ومن بينها أنه يخطّط لكي يقضي الصيف في أركويت بين جبال البحر الأحمر القاحلة، وأن ملابس عرس ابنته جاءت (من الخارج). ثم شهِد المجذوب بعد ذلك حكاما لا يقضون يوما واحدا بالسودان في عطلاتهم، والسيّدة الفُضلي شريكة خاشوقجي وصاحبة الملايين، ووزير خارجية للسودان تحدّثت عنه الصحف بأنه (وصل إلي الخرطوم في زيارة قصيرة للبلاد). وسمع المجذوب بأذنيه شعار ذلك العهد الفاسد المفسد، (الغِنَي، غِنَي.. والما غِني، يِركَبْ هِنا)!!

رحيل شيخ المرضي... ومرثية يحي الفضلي

في الفترة ما بين هذا الخطاب والخطاب الذى يليه، وقع حَدَثان كبيران أدخلا علي نفسي من الهموم والأحزان ما سيظلّ يُؤَرّق العين والقلب لسنوات طويلة؛ الحدَث الأول هو وفاة أحبّ الأتحاديين إلي قلبي، وأكثرهم صِدْقاً ووفاءً لي: الشيخ محمد أحمد المرضي. والحدَث الثاني هو حرب يونيو ١٩٦٧ بالهجوم الأسرائيلي المنسّق مع الرئيس الأميريكي لِندون جونسون، علي مصر وسوريا والأردن. وانقلبت الدنيا رأسا علي عقِبْ، ودخلت أنا في معارك ضارية علي كل المستويات.

جاءت وفاة شيخ المرضي المفاجئة صدمة رهيبة لي. فقد كان معي في لندن قبل وفاته بشهر واحد. جاء للكشف الطبّي بعد وعكة جعلت الأطباء ينصحونه بالسفر إلي لندن، وصحِبتُه إلي عيادة د. سيدريك شو - طبيب السفارة المعتمد - الذى أجرى فحوصات شاملة طمأننا بعدها تماما. وقد كان كعادته مرِحا عفويا ، ذكيا وبسيطا. وما زلت أذكر تفضيله السودانيات علي الأوروبيات تفضيلا حاسما لا تَوَسُّط فيه، وتبريره موقفه بأن السودانيات أحَنُّ علي الرّجُل من الأوروبيات، حينما قال له أحدهم: لقد توقّعنا أن يتزوّج أبوسن إنجليزية، ولكنه فضّل أن يتزوّج من السودان. وكان آخر كلام قاله لي : عمّك يحي الفضلي

سيحضر بعد أسبوع للعلاج فقد كاد أن يفقد بصره فجأة، وانزعجنا كثيرا عليه. وقد اتفقنا علي عدم إرسال مُرافق معه لأنك أنت هنا ، ولا أحتاج إلي أن أزيد.

وبعد عودته إلي السودان بأسبوع ، وصل الي لندن يحي الفضلي وبدأنا في علاجه. وبينما نحن في قمّة استمتاعنا بيحي الفضلي وأدبه الجم وروحه الحلوة فوجئنا بأشارة لاسلكية تأمرنا بحجز غرفة في المستشفي الجامعي للشيخ المرضي الذى دخل في حالة غيبوبة. ولم تطُلْ إقامة شيخ المرضي بالمستشفي؛ فقد توفي بعد أيام من وصوله. كان موته أمرا عصيبا. كان قلبي ينزف، من ناحية، حزنا عليه، وكان يضطرم، من ناحية أخرى، خوفا علي يحي الفضلي الذى كاد أن يموت حزنا علي صديق عمره وأقرب الأقربين إليه.

لم يحتمل يحي البقاء في لندن بعد سفر الجثمان بالرغم من إصرار الأطباء علي بقائه. فأجبرتُه إجبارا علي الصبر أسبوعا، واستعجلت الأطباء بألحاح فأذنوا له في آخر لحظة قبل سفره الذى قرره بغضّ النظر عن كلامهم. قال لي يحي : قد أفقد بصرى إذا سافرت.. ولكنني قطعا سأموت إذا لم أسافر.. أريد أن أبكي مع الناس! وقبل يوم من سفره أطلعني علي أبيات من قصيدة بدأ يكتبها في رثاء شيخ المرضي. كانت سينيّة القافية، وما زالت تلك الأبيات بين أوراقي في السودان، ثم أبدلها بقصيدة عصماء هي من أفضل المراثي العربية علي الأطلاق، ومنها:

رَددتُ القوافي مَطْلَعا بعد مطلع	مُشيحاً كفعلِ النّاقدِ المُترفِّعِ
أرى كلَّ قولٍ دون ما أنا واجدٌ	ويَهزَأُ منه ما يَجِيشُ بأضلُعي
وأنثرُ دمعي تارةً وأصوغُه	فلا النّثرُ يَشفيني ولا الشّعرُ مُقنعي
وليس من المَيْسورِ عَرضُ حُشاشةٍ	وتصويرُ لوعاتِ الفؤادِ المُفَزّعِ
وفيك تَبَدّى الصمتُ أبْلَغَ مَنطِقا	وأروعَ معنيً من بيانٍ مُوَشّعِ
فلاذَ به من صَحْبِكَ الغُرِّ عُصبةٌ	تَولّوا زِمامَ القولِ في كلِّ مَجمَعِ

ويوجــــزُ عَبدِاللاه العـــزاءَ لأنّـــه يرى القــــولَ لم يَشفِ الغَلــيلَ ويَنْقَعِ
ويكتبُ لي: مــــاذا أقولُ ؟ ويكتفي وذاكَ وأيمِ اللـــــــه أبـلـغُ مـــقطعِ
حَنانَيكَ هذا الشّعرُ ذَوبُ حُشــاشةٍ تَسيلُ أسيً في الطِّرْسِ من بين أضلُعي
أمِن طولِ ذاكَ السُّهدِ مِلتَ إلي الكَرى وخَلّـــفتَنا في المـــأزقِ المُتَشَنّــــعِ؟
فللّـــــه كم من ليــــلةٍ قد سهِرتَها تُقَلّـــبُ عُقْبـــي كـــلّ مُعضِلةٍ معي
أجيـــــئُ برأيٍ لا يُفَــلُّ مَضــــاؤهُ وتَعْــلُو برأى ذى أفانــــينَ مـُبدِعِ
دفعـــــتَ بصفٌ للأشقــاءِ عـارمٍ مَنيعٍ كَتَــــابِ الليثِ لم يتضعضعِ
تَــواكَبَ من خـلف الرئيـسِ كأنهُ طَلائعُ زَحــفٍ للسِّمـــاكينِ مُزمِعِ
فصالوا وصُلْنا فاقتدرنا وأدبروا ورايــــاتُنا يُشْرِفْنَ من كـــلّ مطلعِ
فلم يبقَ مغمـــورٌ ولم يبقَ عازمٌ كما اســتؤصِلَ الدّاءُ العُضالُ بمِبضَعِ
أفِقْ ! أنّ الأســـتقلالَ لانَتْ قَناتُه وسَاوَرَه الباغُــونَ من كلّ مـــوقعِ
فَمِن طـامعٍ مُســتَلئِمٍ في دُروعِهِ ومن طـــامِعٍ بالمُغريـــاتِ مـُدَرّعِ
أفِقْ أنّ حقّ الشعبِ ما زال مُهْدَرا سَليــباً وذاكَ الصــفُّ لم يتجمّـــعِ

***

وإنْ أنْسَ مِ الأشياءِ لا أنْسَ مـوقِفا كأروعِ مـــا يبدو الوفـــاءُ وأرفَــعِ
غَداةَ اكْتَوتْ عينـــاى بالداءِ حِـقبةً وأنكرتـــــا ضوءَ الصبــاحِ المُلمّعِ
فبِتُّ ، ولا البدرُ المُنيـــرُ بِشــائقي سنـــاهُ ، ولا شمسُ النّهـارِ بأسطعِ
كـــأنّي أُراعِي من خلال زُجــاجةٍ جَوانِبَ ليـــلٍ أغبرَ اللـــون ، أسفعِ
أرِقْــتَ لِدَائي ، واستبدَّ بك الأســـي كأنّــك دُونـــي قد أُصِـبتَ بِمُوجِعِ
ومهَّدْتَ لي سُـبْلَ الشّقـــاءِ كريمـةً طبيعةَ حُرٌّ بالعَظيـــماتِ مُـــولَعِ
وكَلَّفْتَني دَيــــناً جديـــدا لِمَوطنٍ نُفَدِّيــــهِ ، إنْ يُجْزِل ، وإنْ يَتَمَنَّعِ

***

وإنِّي متي أعزِم علي الأمر لا أعِي أيَمّمـــتُ رَوضاً ، أم جديـــبا بِبَلْقَعِ

فَشَأنيَ في بيــــتٍ صغيـــرٍ مُهَدّمٍ كَشَأنيَ في قــصرٍ مُنيـــــفٍ مُرَقّعِ
ولكنْ ، متي تَرْمِ المَنُـــونُ بِسَهْمِها أخاً ، يَنْصَدِعْ عَزْمي جميعا ، وأجزع
ويُفْزِعُني منـــها غُلُوٌّ اختيـــارِها فما تَرتَضـــي إلاَّ بأفـــزَعَ ، أرْوَعِ
كأُنْثَي تُباهِي بالرّجالِ ، وتَغْتَني الأغـــــرٌّ من الفِتيـــانِ غـــيرَ المُدَفَّـعِ
مَضتْ بالصِّحابِ الغُرِّ عَجْلَي ، لَهِيفةً وأمسِ مضتْ بالفـــاتحِ المُتَرَفِّـــعِ
فَتَىً كان مِلْءَ السَّمعِ والعينِ إن يَثِبْ إلي غـــايةٍ يَشْفِي الصـدُورَ ويُمْـتِعِ
فوَيحِي علي المَرضيِّ بعد مُبـــاركٍ وويحي علي ذاك الزّمـــانِ المُضـيَّعِ
إماماني في جِدِّ الكِفاحِ.. وفي الثَّرَى أناخَا معاً.. في مَضْجَعٍ ، إثْرَ مَضْجَعِ
لِواءانِ فـــاقا غُرَّةَ الشّمـسِ روعـةً كم اعتَنَقَا ، والنّصرَ ، في كلِّ موقعِ
فَمِنِّي ، علي البُعدِ ، السّلامُ عليـهما ومنِّي علي ذاك الزّمـــانِ المُضَـيَّعِ
فقد مـــاتَتِ الدُّنيا بِعيني ، ولم تَعُدْ سِوى مَنْظرٍ خـــاوٍ ، كئيـبٍ ، مُرَجَّعِ

نـكسة يونـيو... ومأزق الدبـلوماسية العربيّة فى الغرب.

أمّا حرب يونيو فقد كانت الطامّة الكبرى التي أصابت سلام نفوسنا في مقتل. لم تعد حياة العرب في أوروبا بعدها كما كانت قبلها. إنقلب كل شيئ. واستحالت نبرة التباهي والتحدّى التي أسكنها عبدالناصر في وجوه العرب أمام الأوروبيين والأمريكان إلي نظرة مرارة وارتباك. وبدأت تظهر معادن الرّجال ؛ فالذين آمنوا بأوطانهم ازدادوا هدى، والذين زاغت قلوبهم أخذوا بالمثل الأنجليزى : .If you can't beat them , join them

تحدّث الناس، وما زالوا يتحدثون عن أسباب الهزيمة. ومع الأعتراف بالدور الأميريكي في تسهيل وصول الطائرات الأسرائيلية إلي المطارات المصرية وتدمير الطيران المصرى، وذاك عن طريق التشويش علي الرادارات المصرية ، إلاّ أن السبب الأصلي، كما شاهدته بنفسي في لندن، يكمن في إستهانة العرب بالقدرات القتالية الأسرائيلية خاصة قدرات وحماس الجندى الأسرائيلي. كان ذلك أبرز ما يكون في مصر حيث رسخت مفاهيم جُبْن الأنسان اليهودي. ولكن ما صادفني في لندن أكّد لي أن هذا المفهوم كان شائعا حتي في دول الجوار القريبة من إسرائيل والتي يفترض أنها تعرّفت أكثر من غيرها علي طريقة إعداد الجيش الأسرائيلي والجندى الأسرائيلي. كنا في حفل أقامته سفارة عربية خليجية بمناسبة عيدها الوطني مساء ٣/يونيو/١٩٦٧. في ذلك الحفل وقع حدثان أصاباني بالأشمئزاز؛ الأول هو وصول دَنْكان سانْدْزْ ، وزير المستعمرات البريطاني العنصرى القبيح الذى صاح عند دخوله موجّها حديثه إلي سفير تلك الدولة ، وعلي مسمع من الجميع : I am sorry, we haven't taken Sana'a (يؤسفني أننا لم نحتلّ صنعاء) مشيرا في صفاقة إلي دوره في محاولة إسقاط الثورة اليمنية التي حماها عبدالناصر. ومستخدما كلمة WE بكلّ بجاحة، وكأنّه أحد الأطراف العربية صاحبة الحق.

والحدث الثاني هو أن أحد الزملاء في السفارة الأردنية قدّم لي شخصا كان يقف معه قائلا: فلان، قائد سلاح المدفعية الأردني. أستغربت كثيرا؛ فأجهزة الأعلام كلّها تؤكّد أن الجيوش العربيّة والأسرائيلية تقف في مواجهة بعضها، وأن المعركة ستنشب في أية لحظة، وقائد سلاح المدفعية الأردني يحضر حفلا دبلوماسيا في لندن؟.! لم أحتمل.. واجهته مباشرة بالسؤآل: كيف تكون هنا والمعركة توشك أن تشتعل في أية لحظة ؟. ضحك ــ أى والله ضحك بملء شدقيه ــ وقال لي: هادى معركة بسيطة، ما في حاجة إني أكون هناك، نحنا مدفعيّتنا ممكن تضرب البحر من الأردن، وإسرئيل كلها في مدى نيراننا. قلت: ولكن مع ذلك، ألا تحتاج المدفعية إلي قائدها في المعركة ؟ ضحك مرّة أخرى وقال: لا، لا مش ضرورى. تركته وخرجت من الحفل. بعد أقلّ من ٤٨ ساعة كانت القوات الأسرائيلية قد استولت علي الضفّة الغربية لنهر الأردن بكاملها!!

كان علي السفارات العربية أن تخرج بأسرع ما يمكن من ذهول الهزيمة الساحقة إلي التصدّى لمحاولة السّحق المعنوي للعرب، ومقاومة تقنين العدوان وإكسابه ثوب الشّرعية.

الصحف أغلقت أبوابها في وجوهنا فماذا نفعل ؟ لجأنا إلي تنظيم الندوات والمناقشات العلنية في الجامعات، وهنا واجهتنا مشكلة قلّة الذين يتقنون الأنجليزية من الدبلوماسيين العرب بالمستوى الذى يسمح لهم بالأشتراك في مناقشة عامّة. وبعد التجربة العملية تكوّن فريق لخوض معارك الندوات والمناقشات من : تحسين بشير (مصر) باسل عقل (فلسطين) كمال... (الأردن) والعبد لله كاتب هذه السطور - كما يقول المجذوب - (السودان). كانت مهمّتنا صعبة للغاية في ضوء شماتة الأنجليز ضدّ العرب الذين هزموهم وأذلّوهم في حرب السويس ومعركة تأميم القناة. وزاد من صعوبة مهمّتنا تعليقات بعض الشامتين العرب من أعداء عبدالناصر الذين كانوا دائما عونا عليه مع القوى

الأستعمارية. فكنت أذكر قول أبي الطّيب لسيف الدولة :

أنتَ طـــــولَ الحياةِ لِلرُّومِ غازٍ   فَمَتَي الوَعْدُ أنْ يَكُونَ القُفُولُ
وسِوَى الرُّومِ خَلفَ ظَهْرِك رُومٌ   فَألَي أىِّ جانِبَيْكَ تَميـــــلُ ؟

الشيخ زايد••في لندن••لأوّل مرّة •

ولم تَخْلُ نكسة ١٩٦٧ من إيجابيات، فقد ولّدت في قلوب الشباب العرب روح التحدى والرغبة في المساهمة بعمل أى شيئ في استطاعتهم. من هذا القبيل أننا بينما كانت لجنة الأعلام التي كوّنها مجلس السفراء العرب مجتمعة في السفارة السودانية، وصل شاب وسيم أسمه أحمد خليفة السّويدى، وطلب مقابلتنا. قدّم نفسه باعتباره مستشارا للشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان الذى تولّي الحكم منذ حوالي ثلاثة أشهر في أبوظبي. قال السويدى: الشيخ زايد وصل إلي لندن قبل أسبوع، وبالرغم من ما قد تتصورْون فأنه مواطن عربي مخلص. وقد روّعتنا الهزيمة جميعا. وأنا سألت عنكم حتي عرفت مكان اجتماعكم وحضرت بمبادرة مني وبصفة غير رسمية لأطلب منكم أن لا تضيّعوا فرصة الأتصال بزعيم عربي مخلص يمكن أن يترك اتصالكم به أثرا عظيما في نفسه. شكرناه علي مبادرته وقررنا زيارة الشيخ زايد حيث ينزل في فندق الدورتشستر. واقترحنا علي سفير السودان ـ سرّالختم الخليفة ـ أن يقود وفدنا إليه فوافق.

حينما دخلنا إلي بهو الطابق الذى كان محجوزا للشيخ ومن معه لم أتوقّع ما رأيت. رأيت الشيخ زايد وأهله وكأنهم مجموعة من مشايخ الشكرية في أعماق البطانة. نفس السحنات، نفس البساطة، نفس النظرات الوادعة القانعة، ونفس الكدوسات التي يدمن تدخينها أهل البطانة. كدوس العظم، وكدوس الفخّار، وكدوس القصب!! جلسنا كلّنا في حلقة علي الكنبات الطويلة، وبدأ يستفسر منّا عن الأحوال. وبعد حديث السياسة وجه سؤآله إلي سرالختم الخليفة عن السودان

قائلا : عندكم صيد ؟ فانصرف ذهن سر الختم إلي الصيد بالطريقة الأنجليزية فقال : نعم. عندنا صيد كتير، الأفيال والأسود والنمور.. وبدأ يسهب في الشرح. لاحظت عدم اهتمام الشيخ زايد، فبادرت إلي القول : وعندنا أيضا صيد الغزلان، والحُبارَى والأرنب ، فأذا بالشيخ زايد يحوّل جلسته نحوى ويقول : هذا هو ما أسأل عنه. وبدأ يسألني وبدأت أحدثه عن تقاليد الصيد عند الشكرية وكيف أنهم يُوَلِّدون كلاب الصيد " الحُرّة " أبا عن جد، وكيف يحتفلون بموسم الصيد في منتصف الخريف من كل سنة ، ويتنادون له من جميع فروع القبيلة فيخرجون في أحسن ثيابهم وأفضل خيلهم وجمالهم ، حيث يحضر أصحاب الكلاب " اللاحقة " ، وكلابهم ممروسة في إيديهم لا تطلق إلاّ للحاق والعقر. وعند ظهور قطيع الغزلان وإعطاء الأشارة تبدأ المباراة بين الكلاب ويتحدد الفائز الأول بعدد الغزلان التي عقرها ومدى مقدرته علي " تدوير " القطيع بحيث يعيده شاردا أمام الفرسا ن وهم علي ظهور خيولهم وجِمالِهم ينادون علي كلابهم بكلمات الشكر والثناء والتشجيع، ويتصايحون عندما " يملأ " أحد الكلاب في الجرى فيصير كأنه سَراب أو دخان منطلق، لا تُرى تفاصيل جسمه وإنما تُرى دُهمته الشفّافة حتي يقتحم جسم الغزال ويتدحرج به ، فيعقره من خلف بطريقة دُرِّب عليها، ويتركه ليلحق بغيره. وقلت له إن عرب السودان لا يمارسون صيد الباز، فظهر الأسف في وجهه.

أعترف بأن مقاطعتي للسفير لم تكن لائقة ، ولكنني لم أستطع مقاومة الرغبة في إنقاذ الموقف من ناحية ، وفي الأستمتاع بتعريف شيخ العرب الظُّبياني بتقاليد شيوخ عرب الشكرية في السودان من ناحية أخرى. فلما فرغت من وصفي الذى استمع إليه الشيخ زايد ومن معه باهتمام كبير قال : إذن سيكون السودان أول بلد أزورها. ظننت أنها فكرة عابرة ، ولكن الشيخ زايد زار السودان أول ما زار ، وقام برحلة صيد بالباز

هذه المبادرة من ذلك الشاب الظُبياني - أحمد خليفة السويدى، والأهتمام الذى لمسناه من شيخ العرب زايد بن سلطان ، كشف لنا عن حقيقة هامّة وهي ضرورة تجنّب الأستسلام لفكرة إدانة الزعماء الذين نتصوّر ــ لأنهم مسنودون بقوى أجنبية ــ فهم بلا إحساس وطني وليسوا مستعدّين للقيام بأى عمل لا توافق عليه الدول التي تتحالف معهم. فالشيخ زايد ومستشاره كانا فعلا تحت رحمة الأنجليز. ولكن ذلك لم يمنعهما من القيام بدعم الحق العربي في عاصمة الأنجليز في أول زيارة له ، ولم تكن سلطته قد استقرّت تماما، ولم تكن عواطف الحكومة البريطانية مع العرب، بل العكس. فكانت تلك المبادرة تحركا مشجّعا جدا للدبلوماسية العربية في لندن في أحلك أيامها. وضوءا في نهاية النّفق.

ولم تَخْلُ تلك الفترة الكئيبة من طرائف. وسأحكي هنا قصّة شخصية جدا، ما كنت لأحكيها لولا حرصي علي إثبات تعليق المجذوب عليها، وهو تعليق له دلالة ... بعد سفر جمال محمد أحمد منقولا من لندن، وقبل وصول سر الختم الخليفة منقولا من روما إلي لندن، حلّ ميعاد الحفل السنوى الذى تقيمه الملكة إليزابيث للسلك الدبلوماسي كل عام، ويحضره من كل سفارة الرجل الأول والثاني. كنّا ـ الملحق العسكرى ، واسمه صلاح محمد سعيد ، وأنا ـ الرجلين الأول والثاني. أنا الأول بحكم النّظم واللوائح ، وهو يريد أن يكون الأول بحكم العُنجهية ، وقد ألزمته حدوده مما سيكون له أبلغ الأثر في علاقتي بعسكر نميرى الذين أنزلت صورهم البائسة من مدخل السفارة بعد أن أمر هذا الملحق بتعليقها بعد الأنقلاب المشئوم، أعضاء ما سمي بمجلس قيادة الثورة.

كانت تلك أول تجربة لزوجتي في القصور الملكية. ولذلك شرحت لها ـ قبل أن تذهب إلي قصر باكنجهام ـ ما هّي الأسرة المالكة ومن هم أعضاؤها وما هي أوضاعهم إلخ...

ووقفنا في القاعة الكبرى بقصر باكينجهام ، في دائرة ضخمة تضم وفود كل

السلك الدبلوماسي في لندن - يعني وفود كل دول المعمورة ــ ومن داخل تلك الدائرة المستطيلة - كيف ذاك ــ تمرّ العائلة الملكية علي وفود السفارات تسلّم عليها ، وتحييها. كانت الأميرة مارجريت في تلك الأيام مدارَ العيون ومُستَراح النظر. وكانت هي حديث المجتمعات والصحافة في أوروبا والعالم بنفس درجة " دايانا" أميرة ويلز. والحق أن أنوثتها كانت طاغية. وصلت المجموعة الملكية إلينا. سلّمت علينا الملكة إليزابيث الثانية وتجاوزتنا، أما الملكة الوالدة ــ زوجة جورج السادس - فقد وقفت تحدثنا عن زيارتها لبورتسودان هي وزوجها عقب الحرب العالمية الأولي. ووقفت معها الأميرة مارجريت. كنت شديد الأعجاب بها في ذلك الوقت. وبينما كنت أستمع إلي الملكة الوالدة كنت أنظر إليها بكلّ النيران التي أججتها الصحراء في ميراثي. وشعرت هى بنظرتي.. ولما أفرغت الملكة الوالدة ما عندها عن السودان تحركت إلي الوفد الذى يلينا، وتحرّكت معها مارجريت، إلاّ أنها التفتت إليّ مبتسمة بجرأة واضحة مباشرة بعد ذلك! ، مدّت زوجتي رقبتها إلي أُذني وهمست : البِتْ دى إنت بِتَعَرفها مِن وين ؟ لم يسعني إلاّ أن أبتسم. مدّت رقبتها مرّة ثانية وهمست: والله، البِت دى إنت بتعرفها. قلت لها: يا ريت !

في بعض مناقشاتنا لشئوننا العائلية، وأحوال المرأة السودانية حكيت هذه القصة للمجذوب فقال لي: ربما تكون قد غضبت من نسيان زوجتك لكلّ ما شرحته لها عن العائلة المالكة البريطانية وأفرادها. ولكن السبب الحقيقي في عدم اهتمامها هو اعتزاز المرأة السودانية بنفسها. وأذا نظرت في تلك الليلة إلي النساء في وفود السفارات الأخرى لوجدتهنّ مأخوذات مبهورات وكأنّهنّ في معبد أسمه " باكنجهام " ينظرن في تعبّد إلي العائلة المالكة يَسْجُدْنَ بأعينهنّ في حضرة الملكة إليزابيث ، ويُحَمْلِقن في عظمَة دوق أدنبرة ووجاهة ولي العهد الأمير تشارلز ، ويحفظن تفاصيل أناقة الأميرة مارجريت والأميرة آن . أما

زوجتك فأنها نشأت بفكرة أن العظمة هي ما تعرفه في السودان وقادته وتقاليده وقبائله وعائلاته الكبيرة. أما الملكة وعائلتها فهي عالم آخر بعيد لا تربطها به علاقة حميمة ، ولا تتخذه نموذجا للعظمة. وهي لا تبحث عن تفاصيل أناقة الأميرة مارجريت لأن ثوبها الذى تلبسه هو محور الأناقة في نظرها ولا تتخيّل نفسها في فستان الأميرة آن ولا تريد ذلك. لكل هذه الأسباب فأن عينها كانت عليك أنت أكثر مما تكون علي الأسرة المالكة ، ولأن الموقف كلّه لم يكن — في نظرها ، ونظرك أيضا ! ـ بتلك الرهبة والعظمة التي كان يشعر بها الآخرون ، فأنّك "شاغلت" الأميرة مارجريت من طَرْفٍ خفي بنظراتك الجريئة ـ ألم تُسَمّك ليلي طنّوس " أبوعيون جريئة " ؟ـ وشعرت زوجتك بأنها لا تحتاج إلي الأنتظار حتي تعود إلي المنزل لكي تقول لك : شايفاك يا...مستر أبوسن ! ثم يسألني المجذوب بالحاح هل رأت زوجتي قصيدتي " في الكانتين " التي كتبتها أيام الBBC ؟ فأقول : كلاّ ، فيصرّ علي أن أعيدها عليه لأنها خفيفة الدم كما يقول. وهي قصيدة أمتزج الجدّ فيها بالهزل ، والكانتين هو الكافيتيريا. وها هي:

في الكانتين !

في أَحَدِ الأركانِ..عندَ ساعةِ الغَدَاءِ

بالكانتين ،

أراكِ تجلِسين،

محاطةً بالمُعجَبين..

الجائعي البطون.. والعيونِ

تُبْحِرون في حديثِ الحُبِّ والمغامراتْ

وبين تِلك القهقهاتِ.. تَلْمَحينْ ،

فارِسَكِ الأمينْ

وتَسْألين في انفِلاتْ :

وكم يُماشِي ذلك الشّقيُّ.. مستر أبوسِن ؟
عِشرينَ ؟ لا.. أظُنُّ صاحباتِه.. خمسين !
وتضحكينْ..
وتسألِينَ مَرَّةً أُخرى.. ولكنْ ، في خَجَلْ :
كم صاحِبَهْ ؟ كم واحدَه ، تَعَثَّرتْ بين الحِبالِ والحِيَلْ ؟
يا صاحبَ الحبالِ والحِيَلْ !
وتضحكين ،
كأنَّ نارَ الغيرَةِ الحمْراءِ.. لم يُحَرِّكْها..
حَديثُ صاحِباتِيَ الأُوَلْ ،
كأنّنا لم نَقْضِ ليلتين..
لا نَعرِفُ الناسَ..ولا نُحاسِبُ الزّمَنْ ،
كأنّنا لم نفْتَرِق.. قبيلَ لحظَتَيْنْ ،
في خارِجِ الكانتينِ ، عند رُكْنِ مُؤتَمَنْ ،
كأنَّ وَرْدَتَيْ ثَغْرِكِ.. لم تُخَضِّبا وجْهِي ،
ومِنْدِلِيَ..
لم يَمْسَحْ مكانَ القُبْلَتَينْ.

لم يمُتْ إحساسي بالحنين المُضني كلما قرأت هذه القصيدة منذ أن كتبتها، لا أعرف لماذا.. بل ربّما أعرف؛ فقد كانت تلك هي العلاقة التي حطّمت أساطير كثيرة ، ثم خلقت أساطير أكثر في جامعة لندن و الBBC كانت حوريّة من آل بُوشنَاقْ ؟!

ومن الطرائف التي وقعت أثناء مأساة هزيمة ١٩٦٧ ما حدث حينما أرسلنا أوراق أعتماد سفيرنا الجديد " سِر الختم الخليفة " إلي وزارة الخارجية البريطانية لأكمال إجراءآت قبولها عند الملكة. ففي الوقت الذى كنّا ننتظر فيه

تحديد موعد للسفير لمقابلة الملكة في أى يوم، جاءني مندوب من وزارة الخارجية يحمل أوراق الأعتماد في يده ويقول لي بأدب جم أن التقاليد المرعية في بلادهم هي أن لا يستخدم السفراء الجدد عند تقديم أوراق اعتمادهم الألقاب الممنوحة لهم من جلالة الملكة، وأوراق سفيركم الجديد تحمل لقب " سير "، فنرجوا إعادة الأوراق إلي الخرطوم لأعادة كتابتها. أندهش الدبلوماسي البريطاني حينما وجدني أفطس من الضحك، حتي خشيت أن يعتبرها إهانة. وشرحت له المصادفة الغريبة وهي أن الطريقة التي يكتب بها أسم سفيرنا ـ دون ألقاب ـ بالأنجليزية هي نفس الطريقة التي يكتب بها لقب Sir. وبعد أن فهم الموضوع ، انفجر ضاحكا. وعاد بالأوراق ، وتم تقديم أوراق الأعتماد، وعدت إلى قصر باكنجهام أتلفّت. لم تكن الأميرة هناك!!

وأذا كنا نضحك مع مثل هذه الطرائف ، فأن معركتنا الأخرى كانت معنا علي الدوام وهي مشكلة الجنوب ، والنشاط المكثّف الذى كانت تقوم به القيادات الجنوبية مدعومة بقوّة من الكنائس الغربية وبعض البرلمانيين. كنت أخوض غمار المواجهات يوميا، في المؤتمرات ولقاءآت مجلس العموم، وجمعية مناهضة الأستعمار، والجامعات. وكنأ نكسب جولات كثيرة بما يشبه المعجزة ؛ فخصومنا كُثرٌ وأشدّاء. وفي ذاكرتي من تلك المواجهات برنامج تلفزيوني في الBBCعن الحرب في جنوب السودان أخطرنا التلفزيون بأنّه سيذاع وطلبت اشتراك السفير في المناقشة ، فطلب منّي جمال محمد أحمد أن أنوب عنه في الحضور. عرضوا فيه فيلما كريها عن الجنوب تضمّن أكاذيب عديدة ، وكنت أتوقّع أن أجد المستر هندرسون الأدارى السابق والكاتب المعروف في شئوون السودان ، داخل الأستديو ، فلم أجده ، وأصبحت وحيدا في مواجهة اثنين من الألمان أرسلتهما الكنيسة إلي المنطقة لأخراج هذا الفلم. لم تنفعني خِبرتي في الBBC كما نفعتني ذلك اليوم ؛ فقد سألت عن مدّة البرنامج فعرفت أنها نصف

ساعة، وسألت عن مدّة الفلم الكريه الذى يقدّمه الألمانيان فعرفت أنها ثلث ساعة. حسبتها فوجدت أنني لن أحظي بأكثر من دقيقتين أو ثلاث بعد حساب المقدّمة والتعليقات والردود والختام. قررت إفساد خطة التلفزيون المتعصّبة، فلم أسمح للألمانيين أو مقدّ م البرنامج بالحديث إلاّ في أضيق الحدود دون أن أبدو متعمّدا. وواجهت اللألمانيين بأنهما لم يدخلا السودان إطلاقا ، كما ادّعيا ، وأنهما كانا في معسكر للاجئين في يوغندا فقط ، وأنني تابعت رحلتهما ، وأعرف من يموّلها. وكانت المفاجأة إنهيار اللألمانيين وارتباكهما بشكل مذهل ألي درجة أن مقدّم البرنامج اقتنع بكذبهما. وحينما انتهي البرنامج ونزلنا من الأستديو كانا يتصببان عرقا من الأحراج. وزاد الطين بِلّة عليهما أن المخرج جاء وقال لهما بحدّة : من الممكن أن تخدع الجميع لبعض الوقت ، ولكن من المستحيل أن تخدع الجميع إلي الأبد.

وحينما ذهبت إلي السفارة في اليوم التالي عانقني جمال العظيم وقبّلني وقال لي: أداؤك أداء سفير حقيقي، وأنا سعيد أنني أنبتك عنّي. كما عبّر زملائي عن رضاهم خاصة الصديق عمر يوسف بريدو، وهو ذو قيمة وفهم ورزانة.

محاضرة في ترينيتي... والحالة الآيرلنديّة!

ولكن أكثر المناسبات أثرا في نفسي كانت الدعوة النادرة التي قدّمتها إلي جامعة Trinity في دبلن ـ آيرلندا، تلك المؤسسة العريقة التي لا تدعو إلي مخاطبتها في ندوة مغلقة إلاّ ذوى المكانة من أهل الفكر والرأى، ولم أكن إلا دبلوماسيا صغيرا يدخل المعارك من أجل وطنه وأمّته. وكانت زيارتي لآيرلندا تجربة محيِّرة. فبقدر ما حفلت به من رهبة ملأت نفسي في الجامعة، بقدر ما أدهشتني مفارقات الIrish. وقد بدأ الأستغراب قبل الرحلة من لندن.

حينما قررت السفر إلي آيرلندا ـ وهي جمهورية حرّة مستقلّة ـ ذهبت إلي البنك ـ كما افعل حينما أسافر إلي أي بلد في أوروبا ـ وطلبت عُملّة آيرلندية لأنني مسافر إلي آيرلندا. نظر إلي الموظّف مليّاً، ثم ذهب وعاد وقال بابتسامة مؤدّبة: آسف، يبدو أننا لا نملك عملة آيرلندية. قلت: ماذا أفعل ؟ أنا مغادر اليوم، وغدا عطلة آخر الأسبوع وستكون البنوك في دبلن مغلقة، وليس معي غير الأسترليني. أبتسم وقال : أعتقد أنك لن تجد صعوبة هناك. ذهبت وأنا قلق. في مطار دبلن وجدتهم يفتّشون حقائب السيّدات تفتيشا دقيقا . نَفَضُ كلّ قطعة ملابس، وفتح كلّ علبة ، وأخلاء حقيبة اليد ، إلي حانب التفتيش الشخصي. أما الرجال فأنّهم يدخلون دون تفتيش!! وحينما سألت عن سرّ هذه الظاهرة الغريبة قال محدّثي : They are looking for the PILL " إنّهم يفتّشون عن الحَبَّة " ، يعني حبوب مَنع الحمل ، لأن دخولها إلي آيرلندا ممنوع بأمر الكنيسة الكاثوليكية التي تُعتَبر الحاكم الفعلي للبلاد !!... دخلت غرفتي في الفندق ثم نزلت منها فورا لأبحث عن مكان لتغيير العملة. قابلت شابا قال لي : ربّما تجد عملة آيرلندية في ذلك الفندق ، هل تريدها لسبب خاص ؟ قلت : لأشترى بها عشائي. قال : ما هي العملة الأجنبية التي معك ؟ قلت : إسترليني. أبتسم في حياء وقال : الجنيه الأسترليني مقبول هنا.أبتلعت المفاجأة ، وقلت : تُرى هل نصف الجنيه مقبول ؟ تردد ثم قال : يعني ، نعم. شعرت بالحرج في وجهه فتركته. وضحكت علي نفسي حين اكتشفت أنّ الPenny ـ الملّيم الأنجليزي " يَسِيْر" في آيرلندا التي تقاتل الأنجليز بمرارة وشراسة ، تأكيدا لاستقلالها ! بل أن العملة الأنجليزية هي العملة المعتمدة لدى الشارع والحركة التجارية ، وليست العملة المحليّة التي لا تُرَى إلاّ نادراً.

وفي مساء اليوم التالى دُعيت إلي العشاء المهيب مع مدير وعمداء وطلاب " ترينيتي " ، ثم اتّجهنا إلي القاعة المخصّصة للندوة والمناقشة. قلت في

نفسي أن الكنيسة الكاثوليكية تبدو هادئة ناعمة في عرينها هذا. ولكنني سرعان ما تعرّضتُ لمفاجأة جديدة ؛ وهي أن أشهر جامعة في آيرلندا الكاثوليكية هي جامعة بروتستنتية أسمها : ترينيتي !!

وفي مساء اليوم التالي دعاني الطلاب إلي شرابهم المفضّل؛ جَعَة الGuinnis السوداء، التي يتجرّعونها بشغف. وحدّثوني عن كرههم للأنجليز، وبصفة خاصة ونستون تشيرتشِلْ الذى ضربهم بقسوة أثناء الحرب العالمية الأولي.

ثم دار الحديث عن العرب وإسرائيل فوجدتهم متعاطفين جدا مع إسرائيل، وأخذوا يجادلونني بالمعلومات التوراتية ـ بالتفسير الصهيوني ـ فقلت لهم في لحظة تجلّي : الآن وجدت أمرا يجعلكم أصدقاء وأحبّاء لونستون تشيرشل. تساءلوا : ما ذاك ؟ قلت أنتم تؤيّدون الصهيونية ، وتشيرشل كان أكبر صهيوني في العالم. فأذا بأكثر من واحد يقول : إذن لا بدّ أن إسرائيل هي المعتدية الشريرة!

تلك الزيارة إلي آيرلندا ساعدتني علي أن أفهم سِرّ التساؤل الدائم حول المُفَارَقَةِ الأبديّة الكامنة في الشخصية الآيرلنديّة في تعاملها مع الحياة. فالآيرلنديون ـ مثلا ـ يعشقون كلّ ما هو إنجليزى، ويكرهون صنف الأنجليز!
وهذه حالة تنطبق عليها بالكامل المقولة الأنجليزية :

Love- Hate relationship

وفي الآيرلنديين بداوةٌ ، وشهامةٌ ، وفخرٌ ، وفنٌّ ، وكَسَلٌ ، وسفَه. قال المجذوب حينما سمع منّي ذلك: ألشّي سودانيين ؟؟!

جمال محمد أحمد، ساحر البساطة... وكبير أساقفة كانتربري!

وفي معركة الجنوب شعرنا مرة بالحصار نتيجة لنجاح مجلس الكنائس العالمي في إقناع بعض قساوسة الكنيسة الأنجيلية - الأنجليزية في التعاون معه ضدّ السودان. قال لي جمال محمد أحمد: ما رأيك في أن نتحدّث مباشرة إلي كبير أساقفة كانتربيرى؟ قلت : فكرة ممتازة. قال : أطلب لي مُقابَلَة، ولنذهب معا. وذهبنا. مدير مكتبه أحد خرّيجي أكسفورد. بينما كنّا ننتظر الدّخول علي السُدَّة البابويّة ، قال لنا إنه حاول ، بعد تخرّجه ، أن يلتحق بالSudan Political Service ففشل ، لأنّ المجموع الذى حصل عليه لم يؤهّله لذلك المستوى! وبعد أن " لطعونا " لمدّة ثلث ساعة _ للأشعار بالأهميّة ، الأمر الذى، حتّي الملكة إليزابيث لم تفعله معنا _ أدخلونا علي كبير الأساقفة. وما إن بدأ جمال يتحدّث، حتي استطاب كبير الأساقفة حديثه، وارتاح في مجلسه، وبدأ يفتح صدره ، وجمال يجذبه ويطويه ، وأنا أكتب كلّ ما يدور بالحرف، حتي نسي كبير الأساقفة نفسه، واحتاج إلي أن ينقذه مدير مكتبه من سحر جمال. ثمّ كان من دواعي سرورى وفخرى أنني حينما قدّمت محضر المقابلة إلي جمال الذى أدخلته إليه سكرتيرته " هيزل "، قال لها - كما حدّثتني هيزل: علي أبوسن مدهش! هل أنا قلت كلّ هذا الكلام لكبير أساقفة كانتربيرى؟ أنا لا أذكر أى شيئ. كنت فقط أدردش معه! وكانت نتيجة تلك المقابلة أن الكنيسة الأنجليزية عادت واعتدلت في تعاملها معنا.

جمال وفرقة الباليه الغينية التي بهرت لندن.

ولقد سبق جمال جيله في الأهتمام بالعلاقات العربية الأفريقية. وكان يربط بينه وبين المجذوب في هذا الجانب خيطٌ مّا. أذكر أن ليوبولد سنجور، رئيس السنغال، وأحمد سيكوتورى، رئيس غينيا، كانا يحاولان إثبات وجود للشخصية الأفريقية والفن الأفريقي في أوروبا ، فوصلت في ذلك الوقت المبكّر،

فرقة غينية راقصة إلي لندن وأوروبا، أسموها: الباليه الغيني. وبالرغم من أن الفرقة وجدت نجاحا كاسحا عند الأوروبيين، إلاّ أن السفارات الأفريقية لم تُعِرْها أىّ اهتمام. كان جمال مشغولا بهذا الفشل وهذا التقصير. وفجأة قررت الفرقة مغادرة لندن إلي باريس ، دون أن تَجِدَ أىّ تكريم إفريقي في العاصمة البريطانية. كان اليوم جمعة. ذهبت إلي منزلي ووضعت خططي للWeekend.

في ساعة متأخرة من ذلك المساء طلبني جمال بالتلفون ،وقال بطريقته الحلوة المميزة : يا علي! ما أفتكر إنه من اللائق إنه فرقة الباليه الغيني اللي هزّت لندن تطلع من غير تكريم إفريقي؟. قلت : فِعلا يا سيادة السفير. ولكن ما العمل وهم مسافرين بكره ؟ قال: أنا تصرّفت. سنقيم لهم حفل استقبال غدا السبت بالسفارة الساعة الواحدة ظهرا قبل سفرهم، أرجو أن تدعو الدبلوماسيين الأفارقة وبقية أصدقاء السودان، علي كلّ حال أنا كلّفت الأولاد في السفارة إنهم يوجّهوا الدعوات. قلت : ولكن... حفل استقبال بالنهار؟ قال: بالنهار، بالليل، مش مهم. المهم التكريم، وهم قبلوا دعوتي، وسعداء بها.. أيه رأيك بقي؟ قلت، وقد أخذتني حماسته وجرأته وكسره للقواعد الجامدة : ولم لا. فلنحتفل بهم، ولنكسر البروتوكول الأنجليزى. وأهنئك علي هذا التمرّد. قال بسرعة: دا مُش تمرّد. دا نحن كِدَه! وإذا كان للآخرين طريقتهم ، فلهم طريقتهم. وفي اليوم التالي أقَمنا حفل الأستقبال ــ الأول والأخير من نوعه فيما أعلم فى السلك الدبلوماسى ــ الساعة الواحدة ظهرا بدار السفارة، وعزفت الموسيقي وأصرّت الراقصات علي أداء رقصة لنا بملابسهنّ ـ العاديّة ـ وعلي أن نرقص معهنّ ، فشاركهنّ الشباب وجمال يتفرّج.

تَركَتْ هذه اللفتة الثقافية البديعة أثرا طيبا جدا لدى الفرقة المسافرة، ولدى كثير من السفارات الأفريقية التى تدفقت على الحفل، فيما عدا تلك التي أصابتها الغيرة من مبادرة جمال الشجاعة. وما زلت أحتفظ بصور فوتوغرافية من تلك

الحفلة، تظهر فيها الراقصات الغينيات بأجسامهنّ المنحوتة نحتا على أيدى الصانع ألمبدِع. وبهذه المناسبة فقد لفت نظرى في أسفارى، أن قوام المرأة في السنغال وغينيا بالذات يتميّز بتناسق فريد، وشَدَّة خاصّة، وبأنه فارة وممشوق أكثر من قوام المرأة في أى بلد آخر زرته، سواء في أوروبا، أو إفريقيا ، أو آسيا... ولم يُنبِئكَ مِثلُ خبير!

ثورة أكتوبر تخلق مشكلة إعلاميّة للسفارات!

في أحد الخطابات يشير المجذوب إلي شكوى مجلس الوزراء بعد ثورة أكتوبر من ضعف النشاط الأعلامي للسفارات. الحقيقة أن ثورة أكتوبر خلقت للسفارات مشكلة إعلامية خطيرة. فكلّ " الخامة " الأعلامية في أقسام الأعلام بالسفارات كانت تضم صور إبراهيم عبود وأعضاء مجلسه العسكرى ، وزاد الطين بِلّة أن أنجاز الفترة الديمقراطية حتي ذلك الوقت لم يخرج عن " الكلام " السياسي. أمّا البناء فقد توقّف كما حدث بعد الأنتفاضة لأنّ الطموحات غير المشروعة ، كما قال المجذوب هي التي تتحكّم وتفسد الأداء السوداني. وقالت الحكومة إنه ليست لديها أموال لأنتاج أفلام جديدة.

أمّا في لندن فقد لجأتُ مرّة أخرى إلي خبرتي المكتسبة من الBBC وعقدت اتّفاقا مع شركة " مترو جولدن ماير " علي أن أقوم بأعادة تأهيل وثائقنا وأفلامنا داخل استديوهاتها. فدخلت الأستديو مع الفنّيين وأعدت مونتاج الوثائق والأفلام التي تعكس طبيعة السودان وإمكاناته الأستثماريّة والسياحية وقطعت منها المناظر التي يظهر فيها الفريق عبّود أو أعضاء حكومته ، ووضعتها في علبة خاصة حفاظا علي التاريخ، فأصبح ممكنا العودة لعرض تلك الأفلام في المراكز الثقافية والأعلامية، وجعلها محورا لألقاء حديث أو محاضرة عن السودان، أوعرضها كمقدّمات في دُور السينما. وكنت ، قبل إعادة تأهيل الأفلام، أكتفي بأصدار نشرة إخبارية.

الرسالة السادسة عشرة ، والسابعة عشرة : الهروب من هزيمة يونيو !

أخي السيّد علي،

كيف الأحوال جميعا.. ولا أجد ما أقوله في هذه الظروف إلاّ تحية الوداد.. ولا تعجبني الأحوال هنا ، فما زلنا شعبا يتجاهل أخطاءه ، ويملأ الدنيا بالفخر الكاذب.. والمغالطة.. وما أشبهنا بالذين قيل فيهم: قلوبهم مع علي، وسيوفهم مع معاوية. وهذا نفاق لا مثيل له.. وأحسب أن النفاق سببه الجُبن والبخل والطمع... وسيأتيك أن الحبش أجتازوا الحدود.. ولن تعدم هنا مسئولا يقول : التفاوض وحسن الجوار، عجزا وضَعَة، وأعداؤنا يعرفون هذا، ويعلمون أننا في قبضتهم... لماذا لا نستدعي جيوشا عربية على الفور، لماذا لا ننشئ قواعد روسيّة في السودان.. ولا يَفُلُّ الحديدَ إلاّ الحديدُ.. ولكنّ الطّاعِمين الكاسين ينافقون حرصا علي حياة منحطّة... قالت الحوادث إننا عرب.. فماذا ننتظر؟ وهل يرحمنا أعداؤنا الذين يحيطون بنا من كلّ جانب.. أم نحن نريد تكذيب التاريخ.. السودان في خطر عظيم.. وإحساس الناس بالخطر معدوم.. فكبار الموظفين ومن بيدهم مقاليد الأمور منفصلون في عالمهم الرقيق عن عالم الشعب.. والتجار يختزنون ويُهرِّبون ليكونوا كبارا كالكبار.. ولا بأس أن يتبرّع الكبار بشيئ من المال إحقاقا للنفاق الدقيق. وقضيّتنا لا تقبل إلاّ التبرّع بالدم ، بالدم.

سلامي علي الآنسة ندى، وحفظها الله. ووعدتني بخطاب قبل زمان طويل، طويل، لم يصل حتي هذه اللحظة. ولك حبّي وتحياتي وشكرا.

المجذوب / ٦٧/٧/٣

٦٧/٧/٤

عزيزى علي،

نسيت شيئا أريـد أن أكلّفك بـه.. أدرس الرسـم فـي هـذه الأيـام.. ولذلـك ألتمس منك إرسال كتاب لتعليم الرسم مع أول قادم.. وأترك لك الأختيار لألمـامك بهذا الأمر، ولك شكرى.

محبك

محمد المهدى مجذوب

هذان الخطابان، اللذان وصلا الواحد تلو الآخر، يعكسان الحالة النفسية التـي وقع فيها الناس بعد هزيمة يونيو١٩٦٧؛ فالمجذوب يتحاشي الأشارة إلي ما حدث من قريب أو بعيد. أقرب إشارة هـي قولـه: ولا أجد مـا أقولـه لـك " فـي هـذه الظروف " . وهذه الظروف هي الهزيمة التي لم يتصوّرها أحد.

من ناحية أخرى طَمِع أعداء العرب من الجيران فيهم مع الهزيمة، وتقدّمت جيوش هيلاسلاسي نحو الحدود السودانية وعبرتها. والسياسـيون فـي السـودان ـ بالرغم من كلّ ما بذلوا وهو مشهود به فـي تلـك الظـروف ـ لا يُشْبِعون طمـوح الفنّان، وهو ضمير الأمّة. فماذا يفعل الفنّان الشاعر سوى الهروب إلي الرسم ؟؟

الرسالة الثامنة عشرة : هزيمة يونيو ، والخوف علي عروبة السودان .

٦٧/٧/٥

عزيـزى علـي.. يـا حليلـك ! وكيـف أحوالـك الآن، وتزعـم أن كتـاب الرسـم فـي الطريق.. أحسبه سوف يدور حول الرجاء الصالح ما دام كتابا إنجليزيا. وذكـرتُ روزمارى هذا الصباح فجأة. واسـتخرجت خطابيهـا وقرأتهمـا مثنـي وثـلاث مـع

الحنين العقيم. يَخُصِ عليها، ولو عرفت عنوانها لكتبت إليها، ولجهلي بالعنوان قطعت الكتابة. وكنتَ ذكرتَ لي أنّها اختلفت مع خطيبها، أرجو أن يكونا قد تصالحا.

وكيف أنت في لندن ؟.. لقد أصبح السودان عربيا، وهذا حَسَن. ولكن المهم كيف تنتصر عَروبة السودان ـ أن السلاح لا يساوى شيئا في أيدى المحاربين إذا كانوا بغير عقول وقلوب. وأحسب أن الناس في السودان يلزمهم الأسلام جدّا ليزلزلوا إفريقية زلزالا شديدا ـ وقادتنا هنا لا يعولّون علي هذه الناحية، وإنّما يكتفون بالكلام. ولو تعمّقنا لوجدنا أن المقصود هو الدعاية الحزبية المحضة، ووراء ذلك اختلاف الأهواء والمطامع.. ولعلّ الحكومة إرادت إخفاء ضعفها بالطنطنة، والشعب طيّب جدّا، ولكنّه بلا قادة، ويسحقه الغلاء الطاحن. وفساد الأحزاب في ازدياد؛ خصوصا حزب الشعب، وهو لا يستحي.. وتاريخه كلُّه قائم علي الأنتهازية والتمويه والمغالطة ورفع الصوت.

إنَكم في إنجلترى تنظرون إلي الوجوه الحِسان الذكيّات، وتنظرون إلي الخُضرة، وتعيشون في النّظام، ولا تبالون بأمثالنا في هذا البلد القبيح. ولو لاقيتُ روزمارى، لأعطيتُها قَلَمين علي خدّيها، وألف قُبلة.

أقرأُ مقالات حِسان في الرأى العام للشاعر الثائر صلاح أحمد إبراهيم.. بلّغه شوقي إلي عينيه الجميلتين ،وقل له : أين الصديقة التي وعدتني بها ؟

أنظر يا عزيزى إلي حالتي.. أبحث عن صديقة أتحدّث إليها في خطاب، وهذا منتهي الوحشة.. وكنت أرجو منك أن تنهض نُهوضَ المُجّان.

مؤتمر وزراء الخارجية [العرب، تمهيدا لمؤتمر القمّة العربي بالخرطوم].. لم يُهَيّأ للأدباء الأتّصال بالعرب. أم ظنّ محمد أحمد محجوب أنّه الأدب السوداني لا شريك له.. وهو من شعراء الدرجة الثانية كما تعلم. وهذا لا يمنعني من أن أقول أنه لعب دورا هاما، وما كان مستطيعا أن يلعب هذا الدور

إلاّ لأنّه أديب.

جاءت الأمطار.. ويقولون أن الخريف سيكون جيّدا هذا العام.

وأرى الوزارة مملؤة بمن لا يحسنون التعبير ولا يكتمون الأسرار، وهذه مصيبة... قالوا أن الوفد (ال...) أعطي السائق فور وصوله إلي المطار خمسين جنيها ليشترى الوسكي.. فأفهموهم أن في كلّ حجرة من فندق السودان ألوان من الأشربة. وأقفلوا أنفسهم في الحجرة وهات يا شراب. ولا أدرى من كانوا (ي...)

لا بدّ من فتح السودان لهجرة عربية واسعة، تتركّز في حواشي الجنوب، مع أعطائهم الجنسية السودانية وتمليكهم الأرض وإعطائهم حقّ الدّفاع عن أنفسهم. هذا هو الفتح.. وهكذا بدأت قصّة العروبة في السودان، فلماذا لا نعيدها مرة أخرى.. ولا يخشي من ذلك إلاّ (الع...) حقّا.

هل صنعتَ شِعرا أيّها الرجل ؟ لقد جمدت قريحتي جمودا، وليس هذا غريبا في الظروف التي أعانيها .. ألا ترى أن ترحمني بخطاب .. صِف روزماري مثلا.. لقد طلبتُ منها صورة ولم تهتم بذلك، وكنت بعثت إليها صورتي، وأنا رجل من سادات البشر، وهذا يكفي هذه الكافرة الملعونة.

شربت البارحة نبيذا إسبانيا.. ثم ذهبت فسمعت شعرا من دكتور عبدالله الطيب، وهو أعظم الشعراء العرب الآن من غير شك.. أقصد أنه لا يستعير ولا يرقّع شعره بأوهام غربيّة، وإنّما هو شاعر عربي من لون جديد غاية في الأمتياز. وفي شعره صور من ثقافته السودانية العربية.

Iris Murdoch كاتبة قصّة إنجليزية.. هل تعرف عنوانها ؟ آخر كُتبها : Red & Green أو Green & Red . هل يمكن أن ترسل به إلي.. وأريد الكتابة إليها.. هل يمكن أن أكتب إليها بواسطة مؤسسة PENGUIN . هذه المرأة كاتبة عظيمة جدا.. ولقد أرسل إليّ صديق من إنجلترى بكتاب Jean Jenet ، وهو (ل...) فرنسي ، لِصٌ، من نُزلاء السجون. وقد أثني سارتر علي

كتبه. وكتابه الذى عندى هو: The Thief's Journal، يحكي فيه عن شذوذه وجرائمه. ولا شكّ أنّه تألّم كثيرا جدّا. والترجمة الأنجليزية بديعة جدا.

ماذا تقرأ هذه الأيام ، وكيف أخبار أولادك هنا ؟

إنـــــذار : أن لم أتسلّم خطابا منك في ظرف أسبوع فأنا مخاصمك.. فاكتب لي خطابا واحدا فقط مقابل خطاباتي الكثيرة إليك.. أم أنّك لا تريد أن تشغل نفسك بي.. كتّر خيرك.

أنا في حالة سيئة جدا، ولا بدّ أن تجيئني منك أخبار مفرحة أستعين بها. ولك محبّتي وشكرى وولائي.

محمد المهدى مجذوب

في هذا الخطاب تتضح أكثر فأكثر حالة الخوف الذى انتابت السودانيين علي كيانهم العربي بعد زلزال الهزيمة ، وتحرّش الجيران، والأحساس الذى دقّ طبوله الغرب، بأنّ الساعة هي ساعة الأجهاز نهائيا علي التحدّى العربي وذبحه، بعد أن سقط مثخنا بجراح الهزيمة.

وأقف عند استنكار المجذوب لعدم إتاحة الفرصة للأدباء السودانيين للأتصال بالوفود العربية. ففي تلك الأيام كان الأدباء بصفة عامّة يحكمون السودان، وكانت قضايا السياسة تتداخل مع قضايا الأدب في الحياة الأجتماعية. وكانت زيارات الوفود العربية مناسبات للتواصل والتبادل الأدبي، وكان جوّ الخرطوم مفعما دائما بالجلسات والمناسبات الأدبية التي تصبح ذكريات يعيش بها الناس دهرا.

وأقف عند حديث المجذوب عن شعر محمد أحمد محجوب، وشعر عبدالله الطيب ، ووصفه للمحجوب بأنّه من شعراء الدرجة الثانية، ووصفه لعبدالله الطيب بأنّه أعظم الشعراء العرب. كان يقول لي ذلك فأوافقه حول المحجوب. أمّا

رأيه في شعرعبدالله الطيب، فكنت أقول له: هذا رأى قبليّ ، أسَرِىَ متحزّب. فعبدالله الطيب أعظم علماء العرب بالعربية وتاريخ شعرها، بل هو من أعلم العلماء بالثقافة الغربية. أمّا شعره فهو كشعر المدّاحين.. ولهذا السبب فهو يثير عندك من المشاعر والهواجس والحنين ما لا يُحِسّ به غيرك يا محمد. وكان يصرّ علي رأيه في شعر عبدالله الطيب، وكنت أحترم ذلك، فلا أطيل اللجاجة، تماما كما كان يفعل هو حول رأيي داخل لجنة النصوص. وقد قال لي في أحد خطاباته إنه أصبح هو الذى يصول ويجول ويتولّي دِقّة الحديث بعد سفرى "وعليّ" غائب.. في لندن. فلم يكن، وأنا بالنسبة إليه تلميذ ضعيف، معقّدا ولا غيورا. وإنّما كان شامخا شموخ العمالقة، عطوفا، كريم النفس، يَعْرِفُ القيمةَ فيرعاها. وكان كثير الألحاح عليّ لكي أعود إلي كتابة الشعر. وقد كتبت عددا من القصائد بعد ذلك لم أنشرها.

الرسالة التاسعة عشرة : لعنة علي روزمارى ..من موسكو !

موسكو ٦٧/٩/٩

أخي العزيز علي،

وهذه مفاجأة لك كما كانت مفاجأة لي سارّة. فقد وصلتني دعوة من اتحاد الكتّاب السوفييت لزيارة روسيا بصفتي رئيسا لاتّحاد أدباء السودان (!) وقد لبّيت الدعوة ومعي أخ كريم من الأتحاد.. كنت أحلم بمثل هذا..ولا أدرى لماذا تتحقق مثل هذه الأحلام..ذلك أنني أردت فنفذتْ أرادتي..أنا هو.

كيف حالك يا حبيبي.. وهل عاد أولادك؟ وأكتب إليك وقد شربتُ صَبُوحا، وثار بي الحنين لأكتب إليك بهذا القلم الأحمر..عجايب. زرت لينجراد، وكييف، وبُخَارَى (بلد الأمام البخارى) وطشقند، وسمرقند، وفرغانة.

ومن العجائب الغريبة، وأنا في هذا الجوّ الحافل، أن يصلني خطاب من روزماري حوّلوه أليّ من الخرطوم.. وقد بعثت إليها كارتين من موسكو، ولن أكتب إليها قط لأنّها جرحت شعوري وأصابتني بقلق ويأس.. ثم عادت تكتب إلي بعد أن نفذ السهم.. أخبرها بذلك صراحة، فأنا غير محتاج إلي كتبها، أنا نادم لأنني كتبت إليها بصدق، وأكون شاكرا لو أعادت أليّ خطاباتي إليها مع وعد شريف من جانبي أن أبعث إليها بخطابيها، فقد ثبت لي أنّها لا تفهم بالرغم من صدقي الجاهل الساذج في الكتابة إليها.. لعنة الله عليها، أخبرها .

وإزيّك يا حبيبي..في الطريق إلي أرمينيا..

أكبرني القوم هنا. ذلك أنني كنت صادقا، وحقّ مودّتك عندى.. لم أتملّقهم قط، وإنّما كنت أتحدّث بحرّية عظيمة. وقد دعوت بأسم السودان أشهر الكتّاب والشعراء هنا، وستتم زيارتهم للسودان في أكتوبر / ٦٧/.. ليتك تدرى سخطي علي روزمارى، فقد أهانتني ولم تكن صادقة. أعِدُك صادقا أنني سأكتب إليك خطابا طويلا عن زيارتي لروسيا العجيبة.. لعنة الله علي روزمارى مرّة أخرى. الكافيار.. والنبيذ والكونياك من جورجيا، والسجاير من يوغوسلافيا.. والأمر عظيم، سأكتب لك عنه.. مُتَرجِمتي ناتاشا.. الله ؟ ولعنة الله علي روزمارى التي لا تقدّر الصّدق.. وصديقاتي لينا وسوفيا. ولو كتبت لك أسماء العزيزات لملأت هذه الصفحة.. ياحليلك.. وعرفت هنا أنني من سادات البشر. سلامي إلي أسرتك العزيزة.. ولك محبّتي، وقد عَلِمَ الله العلاّم أنني ذكرتك في كل لحظة. سأكتب إليك. محبك، المهدى.

فَرِحتُ للمجذوب بهذه الرحلة فرحا عظيما. وشعرت أنّها أزالت عن كاهلي همّا ثقيلا كنت أنوء به، وهو كيفية إخراجه في عطلة يروّح بها عن نفسه المعذّبة الجريحة ، ولم يكن في مقدورى أن أفعل شيئا. وقد ضحكت علي تناقضه

اللذيذ حين يعترف أنه أرسل إلـي روزمـارى كرتين مـن موسـكو، ثـم لمـا جـاءه خطابها الذى انتظره طويلا، أخذته العزّة . غضب وأخذ يلعنها. وستحكم الأقدار علي هذه العلاقة بتطوّرمثير وغريب، وبنهايةمحيِّرة غامضة.

وأقف عند تأكيد المجذوب بأنّه حافظ علي كرامته في موسكو وأنه كـان يتحدّث بحريّة كاملة، وأنه لم يتملّقهم. وهـذه أشـارات مهمّـة بالنسبة لمـن عرفـوا الأتحـاد السـوفييتي فـي ذلـك الوقت؛ فبـالرغم مـن الأنجـازات الرائعـة، إلاّ أنّ التطبيق الستاليني للشيوعية أحلّ عبادة الفرد محلّ العقيدة الدينية المتوارثة. ومـع عبادة الفرد يأتي الخوف والتملّق. وبالنسـبة للضيـف القـادم بدعـوة ، فـأن الأمـر يحتـاج إلـي قلـب شـجاع، وعقـل واثـق، ونفـس أبيّـة، لمقاومـة الأستسـلام لقناعـة الشيوعيين آنذاك بأنهم يملكون الحقيقة المطلقة.

الرسالة العشرون: الأخوان سيقودون الأحزاب القديمة كلها باسم الأسلام !

٢٠/٤/٦٨

أخى العزيز علي، سلامات، وأودّ لو كنت هنا لأتحدّث إليك حديثا طويلا.. سـهلا كالدموع ، حتى أُلقِي عنّى أعباء ثقالا..

ورد إلـيّ خطـاب من روزمـارى بعد أن سكتت نصـف عـام، وأحسـب انّـك حركتها لتكتب إلي، وقد أعتذرت بأنها كانت مشغولة بأمر خطيبهـا، وأنهـا كـانت تعتقد أنني سأفهم حاجتها أليّ.. وهذا كلام غير مستقيم.. فقد كتبت إليها مستغيثا، ولكنها آثرت الصمت، وكان طبيعيا أن أطلـب إليهـا إعـادة خطابـاتى.. وأعتـذر، لأننـى لا أسـتطيع الكتابـة إليهـا بعـد أن كتبـت بـأخلاص كثـيرا، وكـانت ردودهـا قصـيرة ، تجيئ بعـد دهـور طـوال.. أرجـو إذا لقيتهـا أن تتسلّم هـذه الخطابـات وتعيدها إليّ بالحقيبة.. إنها لم تفهـم قـط أننـى إنسـان حسـاس جـدا ، وأننـى كنـت أطلـب إليهـا أن تكـون صريحـة معـي كمـا كنـت ، وأن تعرّفنـي بنفسـها.

أنتهت الأنتخابات، ولا أحد يعرف النتيجة.. والبلد متقدّم.. وفي أعماقه ثورة تضطرِم.. أعطيتُ صوتى للشيوعيين.. ولا أحتمل سقوط محمد أحمد محجوب، أريد له الفوز.. وأتمنّى سقوط الأتّحاديين.. يقولون إن المفتى وأحمد زين العابدين سيسقطان، وهذا عظيم، نائب رئيس الحزب وسكرتيره، وأصوات الشيوعيين قد زادت.. أنا أريد التغيير الشامل أولا، ثم ننظر إلي القومية العربية بوضوح.. أشتهى سقوط الأخوانَ.. ولكنّ خطرهم لا يزول.. فسوف يقودون الأحزاب القديمة كلّها باسم الأسلام.. وسأكون فى الجبهة الأخرى ، مع الأشتراكيين.. أيه رأيك ؟

كيف حال البنية ؟أرجو أن تكون صحتها علي ما يرام.. أنا في حالة نفسية سيئة جدا :

يقولون لي ما أنت فى كل بلدة　　　وما تبتغى ؟ ما أبتغى جلّ أن يُسمَى

ـــــــــ هل تحسب أننى أسأت معاملة روزمارى؟ أحسب أن الحق معى. أنا لم أتركها لأنّ خطاباتٍ تصلُنى من شاعرة بيروت، ولكن تركتها لسوء المعاملة الذى أدّى إلي قطع العلاقات.. فقد أعطيتها من نفسى أمتيازات خاصّة جدا، ولم تُعطِنى شيئا. وَعَدت أن ترسل صورتها إليّ مثلا، مع خطاب طويل عنها..ولم تفعل ذلك..المهم أنا لم أظلمها.. وسأعيد إليها خطاباتها عند وصول خطاباتى.

ـــــــــ سأكتب إليك مطوّلا حين أروق.. كتابا أحسن من هذا..

قيل لى أن محاسب السفارة مريض.. أرجو أن تخبره أننى أسأل عنه. كيف حاله الآن ؟ ولك شكرى.

أخوك المحب

محمد المهدى مجذوب

هذه الرسالة " الزهجانة " كان لها ما يبررها؛ فالأنتخابات فى السودان لا

يبدو أنها ستجلب التغيير المطلوب من وجهة نظر المجذوب. ومخاطر الأسلام السياسى أصبحت واضحة له أكثر من وضوحها بالنسبة لمعظم المراقبين، والصراع داخل حزب الأمّة لم تتوحّد فيه الأطراف المستتيرة ــ الصادق والمحجوب ـ كما كان يشتهى المجذوب ، والأزهرى خان تاريخه بالنسبة له، ورجال الجيل الثانى من الأتحاديين دون المستوى بكثير، وعلى عبدالرحمن خان الأشقاء، والسيّد علي الميرغنى يخرّب كلّ شيئ فى رأيه. فكان طبيعيا أن يستقرأ المجذوب التاريخ والمستقبل ببصيرته الثاقبة ، ويرى الأخوان ـ بعد سنوات من ذلك ـ يركبون الأحزاب " القديمة "، ويسوقونها سوق الدّواب إلى مصير مظلم للسودان.

ولو أن رجال الجيل الثانى من قادة الحزب الوطنى الأتحادى أدركوا قيمة ، ومغزى برنامج التحديث الذى قدّمه شباب الجيل الثالث إلى الأزهرى وزملائه، وقَبِلوه، بعد ثورة أكتوبر لما أصبح الوطنى الأتحادى من الأحزاب القديمة فى نظر المجذوب. ولما وصلت الأمور إلى أن يجبر الترابى الصادق المهدى علي مزايدة " الصحوة الأسلامية" أوأن يرسل مندوبيه ــ بعد انتفاضة أبريل ١٩٨٥ الكى يديروا الحزب الأتحادى الديمقراطى ويصبحوا المستشارين الأوَل لرئيسه. لقد رأى المجذوب كلّ ذلك. ولأنّه كان يعرف ما أعانيه أنا كاتّحادى واعتراضىعلي ماكان يجرى كان صريحا معى.

الرسالة الحادية و العشرون : محمد أحمد محجوب يطبع دواوين الشعراء.

١٠/٥/٦٨

عزيزى الأخ علي،

إزيّك يا سندى.. ماك طيّب..الله يسلّمك.. كيفنّك. وأبدأ فأهنئك بالترقية راجيا لك المزيد، وأسأل عن صحتك والأسرة الكريمة، وعن الأحوال جميعا.

هذا وأن عجبتُ لشيئ ، فعجبي لعدم سؤآلك عنّا.. معك حق (فكرام البشر) لا يسأل عنهم أحد في هذا الزمان الغلبان القوّاد. زماننا هذا.. فَعَلَ اللهُ فيه وتَرك. المهم هو أن تكون رائقا مرتاح البال.

ومشغول بأمر الضوّى، كيف أحواله، أليس هناك تحسّن. إذا زرتَه فأبلغه أنني دائم السؤآل عنه، وهذا صحيح، فأنا مشغول به فعلا والله يعلم ذلك. والأخ حامل خطابي إليك هو المحاسب الجديد، قد علمتَ هذا بالطبع.. وهو قدير Sober -minded و Decent وGentle . لم تسعفني لغتكم يا شيخ العرب علي التعبير.. وبمناسبة الأنجليزية فأين الصديق الغالي أبن جونسون.. روزمارى.. لا أحد يعلم شوقي.. ولكنني كنت في حالة من حالات السخط علي صمته، فأرسلت إليه محتجّا أن يعيد خطاباتي.. ولكنه ردّ محتجّا بأنه يريد المزيد من الخطابات. أعرف أنّك لا تلقاه إلاّعرضا، وبعد أزمان. من الأفضل أن ترسل إلي رقم تلفونه لأحدّثه من الخرطوم.. هذا عملي جدّا...

والبلد هايص كما تعلم.. وبلغني أنّكم رفضتم (من الرّفِتْ) يا سيدى، باشكاتب السفارة المستر Milton أحسب هذا أسمه.. سبحان الله، صرتم تتصرّفون في الأشراف من الCelts والنورماندين.. دنيا غرّارة.. وبلغني أن الرفت لمَسَ الأوانس.. أفّو !

أذْكُرُكَ في لجنة النصوص.. وأين العبقرى الطيب صالح.. إذا لقيته فأبلغه تحياتي.. وأبلغ تحياتي إلي من تحب.

الأمطار.. جوٌ بديع.. ولكن أمطار لندن أحلي بمراحل.. التي تقول فيها سُكّر ووَرِدْ.. وما أروع الأزهار والورد هناك ،وما أروع البحر.. ما أروع كلّ شيئ.

شاعرتي في بيروت.. كتبت من أجلها ثلاث قصائد طوال: البشارة ــ القُربان ــ الخروج، علي الشكل الجديد.. وهي شاعرة أسمها كلثوم.. شاعرة ممتازة، أشعَرُ منّي.. هذا صحيح، وحاجة تكسف.. والخطابات بيننا متّصلة.. وقد أنعظتُ من بلد بعيد.. وغادة السمان تكتب في مجلّة الحوادث البيروتية.. كاتبة ممتازة من غير شكّ، وأنت تعرفها يا عزيزى السّندل [الصنّدل]، وأعجبتني إحدى مقالاتها فكتبت معلّقا خطابا خاصّا.. ولكنني قبل ذلك أرسلت إليها خطابا أنتقد فيه بعض أعمالها.. وكان خطابا شرِسا.. كان ذلك قبل أعوام. والخطاب الثاني الذى كتبته إليها كان قبل شهر و أكثر.. كان خطابا جيّدا.. وأنا واقع في حبّ عقلها.. واللهِ ؟ مُشْ ؟... لم أخْلُ من شَــخْدَةٍ حذرة جدّا في خطابي الثاني.. طلبت إليها ـــ كأنني لا أبالي ـــ أن ترسل أليّ ردّا للمناقشة.. مَسْــخَةْ... ولم يأتني رد.

ومِثْلي في سِنّه وشَنَاتِه لا بدّ أن يقوم بمجهود في مثل هذا الصيد العقلي اللذيذ.. وشيخ العرب الذى نكتب إليه ونحبّه وندّخره، تأتيه الغزلان لتنظر إليه، إلي لونه الصنّدلي.. والله يرزق من يشاء بغير حساب.

وقد أهدى جدّى لجدّك فرسا ، تذكر هذا.. مُهرة.. وقد سقْتَ للعبد الفقير المهرة روزمارى.. فطفشت ورمتني وكسرت ضلوعي.. كانت مهرة غير مروّضة.. وشيخ العرب يعرف رياضة الجمال لا الخيل.. والآن عُدتُ إلي شيخ العرب.. ماذا يرى في المهرة الجامحة غادة.. هل يكتب إليها.. فيذكر أسم العبد الفقير عرَضا.. وأنّه مِمَّن تَحْسُنُ الكتابة إليه، والتبرّك به، والبروك له.. سأرسل اليك القصائد الثلاث.. لآخذ رأيك فيها، وهو مهم، حتي أعمل علي طبعها في

ديوان وحدها.

هذا وديواني (نار المجاذيب) في المطبعة هنا. وقد تألّفت هنا لجنة للتأليف والنشر ـ والحقيقة أنني كنت السبب في أنشائها ـ فقد سأل كبار الأدباء في بيروت والقاهرة رئيس الوزراء الشاعر عن شعر المجذوب.. واستدعاني السيد أبوحسبو في مكتبه، وقال لي أن الدولة قرّرت طبع ديواني، فأشرت عليه أنّ البلد يعاني من مشكلة النّشر.. واقترحت تكوين لجنة للتأليف والنّشر .. واقترحت عبدالله الطيب وابراهيم العبّادى والصّلحي وعبدالله حامد الأمين. واقترح الوزير الدكتور التجاني الماحي.. واجتمعت اللجنة فرشّحت عبدالله الطيب للرئاسة.. وقد كان.

تحت الأعداد للطبع الدواوين التالية :

محمد المهدى مجذوب ـ أحمد محمد صالح ـ عبدالله الطيب ـ المرحوم توفيق صالح جبريل ـ المرحوم عبدالله حسن كردى ـ المرحوم النّاصر قريب الله ، وهكذا حتّي ننتهي من الشعراء الشباب.. ثم نطبع القصّة السودانية ، وأى شيئ صالح للطبع.. والآن هل لديكم يا مشايخ العرب ما تريدون طبعه.. شعر الحاردلو وتاريخه مثلا.. أو أىّ شاعر آخر من الشكرية. أشِرْ عليَّ في هذا. وأرجو أن تحتفظ بحديثي عن تكوين اللجنة لنفسك، لا تحدّث به أحدا.

وإذا لقيت روزمارى ـ أرجو أن تلقاها عشان خاطرى ـ فأبلغها تحياتي، واذكر لها حنيني، وانتظارى لخطاب، وأنّها يمكنها أن تحتفظ بخطاباتي. يا أخي أكتب.. أنا في انتظار خطاب منك .. أرجوك. أخوك المحب / المجذوب.

هذا الخطاب " الرائق " هو انعكاس لحالة الأهتمام الذى أولته حكومة محمد أحمد محجوب للأدب والأدباء. وقد استفاد الأدباء والفنّانون من حالة الضعف التي كانت تعاني منها حكومة المحجوب، التي اتّجهت لكسب الرأى العام

وخطبت ودّ المثقفين لمواجهة الضغوط الكاسحة لشعبية الصادق المهدى. وأظهر عبدالماجد أبوحسبو وزير الثقافة والأعلام ـ الذى اهتبل فرصة الخلافات والفوضي ليدخل الوزارة متحالفا مع مجموعة الأمام الهادى رغم اعتراض زملائه في الحزب الوطني الأتحادي ـ براعة في إدارة احتياجات وطموحات المبدعين، وهو لم يكن من الأدباء أو الشعراء أو الفنّانين، فاستطاع أن يخلق جوّا فنيّا وأدبيّا لا بأس به. ساعده علي ذلك احتياج الناس إلي ما يخفف عنهم معاناة هزيمة يونيو١٩٦٧، كما ساعدته بعض المناسبات مثل زيارة أم كلثوم للسودان، وفوق كلّ ذلك ساعدته تلك الروح العبقريّة التي أشاعت من حولها ـ حيثما حلّت ـ جوّ الأدب والشعر والجمال، روح العظيم النادر محمد أحمد محجوب، الذى كان بحق : شيخ عرب الأدب والفنّ والمجتمع.

جاء قرار حكومة المحجوب بطبع ديوان المجذوب في الوقت المناسب؛ فقد اتّضح من خطاباته أنه يلاقي صعوبات جمّة في طباعته مما جعل حماسه في إعداده يفتر شيئا فشيئا حتي أنقذه قرار المحجوب.

وأقف عند إشارات المجذوب المتكررة إلي أنّه " إبن سادات البشر "، وإشارته إلي أن جدّه قد أهدى إلي جدّى فرسا. هذه الأشارات تعكس افتتانه الذى لم يضعف أبدا ـ كما أشرنا من قبل ـ بقصيدة الشيخ إبراهيم عبدالدافع في رحلة إحمد بك أبوسن إلي مصر باستدعاء من الخديوى إسماعيل مع التحفّظ والحراسة المشدّدة. صحيح أن المجذوب وعبدالله الطيب إرتاحا جدّا للقصيدة بسبب ما قاله إ.عبدالدافع عن آل المجذوب. ولكن صحيح أيضا أن المجذوب إهتم بالقصيدة من ناحية فنيّة وتاريخية عامّة، وأشرك في ذلك الأهتمام الشاعر الرقيق محمد عبدالحي الذى أصرّ علي إخراجها تلفزيونيا، ولكنّ المرض أقعده عن ذلك.

والقصيدة تمثّل إلي حدٍّ بعيد مجموعة سيناريوهات شبه جاهزة للأخراج والتصوير. وسأحاول هنا نقل تصوّر محمد عبدالحي لمناظر السيناريو كما

شرحها للمجذوب ولـي فـي أكـثر مـن جلسـة بمكتـب المجذوب بالخارجيـة. كـان يمسك بورقة فى يده تحمل أفكاره وهو يشرح، وكنّا ننظر ونتابع، وبسبب صعوبة المتابعة أخرج لى صورة منها.

وأقف عند إشارته إلى " شاعرتى فى بيروت"، كلثوم. حينما أتـأمّل أشـاراته العديدة الساخطة إلى روزمارى، ورغبته الملحّة فى أن تكتب إليـه، وحينمـا أقرأ إيحاءه لى فى أحدى رسائله بأن أهدّدها بأننى سأطلب من صديقة أخرى أن تكتب إليه إذا لم تكتب هى، أشعر أن هذه القصائد التى أشار إليها (البشارة - القربان - الخروج) كانت موجّهة أصلا إلى روزمـارى، فقـرر أبلاغـى بأنـه وجّههـا إلـى "كلثوم " لكى أبلغ ذلك لروزمارى، فربما تتحسـر علـى مـا فاتهـا!.. ذلـك أن هـذه العلاقة مع كلثوم كانت طارئة ولم يثبـت لـى أنّهـا تعمقت بمـا يـبرّر كتابـة ثـلاث قصائد متتالية من شاعر توقّف عن كتابة الشعر زمانا.

فمن الواضح أن العلاقة مع روزمارى أثمرت ما كنت أتمنّاه أنـا مرتّين، مرّة برسائله بالأنجليزية، وهى من عيون الأدب والفن، ومرّة ثانيـة بعودتـه إلـى كتابة الشعر. ولكن أرتباك روزمارى حول المجذوب، وما أحدثته مفاجأة مسـتوى خطاباته، وحتى خطّه، من إيحاءآت معقدة داخل عقلها الذى انبهر بها، كلّ ذلـك جعلها فى حيرة من أمرها كيف ترد وماذا تقول، فغضب المجذوب مـن تباطؤهـا فى الرد وبدأ يغيظها بالتظاهر بأنه وجد بديلا عنها أفضل منها. ولكن الحقيقة هى أنه لم يستطع الخروج من أسار مشاعره نحوها.

والآن إلى مشروع سيناريو الشاعر محمد عبد الحى لقصيدة الشيخ ابراهيـم عبد الدافع:-

رحلة أحمد بك أبوسن من السودان إلي القطر المصري.. وعودته.

سنة ١٨٦٣

تأليف: الشيخ إبراهيم عبدالدافع

(المؤلف الرئيسي لمخطوطة كاتب الشونة)

>>> " مشروع " سيناريو، وتوزيع الشاعر محمد عبدالحي<<<

المَدخَل

يا صاحِ قُلْ لأحمدَ المعروفِ بين الورى بصَنْعَةِ المعروفِ
أُشكُرْ إلاها فضلُهُ لا يحصي ولا يُعَدُّ بل ولا يُستَقصَى

أحمد ، الطِّفل..بين العِلم والفروسيّة

مناظر متتابعة تصوّر طفولته في بيئة دينية هي " أبوحراز " مقرّ أخواله العركيين في منزل جدّه لأمّه الشيخ يوسف أبوشرا ، تاكِي سنّار ، أي الذى أحدث زلزالا في العاصمة " سنّار " بمجرّد أن أزاح طاقيّته إلي الجانب الآخر من رأسه لأنّ أهل العاصمة سخِروا منه، وهو الرجل الصالح صاحب الكرامات الذى نزل عنده السيّد الحسن الميرغني فأصرّ عليه أن يتغدّى عنده فرفض الحسن، وأصرّ يوسف. فأمسك الحسن سِرّ النار فأبي الطعام أن ينضج، فرضخ يوسف وسمح لهم بالسفر، فلمّا خرجوا وجدوا جِمالَهم بلا رؤوس ، فرجعوا، وأطلق الحسن سِرّ النار فصار اللحم فُتاتا، فأكلوا ورحلوا. يحدث كلّ ذلك وسط منزل الشيخ يوسف الذى يضمّ آلاف طلاّب القرآن - كان العركيون هم علماء وفقهاء مملكة سنّار - المنزل محاط ب ٩٩ قُبّة من قِباب أولياء العركيين ، (أهل التِّسعة وتِسعين بَنيّة).

مُولِيكَ مَنْ انشَاكَ بالوُجودِ في كَـــرَمِ الآباءِ والجُدودِ
لا غَرْوَ أن حُزْتَ جميع الفضلِ مُذْ كُنتَ من قومِ كِرامِ الأصلِ

ما بَينَ أقطـاب الورى الأعلام   الكُبَرَا ، مشايخِ الأســــــلامِ

ثم تنتقل المناظر إلي بادية البطانة، حيث أشتهرت قبيلة الشكرية في ذلك الوقت بكثرة الخيل، إلي جانب الجمال والأبقار والضأن. وكانت تقاليد الفروسية هي السائدة. وكان والده قد أستقلّ بالبطانة عن مملكة الفونج بمصالحة توسّط فيها الشيخ يوسف أبوشرا كبير علماء المملكة، وحضرها كافة زعماء المملكة وملوكها من كسلا إلي دارفور ومن البحر الي الفونج. وكان من نتائج ذلك الصلح اشتراط أبوسن علي ألشيخ يوسف أن يزوّجه ابنته الوحيدة التي كان ينتظرها عدد كبير من أقربائها ليَرِثوا مجد والدها، فتزوّجها وأنجب منها أحمد بك، وهو جدّ معظم آل أبوسن. وفي السيناريو منظر أبوسن ـ الوالد ـ وهو يضع كفّه علي أرض البطانة، حينما وجد آثار أبقار قبائل الجزيرة التي كانت تدخل خِلسة لترعي في البطانة ليلا، فيقول للأرض: وحياة أولادى ، أنا ما شفتَ زولا دخلك !

وبين آباءٍ كِرامٍ قـــــادةَ   الفـخرُ فيهم ولَدَيهم عـادةَ

وكلّهم ذو مَفـْخَرٍ جَلِيِّ   لا سيَّما الشيـــخ أبو عليّ   (جدّأبوسن)

ثم اقْتَفَى آثارَ ذاكَ السّلَفِ   مَنْ كانَ خيرَ وارثٍ وخَلَفِ

أبوالكرام عِوضُ الكريمِ   حامي الحِمَى وكـافلُ اليَتيــمِ   (أبوسن)

ثّمّ اقتفاهُ نَجلُهُ محمّـــــد   أبوعليٍّ ، وهو شَهْمٌ أمْـــجَدْ (منظّم أنسحاب

الجميع بِقُدرةِ المــُصورّ الـبديـع من ضرب السيوف الملك نمر إلى

وقُزتَ في السّهـامِ بالمُعَلّى   مُذْ مـا نَشأتَ يـافِعا وطِفلا   الحبشة)

وهــذه مِن جُمْلَةِ الأنعــامِ   فاشكر عليــها اللــهَ بالدّوامِ

أحمد الرّجل.. ذو الصّفات النادرة

يظهر أحمد الشاب، بالصّفات التي ذكرها صمويل بيكر، حينما قدّمه زعماء القبائل لمقابلة محمد علي باشا وإقناعه له بإيقاف حرق القرى وقتل السكان. وقوله له : أنت عاوز تحكم أرض فاضيةولاّ عاوز تحكم ناس ؟ الناس طفشوا سابولك الأرض، إيه الفايده؟ ويعكس السيناريو مواقف من سيرة أحمد في شبابه.

حتّي بلغتَ مَبلَغَ الرِّجالِ ... حَظيتَ بالسَّعدِ وبالأقبالِ
وفُقْتَ في الرأيِ وفي التّدبيرِ ... وصِرتَ كهفَ الجارِ والعَشيرِ
إلي حِماكَ أوَتِ القبائلُ ... ولم تَنَلْ مَنالَكَ الأوائلُ
ثمّ ارتَقَيْتَ رُتَبا جليلَةَ ... وما خَصَصْتَ بالحِمَى القبيلة
بلْ كنتَ كالأبِ الشّفيقِ البَرِّ ... لِجَمْعِهِم ، وعَبدِهِمْ ، والحُرِّ
فضلاً من الكريمِ ذى الأمدادِ ... حتّى رأيتَ حَفَدَةَ الأولادِ
وكلُّهم يَصلُحُ للرياسة ... والعقلِ والتّدبيرِ والسِّياسة
لا سيَّما المُختارُ للتّقديمِ ... كَهفُ اليتيمِ عِوضُ الكريمِ
أيضاً رأيتَ من بَنى الأخوانِ ... أجِلَّةً فاقوا علي الأقرانِ
كَشَيخِهِم ذاكَ عليِّ الشّانِ ... فهو فريدٌ ما لهُ من ثاني
قد فاقَ في الجُودِ وفي المَزايا ... مُذْ طَلَبَ الأرسانَ لِلْعَطايا
وهذه من نِعَمِ الألهِ ... عليكَ فاشكُر لا تكُنْ بِساهِ
فالخَيرُ ما دامَ عليك ماطِرا ... وما رأيتَ ما يَغيظُ الخاطرا

الشيخ أحمد، مدير الخرطوم وسنّار ،والأزمة مع الخديوى

يظهر السناريو الشيخ أحمد وقد اصبح أحمد بك، يُدير الخرطوم وسنّار من ناحية ويحاول، من ناحية أخرى، إعادة الوحدة إلي القبائل ومجتمع المملكة

السنّاريّة التي شنّتها انتقام الدفتردار لمقتل أسماعيل بن محمد علي، والتي أصبح هو الممثل الشرعي الوحيد لها بعد أن ورث الشكرية دور العبداللاب منذ زمان، وهو حفيد الشيخ يوسف أبوشرا، الزعيم الديني للملكة، وقريب ونسيب ملوك الفونج. وقد أوت القبائل إليه لحمايتها من البطش وسياسات الضرائب الخديوية. فكان محتوما أن تقع الخلافات بينه وبين الحكام الموفدين من الخديوى. وزاد الطين بلّة فساد بعض الحكام. ولكن الأزمة بلغت قمّتها

حين بدأ الخديوى أسماعيل يرسل الأوروبيين إلي السودان في وقت بدأت تظهر فيه حركة وطنية سودانية بقيادة أحمد بك والعلماء والقضاة السودانيين تطمح إلي إعادة المملكة المستقلّة بوجه جديد. فغضبت هذه القيادة من أرسال الأوروبيين للمشاركة في حكم السودان، وكتب أحمد بك إلي الخديوى خطابا يقول فيه : (مِن المروة أن يَحكُمَ المسلمين أجنبيٌّ اللغة والدين ؟) فأمر الخديوى باعتقاله وأعضاء قيادته، ومنهم إبراهيم عبد الدافع ، وإرسالهم إليه في مصر. (تدخل في هذا السناريو مئات المشاهد من تاريخ تلك الفترة)

مُذْ ما نشأتَ مُتْرَفاً مُصانا لِغايةِ الأمر الذى قد كانا [يعني الأعتقال]
شاهدتَ إذْ ذاكَ الهُمومَ والكَدَرْ والحِذْرُ لا يُفيدُ إن جاءَ القدَرْ
وعاجِلاً أُرْسِلتَ للمُحافظَة مُؤكّداً عليكَ في المُحافظة [يعني الحراسة المشددة]

الوصول إلي الأسكندرية، والمواجهة مع الخديوى.

ينتقل السيناريو مباشرة إلي الأسكندرية (الثّغر). أحمد بك ووفده يتوقّعون الأسوأ، ربّما الأعدام لأحمد بك، ولكنهم يتماسكون ويشدّون من أزر بعضهم البعض. ينتقل المشهد إلي داخل قصر رأس التّين. الخديوى الملك بكلّ

عظمة أسماعيل وبهاء ملكه، وإبداعاته الحديثة. أحمد بك بنفس وصف صمويل بيكر، وحكايات حارس المقبرة الحاج إسماعيل يدخل القصر مع وفده في شجاعة وتصميم، وبعض أعضاء الوفد قلقون علي مصير أحمد بك والجوّ متوتّر ومشحون بالمخاوف. وتجيئ المفاجأة حينما يستقبلهم الخديوى بالترحاب، ويُكرم مثواهم، ويستضيف أحمد بك في قصر رأس التين، ويمنحه لقب " باشا ". ويشرح له أفكاره حول توظيف الأوروبيين لتطوير البلاد وتحديثها كما فعل محمد علي. ويضم السيناريو حكايات الشكرية عن مرافقي أحمد بك. قال أحدهم بعد العودة إلي السودان إنه لن يخاطب العامّة بعد أن أقام في قصر رأس التين، وكان الذى يمسك الأبريق ليغسل له يديه بعد الأكل ضابطا برتبة يوزباشي ! وقصص أخرى كثيرة.

حتّى وصلتَ لحدودِ الثَّغـرِ	قابَلْتَ في الحالِ عزيزَ مِصرِ	(الأسكندرية،
أمَـدّهُ الألـهُ بالأجْـلالِ	والنَّصرِ، والسَّعدِ ، وبالأقبال	وكان لقب
وافاكَ بالبِشْرِ لدى المُـقابلة	لأنّ أستارَ الجَلِـيلِ سـابِلَة	أسماعيل عزيز
والحُـزنُ قد بُدّلَ بالسُّـرورِ	وقد كُفيتَ وَقْعَةَ الشُّـرورِ	مصر)
قد أدْركَتْكَ نَجـدَةُ الأجدادِ	كابنِ الطِّريفي صاحبِ الأمدادِ	
وجاءكَ الأسعافُ من مولاكا	ثُمَّةَ في دار القِرى آواكـا	
وذاك بالقصرِ المُنيـرِ الأنوَرِ	أىْ رأسِ التِّينِ الشَّهِيرِ الأشْهَرِ	

ينتقل السيناريو لتصوير المُفارقات والطرائف التي نتجت عن إقامة السودانيين في قصر رأس التين، وعلي رأسها قصّة البامية علي مائدة الخديوى التي سبق ذكرها. وما يرد في هذه القصيدة من وصول عدد من أهل وأتباع أحمد بك إلي مصر للأطمئنان عليه، والمفارقات الكثيرة التى نتجت عن ذلك.

أقمْتَ مَسرُوراً به زمانا   ولم تكُـــن مذَللاً مُهـــانَا

اللهُ مولاك هو النَّصــيرُ   وقد وَفَى بعهدِك البشيـــرُ (أحد أعوانه الذين أعدّهم

لأنّهُ في حـــالةِالضرّاءِ   قد لازَمَ الصّدق وفىالسَّرَّاءِ   للطوارئ)

ثُمَّ أتى إليك نَجْلُ يوسفْ   ومَعْهُ إدريـسُ بِدمعٍ يَذْرِفْ (إد. ود شيبة صاحب

تَشَوُقاً ومعْهما بَطْــرانُ   وعـاجلاً جـاءوا ومـا تَوَانُـوا   ركبـه عنـد السفر

ولَبَّثُوالديكَ باطمئنـــانِ   حتي بلغتَ القصد والأماني   بطران. حاجبه)

أحمد باشا يغادر الأسكندرية بالقطار.

ينتقل السيناريو إلي قطار الخديوى الخاص الذى نقل أحمد باشا ووفده إلي القاهرة. وهو واحد من أوائل القطارات في العالم حيث كانت مصر ثالث دولة تدخل نظام السكك الحديدية في العالم ! وكان الوزراء والأمراء يركبون هذا القطار بأذن كتابيّ خاص من الخديوى شخصيا. المنظر في محطة قصر المنتزه، الموجودة الآن داخل القصر، والوفد السوداني بعد إقامة شهور عديدة تحيط به أُسَرُ الأصدقاء والنّسايب الجدد، فقد تزوّج معظمهم من الأسكندرية، وما زالت أسرة " أبوسن " موجودة في الأسكندرية حتى اليوم، ومن أعضائها الذين التقيت بهم اللواء أحمد أبوسن، وهو يسكن في مواجهة بوابة نادى سبورتنج، ٢٦١طريق الحرّية، والمهندس محمد أبوسن مدير شركة أتيكوالذى كان نائبا في مجلس الشعب، وواحد منهم أصبح عُمدة قرية بالبحيرة، وما زال أحفاده عُمَداً هناك، وما زالت هناك أعداد من الخلطات الشُكريَّة ـ المصريّة في الأسكندرية نتجت عن عصورٍ مختلفة بعد تلك الزيارة.

ويُصوّر السيناريو دهشة السودانيين، والمصريين من أنسِبائهم لهذه الآلة العجيبة التي تسافر بسرعة الطيور.

ثمّ طلبتَ الأذنَ لِلمحرُوســـهْ لِكى ترى رِحـــابَها المأنوسَـه (القاهرة)
أتى لك الأمرُ الشريف العالى بالأذنِ أرسِلْتَ لها فى الحـــالِ
مُحتَرماً ذهبتَ في الوابـــورِ بسُرعةٍ تفـــوقُ للطيـــــورِ

أحمد باشا..في المحرُوسة " القاهرة "

يبدأ السيناريو من داخل صالون قطار الخديوى، وما زال محفوظا بمتحف السكك الحديدية، ثم الوصول إلي محطّة باب الحديد، ثم المرور بشوارع القاهرة وصولا ألي قصر عابدين. ويصوّر السيناريو حفاوة الأستقبال التي يصفها الشاعر بقوله : ونِلتَ فى الأكرام شيئا ما جرى. أى لم يحدث من قبل. كما يصوّر زيارات الوفد لقبر الحسين والسيّدة زينب. ويصوّر زيارة أحمد باشا للأزهر ورواق السنّارية، واجتماعه بشيخ الأزهر وعلمائه، وقيامه بكسوة طلاّب الأزهر، وزيارته للمكتبات وشراء عدد من الكتب. وتحرّكه الواسع في المدينة حتي أصبحت زيارته حديث الناس بسبب كرمه وأحسانه. لخّص الشاعر ما حدث بقوله : وصِرتَ فيها ظاهِراً معروفا * وكم بذلتَ للورى معروفا.

ثَمَّ بها نَزَلتَ فى دارِ القـــرى ونِلْتَ فى الأكرامِ شيئاً ما جَرَى (قصر عابدين)
بَلَغتَ ما أمَّلتَ ، بالزِّيـــادةْ وزُرتَ آلَ البيتِ والسِّيـــادةْ
وفُزْتَ بالحظِّ الجلـيلِ الأوفرِ وزُرتَ أشياخَ الهُدى بالأزهـــرِ
وصِرتَ فيها ظاهِراً معروفَا وكَمْ بَذَلتَ للوَرَى معروفـــا (قام بكسوة
ثُمَّ اشتَرَيتَ كُتُباً عديـــدَةْ مِنْ كُتُبِ المذاهـبِ المُفيـــدةْ طلاب
وكُتبِ الحديثِ والأخبــــارِ لا سيّما مصنَّفِ البُخــــارِى الأزهر)
ومُسلِمٍ والتِّرْمِذِى مع الشّفـا كَذا مُوَطَّا مالِكٍ ، وقد كَفَـــى
وهـــذه مَنْقَبَةٌ عظيـــمهْ فُقْتَ بهـــا أُصُولَكَ القَديمـــةْ

بالرغم من نشاط الوفد السوداني في القاهرة، إلاّ أن الخوف من عدم

السماح لهم بالعودة ما زال يشكّل الهاجس الرئيسي للجميع. ثم يجيئ قرار الخديوى " بالأفراج " عن أحمد باشا - وهذا هو تعبير الشاعر - فيفرح به فرحا عظيما، ويركب البواخر التي خُصّصت لأعادته مستعجلا ملهوفا للعودة إلي أهله ووطنه، ويتّجه جنوبا. ويعكس السيناريو مدى الوحدة التي كانت قائمة في وادى النيل، فقد هبّ زعماء الصعيد كلهم لتكريم أحمد باشا في طريق عودته. ويعكس السيناريو الوجود المكثّف للعبابدة (آل خليفة) شمال الأقصر. وينتقل إلي الخرطوم ليعكس حالة الأنتظار والقلق لدى جماهير السودانيين الذين بلورت هذه الأحداث إحساسهم القومي، وانتماءهم لبلادهم.

ويستخدم الشاعر كلمة "البلاد " لأول مرّة في أدبيات السياسة آنذاك حين يعبّر عن الفرحة بالعودة إلي السودان بقوله : مُذْ ما رجعتَ للبلاد سالما. فالعودة ليست إلي القبيلة أو إلي البطانة، وإنما إلي " البلاد ". وهذه الأحداث هى بداية نشوء الحركة الوطنية السودانية. وكان هذا الوفد هو اللجنة القيادية للحركة. وقد بدأ تكريم الوفد بعد خروجه من القاهرة مباشرة، وحينما وصل إلي منتصف الطريق بين القاهرة وأصوان - كما هى مكتوبة في النّصّ الأصلي للقصيدة - أُصيب أحمد باشا بالحمّى، واقترب من الموت، بعد احتفالات تكريم هائلة أقامها له " همّام " أحد أهمّ زعماء الصعيد:

ثُمّ أتــاكَ الغـَوثُ بالأفـراجِ	لتقصـِدَ الأهْليـنَ بالأدلاجِ
فوراً ركِبتَ البحرَ في السّفـائنِ	مُستَعجِلاً لرؤيـةِ الظّعـائنِ
وفي المرور بـبلاد الرّيـفِ	كم نِلتَ مِن حَظٍّ ومن تشريفِ
لا سيّما ما كـانَ مِن همّـامِ	فأنّهُ بـالغَ في الأكـرامِ
وحينَ كانَ اللُّطفُ شاهدتَ العِبَرْ	فقُلتَ إنّ الأنتقـالَ قد حضرْ
ثُمّـةَ آلَ الأمرُ بالسّـلامةْ	وهذهِ نِهـايةُ الكرامـةْ
يَجِبْ علينا الشُّكرُ فيها دائمـا	مُذْ ما رجعتَ للبلادِ سـالِما

وعندما وصلتَ عند الأشْهَـــمِ	نَجْلِ خليــفةَ الأجلِّ الأكــرمِ
وفاكَ بالبِشْــرِ وبالأكــرامِ	وقامَ في التَّشْـهيلِ باهتِمـامِ
وعندما وصلتَ أرضَ أصْوانـا	قابلتَ فيها أهلَها الأعْيـانـا
جاءوا إليكَ بِقُلوبٍ صَـافِيـةْ	مُستَبْشِرينَ مُذْ رُزِقتَ العافِـيةْ
وسِرتَ مِنهم شـاكِرا وحامِدا	إلي كِرِسكُو بالمَسير قاصِـدا

بعد عبور صحراء العتمور.. نسائم البلاد ، وأخبار الأولاد.

ينتقل السيناريو إلي صحراء العتمور الموحشة القاسية. حيث يغادر الوفد البواخر والمراكب، إلي الجمال والخيل والبغال، ويضرب الصحراء شرق النيل ـ ليس " ضَرْبَ القُمارِ " كما فعل أبوالطيب وهو يغادر مصر علي عجل ـ وإنما كان أمامهم الدليل البارع الذى لم يضل في ليل أو نهار، والتصميم علي تحقيق أهدافهم. وعند الوصول إلي أول مكان مأهول ـ وادى أبوسِحَا ـ بدأت وفود البطانة تستقبل ركبه علي بعد مئات الأميال شمال ديارهم، وتنقل إليه خبر حفيده الأكبر " أحمد " الذى حاصره الأحباش في الحدود الشرقية حيث دخل مع فرع من فروع الشكرية في رحلة لم تُعرَف أسبابها، وكانوا قلّةً والأحباش كثيرون، فقام أحمد الحفيد بتغطية الجمال بخيام الشعر بحيث يبدو شكلها كالأفيال، لها خراطيم وأرجل سميكة، وهجم بها علي خيول الأحباش، فأجفلت الخيل، وشقّ أحمد ومن معه صفوفهم إلي النّجاة. وأصبحت هذه القصّة حديث القبائل، وعقَد الشكرية المقارنات بين أحمد الحفيد وجدّه " أبوسن " فارس الفرسان، وجد جدّه " أبوعلي " الذى بلغت براعته القتالية حدًا جعل من المستحيل إصابته بسيف أو رمح في المعارك. وكان أحمد هذا فارسا قوى الشكيمة، يطلب المبارزة قبل كل مواجهة بين الجيشين ، ويعلن عن نفسه قائلا : أنا أحمد، أنا مَرَضْ يومين والثالث خَراج الرّوح... هل من مبارز ؟ فأصبح لقبُه " مرض

يومين " وما زال أحفاده يحملون هذا الأسم غير المريح، فقد ضاع منهم أسم أحمد إلي غير رجعة:

ومِن كِرِسكُو سِرتَ فى العَتْمُورِ   علي طريقٍ حُفَّ بالصُّخُورِ
أمامكَ الدَّليلُ هادِى القَومِ   ما ضلّ فى ليلٍ ولا في يومِ
وعندما جئتَ أبا سِحاءِ   وافاكَ فيهِ خَبَرُ الهَناءِ
بأنّ اِبنكَ الحفيدَ أحمدا   قام بأمرٍ فيهِ قهرٌ للعِدا
فأنّهُ ثارَ بقومٍ عِدَّةْ   في أُهْبَةٍ غَرِيبةٍ وعُدَّة
فاقَ بها مَنْ قَبْلُ كان حامِي   النِّعَمِ السَّائمةِ النَّوامى.

العودة إلي البحر " النيل " وعناية أسرة خليفة.

يعود السيناريو إلي النيل والبواخر العاملة في السودان. وتأخذ الأحتفالات والترحيب صورة تقاليد وموسيقي ولهجات قبائل شمال السودان النيلية. مع استمرار تقاطر الوفود القادمة من البطانة. ويبرز السيناريو المبالغة السودانية في الكرم والولائم:

ومُذْ قطعتَ المَهْمَهَ الفَسِيحا   للبحرِ قد نَزَلتَ مُسْتَرِيحا
وكلّما جئتَ إلي أقْوامِ   يلْقَوك بالتّرحيبِ والأكْرامِ
حتّى وصلتَ عند ذاك الأمجَدِ   نَجْلِ خليفةَ الأجَلّ الأسْعدِ
مُحمّدٍ ، وافاكَ بالأكْرامِ   وزائدِ التّبْجيلِ والأعظامِ
ومِنهُ قدْ كانت لوازمُ السفرْ   فما أجلَّ صُنعَهُ.. وما أبَرْ
وعندهُ أتاك قاضى البلدِ   محمّدٍ أكْرِمْ بِهِ مِن سَنَدِ
لِكَى تسيرَ قاصدا مأواهُ   وزادَ في البِشْرِ وفي قِراهُ
وبعد ذا وصلتَ عند حامدِ   نَجْلِ خليفةَ الأجَلّ الماجِدِ
وافاكَ بالبِشْرِ العجيبِ الزائدِ   مُبالِغاً فى كَثْرةِ المَوائدِ

العاصمة التجاريّة • •بَرْبَرْ.

يدخل السيناريو العاصمة التجارية للسودان مدينة " بربر ". ويصوّر ما كانت عليه من عمار ونشاط. وهى مدينة تَبَوتَقَتْ فيها شخصيّة وروح أنسان وادى النيل ـ السوداني ـ المصرى جنوب الصحراء. وبالرغم من أن الشاعر لا يطيل الحديث عنها، إلاّ أنّ التاريخ الشّفهي يحكى أنّ بربر خرجت لتكريم الوفد العائد من مصر بطريقة المُدُن، لا بطريقة الرّيف. فقد خرج التّجار بهداياهم إلي الوفد. وكانت هداياهم هى " الحظّ الأوفر " في الرّحلة. ويعكس السيناريو الأهميّة الخاصّة للتفاعل السوداني ـ المصرى في بربر ، وحِرص السودانيين المصريين في بربر علي أن يستعينوا بأحمد باشا علي ضغط الخديوى من أجل الضرائب. وتمثّلُ بربر مدينة وسطا، من الناحية الأجتماعية والعمرانية ما بين القاهرة والخرطوم، وتعكس مدينة بربر مثل مدينة دنقلا، تفاعل العرب مع النوبيين. والفرق أنّه بينما تعكس دنقلا تفاعل عرب مصر مع النوبيين، فأنّ بربر تعكس تفاعل عرب السودان مع المصريين والنوبيين، وتتداخل مصر ودنقلا والبطانة في تكوين المركز " الجعلى " فى بربر وما حولها ـ عطبرة .. ألخ.. ومن الناحية الجغرافية، فالأتصال مباشر وحميم بين البطانة والنوبة ومصر في هذه المنطقة. لكلّ هذه الأعتبارات، يقف السيناريو وقفة خاصة عند التركيبة الأجتماعية والأثنيّة لمدينة بربر:

وعندما قابلتَ سُوحَ بربرِ مُرتَحِلا مِنها بحظٍّ أوفرِ

وافاكَ فى الطّريقِ مَكُّ النِّعَمِ عِوضُ الكريمِ الشّهمِ عالي الهِمَمِ

سادات البَشَرْ!

يدخل السيناريو إلي العاصمة الدينية لشمال السودان: الدَّامَرْ. عند شطّ النيل يقف قادة المجاذيب من أهل العلم والتقوى وبينهم الفارس الحسن ودّ الأمين، ومعهم جمع غفير من أهلهم، فرسانا وفقهاء، ينتظرون البواخر والمراكب القادمة تحمل الوفد السوداني العائد من المحروسة ـ وللمجاذيب علاقات دمٍ قويّة بمصر، فقد قَدِموا من المغرب إلي مصر، وأقاموا بها، ثم إلي السودان.

وعند هذه المرحلة من الرحلة يدخل عنصر جديد في نوعية الهدايا المقدّمة إلي أحمد باشا، كان المجاذيب أول من أدخله، وهو إهداء الخيل إلي رمز المقاومة العائد، وسيستمرّ إهداء الخيل إليه بعد ذلك حتي يصل الخرطوم. وسيتّضح أنّ المقصود من هذا كان رغبة عفوية من المواطنين في دعم القوة العسكرية لأحمد باشا، والتي استخدمها فعلا فيما بعد، نظرا لأحساسهم بسريان الضعف في أوصال دولة الخديوى وتسلّط الأجانب عليها. استقبل المجاذيب أحمد باشا استقبال الفاتحين، وقدّموا له جوادا مطهّما من أفضل الخيل، ركب عليه من شاطئ النيل حتي الديار، وقد زفّوه بالهتافات وعبارات التكريم والتبجيل. ونسبة للعلاقات الخاصّة بين الأسرتين فقد أقام الشيخ أحمد يومين مع المجاذيب، وبسبب خصوصية العلاقة طلبوا منه أن يقضي فيما بينهم في النّزاع الذى نشِب حول الجزيرة الجديدة التي ظهرت في النيل، وتمّ التصالح علي الحكم الذى قضى به :

وعندما قابَلتَ سُوحَ الدَّامــــرِ — مأوى الكِرامِ الأكرمين العــــامِرِ
أعني بنى المجذوبِ ساداتِ البَشَرْ — لاقَوكَ بالوَجْهِ الطّليقِ والبَشَــــرْ
قد كانَ مِنهُمْ كلُّ فِــعلٍ حَسَــــنِ — لا سيَّما نَجْلِ الأميــنِ الحَسَــــنِ

فانّــــهُ وافــــاكَ عند السّــــاحِلِ　　　　بأحْمَرٍ من أجْــــودِ الصَّواهِـلِ
عليهِ قد ركِبتَ تَنْحُو المنــــــزِلا　　　　مُحتَرَمــــاً ، مُكَرّمـاً ، مُبَجّــلا
أقَمتَ في رِحــــــابِهمْ يوميـــنِ　　　　مِنْ أجْلِ أنْ تُصْـــلِحَ ذاتَ البينِ
في دعوةِ الطِّينِ الجديدِ الطّـارِى　　　　ورَمْلَةٍ من زَبَـــــدِ البِحَــــارِ
ثم ارتحلتَ شــاكرا مـا كانــــا　　　　مُنتهجاً نحــو بنى عَرْمَـــــانا
وجُزتَ أرضَهم سريعــــا تَسْرِى　　　　علي السَّفينِ فوق مَتْنِ البحْــــرِ

الجعليون يستقبلون الوفد بالأفراح والأوتار والطبول٠أولاد المك نمر يظهرون استعدادهم للمناصرة العسكرية. صمود الأسرة ضدّ محاولات بذر الخلافات.

ينتقل السيناريو إلي ديار الجعليين. في البداية يحضر إلي السفينة الفقيه خلف الله الكِتَيَّابى،عند قرية الكِتَيَّابْ. في نفس تلك المنطقة يحضر وفد من الأسرة علي رأسه الشيخ علي بن الشيخ محمد الذى تخلّى عن رئاسة الشكرية لأخيه أحمد. ويستعيد السيناريو لحظة مضى عليها ما يقرب من خمسين عاما، حين اتّفق أحمد وهو في الخامسة والعشرين مع محمد علي باشا علي إعادة القبائل من الحبشة التى فرّوا إليها في وجه حملة الدفتردار، فلما عاد الشكرية وزعيمهم " محمد " الأبن الأكبر ل " أبوسن " كانت المرارة بينه وبين أسرة محمد علي شديدة لأنّه قام بتهريب المك نِمِر عبر البطانة إلي الحبشة، وآوى الجعليين الذين تخلّفوا عنه، ثم لحق هو نفسه وقبيلته بالمك نمر في الحبشة. ومن المفارقات الطريفة أن "محمد" هذا هو نفسه الذى قام بمحاصرة شندى مهددا بدخولها ما لم يسلّمه زوج أخته المك نمر قتلة أخيه حمد من البطاحين (ثم دخلوا بينهم العلماء ومشايخ السّجاجيد، ومنعوهم عن المحاربة، ورجعوا إلي بلادهم) كما يروى كاتب الشونة... يستعيد السيناريو لحظة يذكرها الشكرية بكلّ اعتزاز : حينما عاد الشيخ محمد، أخذه أخوه الأصغر أحمد إلي الحاكم العام التركى، وقال

للحاكم: في الظروف الصعبة الماضية أنتم تعاملتم معى باعتبارى شيخ الشكرية، أما الآن فأن شيخ الشكريّة الأصلى قد وصل. فقال له أخوه أمام الحاكم: (خلّيها شيخَة الحكومة دى ، أنا شَيَّخْتَكْ علي الشكريّة) وقام وخرج. وقد حاول البعض من عملاء الحكومة إثارة الفتنة أثناء اعتقال أحمد بك في مصر ليؤلّبوا عليه أبن أخيه " علي " وحاولوا إغراءه ليطالب بموقع أبيه فـي قمّة قيادة الشكرية ، بدلاً عن عوض الكريم بن أحمد الذى تولى القيادة في فترة الأعتقال، ولكنه لم يستجب لهم وتضامن مع ابن عمّه حتي عاد عمّه. و " علي " هذا هو الذى أعلن أنه ليس علي المحتاج إلاّ أن يحضر رَسَنه ويأخذ هديته من قطعان الأبل التى يملكها. فأصبح لقبه: جِيبْ رَسَنَك.

ثمّ لقِيتَ الفاضِلَ النَّبِيـــــــهَا ... الكاملَ المُكَمّل الفقيـــــها (الفكي خلف الله
أكْرِمْ بهِ نَجلُ خيارِ ســـــلَفـوا ... يُعْزَى إليهم وهو نِعمَ الخَلَفُ الكِتَيَّابي)
ثمّ أتي إليكَ شيخُ العــــــرَبِ ... عليٌّ المَشهورُ عـالي الرُّتَبِ
فأنّه في حـــــالةِ الغيـــابِ ... قدْ حفِظَ العَهــدَ بِلا ارتيابِ
ولم يزلْ مُعَضـدًا أخـــــاهُ ... بالنّفسِ ، والمالِ ، وما لَقَــاهُ
وذاكَ مِن زيـــــادةِ الوفـــاءِ ... وكَرَمِ الأخـــلاقِ والصّفـاءِ
عَوِّلْ عليه واشــدُدْ البَنَانــا ... فيمَا عَنا ، وأخْلِص الجَنـانا
ثُمّةَ وافـــاكَ الفقيهُ المَـكّي ... تَشَوُّقاً إليـــكَ دونَ شَــكٍّ (أ. سليمان)
وابن الكرام الأكرمين الناجــى ... أتاكَ ليلاً مُسْرِعاً في الداجى(أبن حمد النيل
كذا الأمينُ نجلُكَ النَّجيــــبُ ... وهو ذكيٌّ فهمُه عجيــــبُ ـ أمدرمان)
ومِنهمُ استخبَرتَ كلَّ الخَبَـــرِ ... عمَّا جرى من ظاهرٍ ومُضمَرِ

ويبدو أنّ الجعليين سمحوا لهذا المؤتمر العائلي ليأخذ مجراه قبل البدء في احتفالاتهم بالوفد. فقد جاء إلي شاطئ النيل حيث ترسو السفن بعد ذلك أثنــان من أشهر قادة الجعليين في تلك المنطقة هما " ودعدلان " و " ود ضَبْعَة "، فاصطحبا

أحمد باشا إلي ديارهم، وأقاموا احتفالات لم يتعوّد الجعليون علي إقامتها لزائر أيّاً كان. فقد أولموا الولائم الضخمة، وأقاموا الحفلات الغنائية علي رقص الخيول ورنين الأوتار والطّبول، وودّعوه وداع القائد الظافر :

ثمّ ابنُ عدلانٍ فخيـــــمُ القَدْرِ	أتى إليك عند شــــطِّ البحرِ
ومَعَهُ أبنُ ضَبْعَةَ الشّــــهيرُ	وهو كريمٌ مـــا له نظيـــرُ
قد فاقَ في الجُود علي الجميـعِ	لا سيَّما ما كان في التّوديـــعِ
مُشَــــيّعا إليك بالخيـــــول	ورنّــــةَ الأوتـــار والطبــول
حتّى وصلتَ البحرَ في أفـراحِ	ونـــــُزْهةٍ وزائدِ انشِـــــراحِ
ثمّ ارتَحلـــتَ من لَدُنْهُ حـامِدا	لنحوِ شَنْدى بالمسير قاصِـدا

يعكس السيناريو حالة الأرتياح القُصوى التي شعر بها أحمد باشا في ديار الجعليين. فقد أعادت هذه الزيارة ذكريات وأحزنا كثيرة، كما أعادت روح الأخاء والتضامن والتضحيات الجسيمة في مواجهة حملـة الدفتردار. وشعر الجعليون، الذين كانوا ما يزالون يلعقون جراح الهزيمة والشّتات، بعودة الروح إلي ديـارهم، ولابدّ أنّهم دخلوا في صميم أطار التّشَكُّلْ القومـي الجديـد الـذى تُعبّر عنـه فرحـة البلاد بعودة الوفد المعتقل.

ويقف السيناريو وقفة متميّزة عند قدوم سليمان بن المك نمر إلـي البـاخرة فرحا متهلِّلا يطلب زيارة إلي داره من أحمد باشا تكون خطوة في طريق اعتراف جديد بمكانته، وفرصة لأستعادة القيادة إلي بيتــه وأسرته بعد الكارثـة. ولـم تكـن تلبية ذلك الطلب أمرا سهلا. فمنذ حادثة مقتل اسماعيل محروقا علي يد المك نمر لم تظهر أسرة المك، بل اختفي الجعليون من إطار السلطة. ولـم يحظـوا بزيـارة مسئولين إلاّ في إطار الشكوك والتفتيش من قيادة القاعدة العسكرية التركيـة التـي وُضعت في شندى لقمعهم عند الضرورة. ويحاول قائد تلك القاعدة " بِشـار صـار العسكرى " إثنـاء أحمـد بـك عـن قبـول دعـوة سـليمان بـن المـك نمـر خوفـا مـن

إيحاءآتها، وتدور مناقشات في الوفد حول هذا الموضوع ، يقرر بعدها أحمد باشا قبول الدعوة ترسيخا لهدفه الأساسى في إقامة كيان سنّارى جديد. وينتهز سليمان الفرصة ليستعرض قوّته وإمكانياته القتالية أمام أحمد باشا وكأنه يقول له: أنا مستعد، متى طلبتنى. وسيستفيد أحمد باشا من هذه اللفتة بعد سنين ويستعرض قواته هو أمام باخرة خصمه العنيد الحاكم الراحل في شندى مما سيؤدّى إلي استدعائه الثانىإلى المحروسة، بحجّة دعوته إلي افتتاح قناة السويس. المهم أن أحمد باشا يغادر منزل سليمان وقد بدت عليه السعادة؛ فقد أقام تحالفا مهما، وجدد ذكريات بالحديث عن أبناء عمته، أولاد نمر المك، عمارة وخالد، أخوى سليمان. ويعكس السيناريو عمق صلات وصداقات أحمد باشا بأبناء المنطقة، فهو يخرج عن طريقه ويوجّه الباخرة إلي جزيرة البحرين ليقدّم واجب العزاء لآل أبو دبيب، أصدقائه. وما يزال مخطط إهداء الخيول ـ دعما للأستعداد والقوة ـ الذى بدأه المجاذيب مستمرّا من الأفراد والجماعات، وما زالت الفرحة تكتسب مزيدا من الوَهَج في الطريق إلي الخرطوم :

ثمّ بها " بِشارُ صارَ العسكرى " | وافاك بالبِشرِ المَزيد ، فاشكرِ
وابنُ عقيدٍ أحمدُ الأفَنْدِى | وافاكَ أيضا بنواحى شندى
وزادَ في الأكرام والترحيب | لمّا أتى بأشهبٍ أديبِ
ثمّ سليمانُ بها أتاكا | مُستَبشِراً يرغبُ في قِراكا (أبن نمر
ومُذ أتى طاوعته للمنزلِ | في موكِبٍ وعُصْبةٍ وجَحْفلِ المك)
وزادَ فى الأكرام والتَّبْجيلِ | لأنّهُ ذو نَسَبٍ جليلِ
ومنه قد سرتَ قريرَ العَينِ | مُيَمّماً جزيرةَ البحرينِ
لكى تؤدّى بعضَ حقٍّ واجبٍ | عليكَ عُرفٌ في حقوقِ الصّاحِبِ (أبودَبيْبْ
ثمّ أتاكَ الزَّينُ ، وهو زَينُ | كريمُ أصلٍ ، فاضِلٌ ، وعَيْنُ (الزّين
بِأدهمِ الخُيولِ حقّاً جَادَا | وفاقَ أقراناً له وسادا كاشف بانقا)

ومِنهُ قد سِرتَ حَمِيدا تَسْـرِى في غِبْـطَةٍ نحــوَ بِلادِ نَسْـرِى (الجزيرة
وعندما جــاوزتَ لِلرَويــانِ اتَـتْكَ أقــوامٌ من الأعْيَــانِ نسرى)
أعْنِى بِذا القـولِ بَنِى الجَمّوعِ أتتـكَ بالخَيــلِ وبالجُمــوعِ
مُستَبْشِرِينَ في رِضاكَ راغِبِينْ بالرِّمـاحِ وبالسِّـيوفِ لاعِبِيـنْ
ثمّ أتاكَ الشيخُ ذو المَفاخِـرِ محمّدٌ ، هو أبن عبدِالقــادرِ (أبودُبَلْ)
وعندما جِئتَ بَنِى السّـرُورِ قُوبلتَ بالأفْراحِ والسُّـرُورِ (السروراب)
لا سِيَّما ما كان من محمــّدِ خالِ البَشــيرِ الأكرمِ المُمَجَّــدِ
وابنُ بشيرٍ بِشْــرُهُ قـد زادا لأنّه بأحمــَـرٍ قد جَــادا

ينتقِل السيناريو إلي المشهد الأخير، الدخولِ الظافر لوفد الحركة الوطنية إلي العاصمة الخرطوم. وقد خرجت المدينـة لتحيـة الوفـد وتهنئتـه فـي الشـوارع المحيطة بالقصر ـ نفس القصر الجمهورى الآن ـ وبعد مقابلة أحمد باشـا للحـاكم، يتّجه الوفد إلي مقرّ إقامة أحمد باشـا فـي " الشّجرة "، حيث أقام أهل الخرطـوم والشكرية أحتفالات هائلة ابتهاجا بعودة الوفد إلي البلاد سالما، وتسـلّم أحمد باشـا مديرية الخرطوم مرّة أخرى:

ومِنهمُ ظَعـنتَ للخــرطومِ مُعتَصِما بالواحــدِ القـيّومِ
لكَى تَرى في حضرةِ المُـديـرِ شَواهِدَ الأكـرامِ والتّوقِيـرِ
وحينما قـابَلتَه لَقِيــتَ حُسن اللّقا ، وللمُنى حويـتَ
لأنّهُ مــا زالَ ذو إنْصـافِ وحالُهُ في ذاكَ ليس خــافي
ومِنهُ قد سِـرتَ إلي مأواكــا مُنْشَرِحَ الصّدرِ بِمــا أولاكـا
لِتَنْظُرَ الأهلِيـنَ والعَشَــائرا وتَشْهدَ الأفــراحَ والبشــائرا
وذاكَ مِن خَفِيِّ لُطــفِ اللــهِ عليــكَ فاشكرْ لا تكن بِسـاهِ
ويُجْمَعُ الشّملُ ويَحْصُلُ الهَنَـا ويُبْلَغُ المَقْصــودُ حقّا والمُنَى
وكَم مُنِحتَ في دُنـياكَ من نِعَمْ وفُزتَ مِن مَولاكَ بالحظِّ الأتَمْ

واللهُ يُوليــكَ البقا زمــانا   مُحتَرماً ، مُكَرّما ، مُصانـا
وعند خَتْمِ العُمرِ حُسنَ الخاتِمة   وهذه جاءت لِنَظْمى خاتِمـة

هذا هو " هيكل " السيناريو الذى ناقشه الشاعر محمد عبدالحى مع المجذوب ومعي. وقد استعان بى وبغيرى من " السّنّاب" في بعض تفاصيل المشروع، كما استعان ببعض طلاّبه في جامعة الخرطوم في إجراء الأبحاث التارخية. وهذا الهيكل موجود عندى، ولا أعرف ماذا حدث للأبحاث والمشروع في صورته النهائية، ولكنّ ملاحقة المجذوب لي حتى آخر حياة محمد عبدالحى تشير إلي أنه كان مستمرا في إعداده.

وأكرر أنَ فكرة إخراج القصيدة في مسلسل تلفزيونى هى فكرة محمد عبدالحى، وأنّها لم تخطر لي علي بال قبل أن يقترحها. وكان المجذوب شديد الحماس للفكرة من منطلق حديثه المتكرر عن ضرورة كتابة تاريخ السودان علي أيدى المقتدرين من أبنائه. وهو لا يعترف بتلاميذ الأنجليز من المؤرّخين السودانيين، وقد رأينا حُكمه علي مكّي شبيكة.

وكان له تفسير لأهمال الأنجليز تدريس تاريخ الدور السودانى في الأدارة الخديويةَ للسودان، هذا الدور الذى شهد به مؤرخ انجليزى منصف واحد هو "ريتشارد هِلّ " فى كتابه:" مصر فى السودان.**Egypt in The Sudan** "، وكيف أنّ الأنجليز تعمّدوا إهمال حقيقة أنّ مقاومة الشعب لأجراءات الخديوى القمعية في جمع الضرائب، والتى كان أحمد باشا على رأس قادتها، وبسببها جاء استدعاؤه الثانى إلى المحروسة، كانت مقاومة شعبية سودانية مصرية مشتركة، وأن الثورة العرابية في مصر والمهدية في السودان شيئ واحد، وقامت المهدية بعناصر سودانية مصرية مشتركة، وأن النّهاية الغامضة لأحمد باشا في قصر عابدين ـ أثناء افتتاح قناة السويس، والأشاعات الكثيفة التي أحاطت بهذه النهاية، كانت سببا في إشعال مشاعر الغضب في مصر ـ حيث يتضح من القصيدة أنّه

كـان معروفـا جـدا، وفـي السـودان حيـث بلغـت المشـاعر حـدّ الثـورة المسـلحة "المهدية".

هذه الأحداث، وهذا التفسير للتاريخ قمعه الأنجليز في رأى المجذوب، وقدموا صورة شائهة لتاريخ السودان في كل المراحل والمجالات. خاصة مرحلة نشأة الحركة الوطنية السودانية التى كان أساسها قيادات الأقاليم التىتمتّعت بالحكم الذاتى في مملكة سنّار مثل الشكرية والجعليين والشايقية. فقد كان طبيعيا أن تنشأ الحركة الوطنية في صفوف هؤلاء لأنّهم ذاقوا طعم الحريّة والسلطة قبل قدوم محمد علي. وكان المجذوب يرفض ـ كما أرفض أنا ـ تصنيف دخول محمد علي للسودان بأنّه " الأستعمار التركى ـــ المصرى " ، وهى الفكرة التى حاول الأنجليززرعها فى أدمغة التلاميذ السودانيين. لأنّ احتلال الولاة فى الدولـة الأسلامية للأقاليم المجاورة لهم وضمّها إلي ولاياتهم والحصول علي اعتراف الخليفة بهذا الضم أيام ضَعفِ الخلافة، كان هو التقليد السائد. وقد احتلّ محمد علي الحجاز، وفلسطين، ولبنان، وسوريا. ولم يُصنِّف أحد هذا الأحتلال بأنّه "استعمار ".

أمّا محمد عبدالحي فكان يرى فى هذه القصيدة ملحمة شبه أسطورية تصلح للأخراج السينمائى والتلفزيونى علي أكثر من صورة، وفى أكثر من فلم، حسب اجتهاد المخرجين، ويكون إطارها العام هو إبراز تفاصيل نسيج العلاقة بين الشعبين المصرى والسودانى وما فيها من مفارقات لطيفة وحكايات طريفة ونضال اجتماعى وثقافي وسياسى مشترك. ويقول إنّ الأجيال القادمة من المخرجين يمكن أن تؤلّف قصصا وحكايات جديدة عن أحفاد الشخصيات والأسماء الواردة فى القصيدة وتطوّر العلاقات بينهم، بحيث تصبح القصيدة أساسا ل Saga مستمرّة عن تداخل الأسر السودانية والمصرية على مستوى الحكّام، وعلى مستوى الأسر، فى تداخل مع الوافدين من الأروبيين وغيرهم.



قبر أحمد باشا أبوسن بالمقبرة الملكية بالأمام الشافعى

مع الشيخ عبداللاه أبوسن، وستّنا أبوسن

وثيقة تنازل الملك " بادِي " عن البطانة ل " أبوسن " *

بعد اطلاعه علي قصيدة إبراهيم عبدالدافع، طلب منّى المجذوب الأطلاع علي الوثائق التاريخية التى تحتفظ بها أسرة أبوسن، فأطلعته علي وثيقة تنازل الملك " بادى " للشيخ عوض الكريم " أبوسن " عن البطانة بحدودها المعروفة من شمال شرق الخرطوم إلي جبال " عَين اللُّوَيْقَةْ " ـ واسمها حاليا " الخِيارِى " علي طريق مدنى ـ القضارف ـ، ومن شاطئ النيل الأزرق إلي شاطئ نهر عطبرة .
وأخبرته أننى أخذت أصل تلك الوثيقة إلى الأخ محمد إبراهيم أبوسليم في دار الوثائق، وأطلعته عليها، وقال لي إنّه رأى نصّ تلك الوثيقة فى كتاب مؤرِّخ إنجليزى مترجمة إلى الأنجليزية، ولكنه لم يكن يتصوّر أن أصلها العربى موجود كما هو، وكانت ورقة الوثيقة مُلصقة على قماش من الدَّمُّور القديم، وتبدو كأنّها من بَرْدِّى الفراعنة. فأمر أبوسليم مساعديه بصيانتها، ففعلوا ذلك علي خير وجه.

قلت للمجذوب أننى تصوّرت أنّ أبا سليم انتبه إلي قيمة الوثيقة خاصة لأنّه قال لى أن هذه هى أول وثيقة عن معاهدة سياسية في تاريخ السودان تحصل دار الوثائق علي أصلها. ولكننى فوجئت بظهورها فى فهارس دار الوثائق ضمن وثائق توزيع المزارع والبِلداتْ فى دولة الفونج.

قال المجذوب:لا تعجب من ذلك. أبوسليم من حلفا، وإحساسه بالأرض ضعيف! وجميع سكان الشمالية إحساسهم بالأرض ليس كأحساسكم أنتم في وسط وغرب السودان. أبوسليم لا يعرف أين حدود البطانة. لذلك تعامل مع الوثيقة وكأنّها تنازل عن مَزرعة، بينما هى تنازل عن دولة. البطانة هى بحجم إنجلترا. ولهذا السبب، يا شيخ العرب، سَخِرَ الشاعر إبراهيم عبدالدافع من أهلى المجاذيب، لأنّهم تنازعوا علي (الطِّين الجديد الطارى... ورَمْلَةٍ من زَبَدِ البحارِ) فأبوسليم لا يتصوّر الأرض الزراعية إلاّ بمقياس الشِّبْرُ !

ثم حكى لى المجذوب نكتة الحلفاوى الذى كان يستخرِج الطّين من النيل،

يفرِشه فى صحراء حلفا، ثم يزرع فيه " البنقو ". فشكاه أحدهم إلى المفتّش الأنجليزى الذى حضر غاضبا وقال للحلفاوى: إزّاى يا راجِلْ إنتَ تِطَلّع التِّين من البحر وتزرع فيه بنقو ؟ فقال الحلفاوى بانفعال: يِحْرَقْ (د..) يا شيه، أمّال هَنِزْرَع فيه قمح ؟

وما دُمنا فى سيرة البطانة ، فيحسن أن نثبت نصٌ الوثيقة التى نتحدّث عنها:–

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

باسمك يا كريم   بسم الله الرحمن الرحيم   الحمد لله الذى بلّغ الرّسول   ونحن آمنّا بما يقول

ختم الملك

حُجّة سُلطانيَّةْ ووثيقة مُلوكِيّة بِمدينة سنّار المحروسة المحميّة أجلّها الله تعالى لدا مُتولّيها سلطان المسلمين وخليفة ربّ العالمين القايم بأمور الدّنيا والدّين المُنْتصِبِ لمصالح المسلمين وناشرِ شريعةِ سيّد المرسلين وناشرِ لواء العدل والفضل علي كافّة العالمين مَنْ أَصْلَحَ الله به العباد وأنار به البلاد وقامِعِ أهل الكفر والمكر والعِناد وأهل الظّلم والفساد ورحمتُ الله سبحانه وتعالي علي مُتَوَلّي البلاد الواثق بالمُلك الهادي السُّلطان بن السُّلطان المُظَفّر المُعان السلطان بادى بن المرحوم دَكِين بن السلطان بادى نَصَرَهُ الله الرحمن الرحيم بِجَاهِ القُرآن العظيم والنّبيّ الكريم آمين آمين يا ربّ العالمين، إلي حضرة كلّ مَن تَقعْ عليه هذه الوثيقة والنّاظِر لِما فيها مِن الحقيقة وبعد فأنّ السلطان المَحفوظ المَبْرورْ المُؤيّد المنصور السلطان بادى أعطى وأمضا إمضاء تامّا للشيخ عوض الكريم أبي سن بن علي بن أبي علي بن محمد الأدَيغِمْ شيخ قبيلة الشُّكْريَّة أطيان مَطَرِيّة وبَحْرِيّة بِشرق بحر العادَيكْ وشرق الرَّهَد وهى أرضٌ واسِعة حدودها من الصّعيد عَين اللّوَيْقَةْ ومِن الصَّباح بحر أتْبَرَة لغاية الشّريف حَسَب الله ومِن السَّافِلْ أطيان الشيخ الصّالح علِي أبوذَلَيقْ والشيخ الصّالح حسن ولد حِسُونَةْ ومن الغرب السَّاحل الشّرقى من بحر العَادَيْكْ وبحر الرّهَد لِيَعمُرَ فيها قبيلته الشكريّة وغيرهم ممّن يختاره ويَنْتَفِع بأخذِ خَرَاجها منهم ويَخْرُجُ من داخل تلك الحُدود طِين العبدلاّب فقط عطاءً ناجزاً له ولِذُرّيّتهِ ولِذُرّيّةِ ذُرّيّته إلي ما شاء الله لا يُنازِعهُم فيها مُنَازِعْ ولا يُعارِضُهم فيها مُعارِض ومَنْ يتَعرَّض له بعد وثيقتى هذه فقد عرَّض نفسَه للهَلاك والحَذَر ثمّ الحَذَر من المخالفة والمُخالِف لا يلوم إلاّ نفسه حَضَر ذلك وشهد به الوزير الشيخ ناصر بن الشيخ محمد أبولْكيلِكْ و الأمين ـ الشيخ هارون ولد يونس والجُندى علي ولد شوّال جندى السوق والشيخ صُباب ولد عبدالرازق ـ شيخ حوش خال الملك

والشيخ بادى ولد مسمار شيخ قَرّى والشيخ عمر جور ولـد حمـد الزّيـز شـيخ التّاكـة والشـيخ عجيت ولد هاكيت شيخ أتبرة والشيخ إبراهيم ولد عبد العاطى شـيخ بيلَـة والشـيخ صُبـاحى ولد عدلان شيخ البحر والشيخ علي ودّ النّور شيخ كردفال والشيخ قاسم ولد إدريس ولـد نايل مُقدّم السواكرة والسلطان عبدالله ولد السلطان بادى سلطان فور المَسّبّعات والملـك أحمـد ولد عدلان ملك برساج شيخ البّجّادة والشيخ مدني ولد شَنّبُول شـيخ أرْبَجِي والشـيخ علـي ولد محمود شيخ القواربة والمؤذّن عثمان ولد بَلّي والقاضي الشريف عمر والخطيب نـوّار ولـد عمّار ومُسَطّر الحُروف فقير الله حضرة إبراهيم يعقوب حِميرا وكفي بالله شهيدا ـ تحـرر ذلـك ظهر الأثنين لاثنا عشرة ليلة خَلَتْ من شهر الله ربيع الأوّل من شـهور سـنة ١٢٠٦ ستّة بعـد المايتين والألف من الهجرة النبوية علي صاحبها أفضل الصلاة وأزكي السلام .

الرسالة الثانية والعشرون : مَنْ يدرى ؟ قد أزور لندن هذا العام.

١٥/٥/٦٨

السيد الأخ العزيز على أبوسن،

وأين أنت ؟ السيّد مدير الحسابا شرحت له أمر الضوّى، وطلبنا محاسبا علي وجه السرعة. ومشغول بمرض الأخ الضوّى، كيف أحواله الآن، أتمنّى له شفاء عاجلا. أبلغه تحياتي وسؤالي عنه. هذا وسيصل السيد مدير الحسابات إلى لندن خلال الفترة ٢٠-٢٥/٦/٦٨فأحسنوا استقباله. وسوف أرسل المحاسب ليكون فى انتظاره حتى يلمّ بكثرة العمل عَياناً. هذا وقد طلبت أنشاء وظيفة جديدة فى لندن للمحاسب (G) فى ميزانية ٦٨/٦٩ وأنا كبير الأمل فى التصديق بها.

كيف أحوالك جميعا، وتخطر فى ذهنى دوما أيها الحبيب.. وقد كَثُر علىّ العمل هنا، وأشعر أحيانا أننى مُسَخَّر لآكل فقط، وأن إنسانيّتى مهدرة.. وأضيق لذلك ذرعا، وأحاول الفرار مما أنا فيه، وكتبت إلي روز مجددا رجائى فى إرسال الخطابات إلىّ، ولقد علم الله أنّ ذلك لم يكن كراهية أو أننى لقيت شاعرة فى بيروت، ولكن لأنّ روزمارى لا تكتب. تصورّ أنها وعدتنى بأرسال صور لها وخطابات عن نفسها.. ثم نسيت كل ذلك، وصمتت أكثر من نصف عام، أنا أخشى على خطاباتى، ولم تجِدْ لديها تقديرا ، ومن الأفضل تركها، وأنتظر منها أن تعيد إلىّ خطاباتى.

كنت أودّ أن أكتب إليك مُطيلا عن أشياء كثيرة.. عن خوفى على هذا السودان.. ولكننى لا أجد القدرة على ذلك.. فأنا مُفْحَمٌ هذه الأيام. ديوانى أوشك أن يدخل المطبعة هنا.. وصديقتى الشاعرة فى بيروت كتبت كتابة حَسَنة عن شعرى فى الجرائد البيروتيّة.. وأنا أطمع فى صداقة عميقة معها، فهى أمرأة نادرة.. ذات إحساس عميق وذكاء وإحساس.

أقرِئ السلام منّى على الأخ ضوّى ، وقل له إننى دائم السؤآل عنه

وعن أسرته. أبلغه هذا كلّ ما زرته.. وأنا شديد المشغولية به.

مَنْ يدرى ؟ قد أزور لندن خلال هذا العام.. أفكّر فى مراجعة السّفارات. يَسَّرَ اللهُ كلّ عَسير.. وسأكتب إليك إن شاء الله خطابا جيّدا متمهّلا.. ياحليلك !

أخوك المحب

المجذوب

لقاء المجذوب وروزماري في لندن

كان هذا آخر خطاب وصلنى من المجذوب قبل أن يصل هو شخصيّا إلى لندن. ويكشف الخطاب عن رقة قلبه وحُنوّه علي أصدقائه وزملائه، فقد أُصيب محاسب السفارة " حسين الضوّى " بمرض عضال أعجز الأطباء، وأودى فى النهاية بحياته، وقد جَزِعَ عليه المجذوب جزعا شديدا.

ومع أنّه قد طرأ علي الحياة الأدبيّة الكثير ممّا يشغل المجذوب، إلاّ أن الوضع العام للسودان كان يقلقه كثيرا. أما علي مستوى عذاباته الخاصّة، ونُزوعه إلى الأتصال بالعالم الخارجى ثقافيا حتى ولو بالمراسلة، فأن ظهور الكاتبة اللبنانية " كلثوم " فى الصورة لم يشغله حقيقة كما يدّعى،عن رغبته القوية فى استمرار العلاقة مع روزمارى التى بدا أمرها محيّرا للغاية.

فقد وصل المجذوب إلى لندن بعد هذا التاريخ بفترة قصيرة فى رحلة تفتيشية على السفارات، بعد اكتشاف بعض التّسيُّب فى أداء بعضها والأضطراب فى علاقة المحاسبين بالسّفراء من حيث الألتزام باللوائح.

وحينما أخبرت روزمارى بأن المجذوب قادم، انتفضت، وجعلت تَفْرُكُ يديها وهى تنحنى ثمّ تعتدل، وتسألني: ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟ وكيف سأتصرّف؟ صديقك هذا عنيف المشاعر، وأنا أخشى اللقاء به.

قلت لها : المهم هو إحساسك الحقيقى. هل تشعرين بالرغبة فى التعرّف عليه مباشرة ؟ قالت: نعم ، نعم ، بشِدَّة. ولكننى خائفة من عنفه، هل هو عنيف؟ إنّه قوى وجرئ فى خطاباتــه. قلت ضاحكا: إنتظرى حتى تلتقيا، فإذا وجدتـه عنيفا ،فسأكون أنا معكما بالطبع، وسأحميك منه!!.. ولأول مرّة تعترف لى قائلة: إنّك لا تعرف مدى تأثير هذا الرجل علىّ. هذا الرجل امتلك جوانحى، واستلب عقلى. لقد قتلنى. وأنا أخشى أن أركع أمامه حين ألقاه. أنّه يشبه القدّيسين، ولكن داخله بركان. صورته حلوة وهادئة، ولكن ابتسامته ساخرة. أنت قلت لى أن تعليمه كان بالسودان، ولكنه يبدو لى وكأنّه يحتوى العالم بين يديه. إنّه قوّة جارفة. ماذا أفعل ؟

والتقيا... كان لقاء عجيبا.. كأنّما عرف الواحد منهما الآخر دهرا.. وأضاع ملامحه... يتفرّسان فى وجهى بعضهما بعيون كأنها الأنامل.. الوجهان يختلجان ويكتسيان ألف لون وتعبير.. الشّفاه ترتعش.. والسلام بالأكُفّ الأربعة... وجلسنا. وبعد عبارات متعثّرة متلعثمة، وبينما كان المجذوب يُطْرِقُ ساهِما يبحث عن شيئ فى داخله، أقتربت منّى وهمست فى أُذنى: هل هذا الأنسان الحيي الخجول، هذا الحمل الوديع هو حقا كاتب تلك الخطابات القوية الكاسحة؟ لا بدّ أنّ هذا هو المسيح بعينه. سرعان ما اطمأنّت روزمارى للمجذوب، وسرعان ما طواها هو بابتسامته الحانية، وعِفّته الراقية، ورومانسيّته الدافئة، وتفوّقه على نفسه عند المِحكّ.

سألْته: أين تفضّل أن تذهب فى لندن؟ قال على الفور: الحدائق والمتاحف، وخرجنا. وفى اليوم التالى جاءت روزمارى إلى الموعد وقد تغيّر فيها شيئ بشكل حاسم. زالت مِسحة من الحزن اكتسى بها وجهها فى الفترة الأخيرة. فى عينيها بريق، و فى جبينها ابتسامة، وكتِفاها تتشابيان إلى أعلا تلاحقان جيدها الممشوق، كأنها تتقافز. وتصيح بى: هيا، هيا ! لنحتفل به بين الحدائق. هل

تعرف؟ أنا أعشق الطريقة التى ينظر بها إلى خضرة الحدائق، والطريقة التى يغوص بها داخل اللوحات فى المتاحف.

لم يعاتبها المجذوب على عدم الكتابة، لم يُشر من قريب أو بعيد إلى الخطابات وما كان فيها من حديث. تَلَبَّسَتْهُ حالة من الهدوء الجميل، وتقطّرت روحه عُذوبَةً. قلت فى نفسى: لا بدّ أنّ هذه الحالة هي " السلام ، والأمن " الذى أطال المجذوب الحديث عنه فى شعره، ولا بدّ أنها هي " الوطن " الذى ينشده، وتختفى معالمه وراء الضباب. ولقد كان المجذوب عفيفا جدّا، ومتحضّرا جدّا مع النساء. لا ينطلق إلاّ فى حدود، ولا ينسى نفسه أبدا ويتظاهر بالسكر كما يفعل البعض. والذين يعرفونه معرفة سطحية ويشاهدون طريقته فى المزاح وحديث المكاتب، يظنّون أنّه يَفْجُرُ حينما يخلو بامرأة ، أو يسهر مع الأصدقاء، ولكن ذلك بعيد عنه كلّ البعد. فهو فى هذه المواقف شديد التهذيب، عظيم الأدب، لا ينافِس ولا يُزاحم ولا يَتَنَطَّع.. ولا يكاد يخرج بشيئ سوى حلاوة الأُنس وجمال الصُّحبة.

وتمرّ أيام الزيارة، صعبة مرهقة جسمانيا بالنسبة لى - مع عمل السفارة المضنى - ، بين الحدائق والمتاحف، ولكن روح المجذوب تخفّف عنّى الألم.. وأكتم فى نفسى حيرتى ممّا يحدث حولى من تلاحُم روحى مخيف، الطرف الأكثر حِدَّةً فيه ليس المجذوب، صديقى الذى بَهَرَتْهُ مَقْدِراتُه فلم يستطع حراكا! وأنّما جاءت الحِدّة والأقدام هذه المرّة من روزمارى التى بدا لى أن ملامحها كانت تتغير مع مرور كلّ يوم نخرج فيه مع المجذوب، وتكتسب مسحة من الجديّة وكأنّها تحمل همّ اتّخاذ قرار مصيرى. ومع اقتراب موعد مغادرة المجذوب إلى واشنطن، كانت ملامح تلك الهموم تتجعّد أكثر فأكثر على وجهها. وقبل مغادرته بيوم سلّمتنى مظروفا كبيرا وقالت : أحتفظ بهذه، فأنا لا أدرى ماذا سيحدث. وحينما فتحته وجدت فيه خطابات المجذوب إليها. ظننت أن المسألة

متعلّقة بأوضاع علاقتها مع خطيبها، وظروف المنزل، فلم أعلّق. وفى نفس اليوم، بينما كنا نقف أمام دار الأوبرا فى كوفنت جاردن، علّق المجذوب بطريقة ساخرة على راقص الباليه الروسى الشهير نيرييف الذى هرب من الأتحاد السوفييتى إلى الغرب، فهمست روزمارى فى أذنى : هذا رجل ساحر.. إنّه عميق الفكر وفى نفس الوقت خفيف الدم.. لا أظن أننى سأتخلّى عنه! وبينما نحن نسير كانا ينفردان ويتهامسان كثيرا. من حركات المجذوب بيديه بدا لى وكأنّه يعتذر عن قبول شيئ ، أو أنّه ينصحها بعدم فعل شيئ. فجأة كانا ينفجران ضاحكين، ثم يعودان إلى الجدل. وهى تأتى بحركات تشبه حركات الأطفال حينما يصرّون على شيئ فيضربون الأرض بأرجلهم، وأرجلهم بأيديهم. أقتربت منّى وسألتنى عن عنوانه وتلفونه فى واشنطن. فأخبرتها أننى أعطيته رقم تلفون صديقتنا المشتركة كريستين لينكليتر، حفيدة الكاتب المشهور.

صباح يوم سفر المجذوب أتصلت بى روزمارى فى المكتب، وأصرّت على مقابلتى - وحدى - ساعة الغداء لأمر هام. التقينا فى حانة قريبة من السفارة وتناولنا بعض السندوتشات.

قالت : ما رأيك. سأرحل وراء صديقك إلى أمريكا ؟

قلت : ولكن إقامته هناك ستكون قصيرة.

قالت : لا ، لا. إنّك لا تفهم؛ لقد علمت منه أنّه سيعمل هناك. You see هو هارب من الجفاف فى حياته، وأنا نفس الشيئ وأن اختلفت الأسباب والظروف.

قلت : ربما، هو يتمنّى أن يجد مَهْرَبا.. ولكنّه يفضّل أن يكون ذلك المهرب فى علاقة فكرية وروحية مع إنسانة مثلك، لأنّه لا يستطيع أن يهجر السودان.

قالت: على كلّ حال أنا أتّصلت بزميلتنا السابقة فى الجامعة " سوزان ريدز " فى فيرجينيا وأخبرتها أننى قادمة إليها. وسأحاول إقناعه بالبقاء هناك.

سألتها: هل أخبَرتِهِ بنواياك وما تفكّرين فيه ؟

قالت : حاولت أن أخبره ، ولكنّه يضحك ولا يصدّقنى، ويقول لى: ماذا تجدين فىّ ، أنا لا أستحقّ كلّ ذلك.

قلت : يبدو أنّك هاربة من لندن. وهذا مفهوم عندى. ولكنى أخشى عليك من التعبيرات التى أراها فى وجهك. إلتفتت بسرعة إلى الناحية الأخرى وتمتمت : لا تقلق، لا تقلق. ثم هبّت قائمة وقالت: أنا ذاهبة.

قلت: لا ترتكبى حماقة.

ودّعتها وعدت إلى المكتب. بعد ساعات جاءنى المجذوب. كان الأنزعاج واضحا على وجهه. قلت : ماذا بك ؟ قال : ياخوى زولتك دى.. الحكاية شنو؟. قلت ضاحكا : ودّ أُمّي كَنينَة. تَحَسْبُوا لِعِبْ ! لم يضحك ، بل قال: أنا ماشى المطار، ودعتك الله. ورفض أن أوصله إلى المطار. كان وجهه مُحتقِنا بقلق واضح. قلق الذى لا يصدّق ما يحدث له ، فهو يريد أن يهرب قبل أن يصبح تَحقُّقُ أحلامه معضلة لا يعرف كيف يخرج منها . نزلتُ معه إلى باب السفارة فى مواجهة قصر سينت جيمس. ودّعنى واتّجه مسرعا إلى السيارة. قلت مازحا : ألا تريد حتّى أن تسلّم على الملكة الوالدة .. ها هى تطلّ من الشُّرفة. لم يضحك. دخل إلى السيارة ، ورفع يده مودّعا للمرّة الأخيرة وهو يقول : الحكاية شنو ؟

كانت روزمارى تتصل بى يوميا تسأل عن أخبار المجذوب، وتقول إنها أوشكت على السفر إلى أمريكا. ولم ينقطع اتّصالها إلاّ فى اليوم الذى مرّ فيه المجذوب بمطار هيثرو عائدا إلى السودان متوقّفا لبضع سويعات بعد زيارته القصيرة إلى واشنطن. سألنى عن روزمارى فقلت إنها تتصل يوميا، ولكنها لم تتصل اليوم، وذكرت أنّها ـ فيما يبدو ـ مسافرة إلى أمريكا. هزّ رأسه فى حيرة، وقال وهو يرتعش: الحكاية شنو؟

حينما عدت إلى المدينة من المطار علمت أنّ روزماري كانت في مطار هيثرو في طريقها إلى أمريكا في نفس اللحظات التي كان فيها المجذوب بالمطار عائدا إلى الخرطوم! وعجبت لمفارقات الأقدار.

بعد ذلك بشهرين أو أكثر قليلا، جاء دوري أنا في الذهاب إلى أمريكا ضمن وفد السودان إلى دورة الجمعية العامّة للأمم المتحدة. وهناك علمت من كرستين لينكليتر أن روزماري اتّصلت بها عدة مرّات وسألتها عن صديق لي أسمه غريب، وكانت مهتمة جدا، وكأنّها لم تصدّق كرستين حينما قالت لها إنّه لم يتّصل بها.

وفي السّفارة بواشطن قالوا لي أنّ فتاة غريبة الأطوار جاءت عدّة مرّات تسأل عن صديق لي اسمه " ماجزووب " ولم تصدّقهم حينما قالوا لها إنه عاد إلى السودان.

أمّا " سوزان ريدز " فقد وجدتها في حالة حيرة وحزن وقلق بالغ من أمر روزماري التي كانت تقيم معها. قالت سوزان أن روزماري تغيّرت كثيرا ، أصبحت مجذوبة إلى عالم آخر.. إنّها تبحث عن شيئ غامض، عن شخص غامض، عن عالم غامض.. وكأنّما أصابها مسٌّ من الأوهام والخُزُعْبُلات التي بدأت تزحف على عقول الشباب الأمريكان هذه الأيام فتجعلهم يتفاعلون ويتشاءمون بالناس والأشياء إلى درجة الجنون، بل يسلّمون مصائرهم إلى كُتُب التنجيم، و" فَتْح الكِتاب " الصيني. قلت لها : خبِّريني بالتفصيل، ماذا حدث لها، وأين هي؟

قالت : ما حدث لها ببساطة هو نوع من الرحيل إلى عالم آخر، حتى شِعرها الجميل الذي كان يعجبنا لم تعد تكتبه أو ترى فيه قيمة. ذهبت أناقتها التي تعرفها، وأصبحت لا تبالي ماذا تلبس. تَهَاوَى جسمها الرياضي الجميل ـ أتذكر كيف كانت تهزمك في لعب التنس ؟ .... وطار عقلي إلى أيام " هايجيت " في

شمال لندن، وتلك الفتاة الحَصينَة التى كانت تعلّمنى لعب التّنِس، والتى رضيتُ منها صداقتها بشروطها وهى: رَفْعُ الأيْدِى، وعدم الأقتراب عبر الحواجز.. تماما كلعب التّنس!

أضافت سُوزان: كانت تخرج كلّ يوم تبحث عن ذلك العالم الغامض، عن ذلك الرجل الغامض. وجدت لها عملا هنا، ولكنها لم تستطع التركيز فتركته. وذات ليلة سمعت همهمة فى غرفتها فذهبت إليها. وجدتها عارية تماما وقد جلست أمام المدفأة ورجلاها ممدودتان ومفتوحتان، وقد وضعت فوق ساقها اليسرى كتاب " النيل الأزرق " وفوق ساقها اليمنى كتاب " النيل الأبيض " ووضعت يديها أسفل بطنها، وقد استغرقت فى صلاة عميقة وهى تردد : كارتُوم.. كارتُوم.. كارتُوم. ناديتها صائحة : روزمارى! ماذا بكِ ؟ إلتفتت إلى وقالت: إننى أمارس المشى على شاطئ النيل الأزرق فى الخرطوم روحيا! وأضافت: أتعرفين ؟ سوف أبدأ المشى إلى هناك غدا. ثم قامت من صلاتها وارتدت ملابسها وجلست معى فى الصالة كأن لم يحدث شيئ، ولكنها كانت صامتة معظم الوقت. وحينما تتحدث كانت تقول: أتعرفين ؟ الحياة حلوة !

قالت سُوزان: فى اليوم التالى، عدت من العمل فلم أجدها فى المنزل. ظننت أنها خرجت كالعادة. دخلت غرفتها فوجدت ملابسها وحقيبة السفر على السرير، وأمام المدفأة وجدت جواز سفرها، ورخصة القيادة الأنجليزية، وعددا من بطاقاتها وأوراقها الشخصية مرصوصة فى نفس وضع رجليها عندما وجدتها تصلّى، وفى مكان جلستها وجدت حقيبة يدها. هالنى الأمر، ولكننى قررت الأنتظار، فما كان باليد حيلة. وطال انتظارى... لأنّ روزمارى لم تعد حتى هذه اللحظة. أبلغت البوليس، وسألت عنها فى لندن، ولكن لم نعثر لها على أثر.

كان ذلك آخر العهد بقصّة روزمارى الحزينة.

وبعد عودتى إلى لندن، لم يطُلْ بنا المقام حتى وقع انقلاب مايو، ودخلنا فى

حينما ذهبت إلى الخرطوم بعد ذلك، سألنى المجذوب عن أخبار روزمارى. قلت له إنّها هاجرتَ إلى أمريكا، ولم تعد تتصل بنا. لم أشأ أن أخبره بما حدث ، فأنا أعرف مدى تأثّره بمثل هذه الأشياء، وخشيت أن يتعذّب بالأحساس بالذنب فيما حدث لها. ولأنّ المسألة أصبحت حسّاسة لم أسأل المجذوب عن شيئ كان يشغل ذهنى دائما : ماذا كانت تقول له روزمارى فى تلك الليلة عند كوفنت جاردن فى تهامسهما وجدلهما خلال سيرنا الطويل ، قبل مغادرته لندن بيوم ؟ وماذا كانت تقترح بالضبط ؟. كلما قلته له مازحا هو : إذا كنتَ تحسِدُنى يا صديقى على تشبيه غادة السمّان لى بالصنّدل ، فماذا أفعل أنا وقد شبّهتك روزمارى بالمسيح ؟!

الرسائل ، بين العهد الديمقراطي والعهد الديكتاتوري*

جميع الرسائل السابقة كُتِبت خلال عهد الديمقراطيّة الثانية. فلمّا جاء العهد المايوى المظلم، ضاع إحساس الأدباء والمفكّرين بحقّهم فى إبداء رأيهم كتابة، حتى فى خطابات شخصية إلى الأصدقاء، حول شؤون بلادهم . وخلال عملى بعد ذلك فى لندن وباريس، كنت أحتفظ بالأحداث والتجارب فى ذاكرتى حتى ألقى المجذوب فى الأجازات. وقبل أن أنتقل إلى أحاديث لندن وباريس فى عهد مايو، أنشر الرسالة الوحيدة، والأخيرة ، التى تلقّيتها من المجذوب فى العهد المايوى بعد الرسالة السابقة باثنى عشر عاما. وفيها يظهر قتل الرّوح الذى عاناه الأدباء الصادقون تحت نير الدكتاتورية الجاهلة التى باع لها بعض المثقفين أرواحهم وعقولهم، طمعا فى مكاسب هى الفُتات والدّناءة والعِهْر السّياسي.



روزماری

وكان المجذوب أحد ضحايا سدنة نميرى اللاهثين وراء مصالحهم ومصالح سادتهم الدولية. لقد أصبح مغضوبا عليه لأنّه كتب إهداء ودودا على صدر ديوانه "الشّرَافَة.. والهِجْرَة " إلى صديقه، عدوّ النظام ، ومتحدّى وزير خارجيّته. فحرموه من تجديد خدمته بالحكومة، ورفضوا الأستجابة لنداءآت الشرفاء بمنحه منزلا تقديرا لعبقريّته الفذّة، وحاربوه فى كلّ مكان وكلّ مجال بتقارير وزير الخارجية وتوجيهه. ولم أرَ المجذوب يبصُق على ذِكر أسم أنسان، إلاّ على ذِكر اسم ذلك الوزير.

فألى الرسالة، التى أرسلها إلى وأنا بالقاهرة فى مهمّة بالجامعة العربيّة، وكان هو معنا بالقاهرة ثم عاد إلى الخرطوم قبل أن نعود :

الرسالة الثالثة والعشرون : الصمت ، تحت قمع الدكتاتورية،عن السودان وهمومه .

عزيزى شيخ العرب

سبحان الله! اتّصلت بك مرارا بالتلفون خلال فترات طويلات، وكان حاجبكم يصمت لحظات ويعود فيقول لى باختصار : مَرَقْ هَسَّع....

منعنى من زيارة الشريف عبدالله الحسن أمير الشرق وفاة شقيقى الأكبر فى مارس /٨٠، وذهابى إلى الدّامر ووفيات أخريات... وقد اعتزلتُ فلا أبرح دارى.

وصلتنى رُقْعَتُك، وتمنّيت أن لو وصلت قبل أيام. فصديقنا الشاعر الأديب السّفير السيّد عبدالله حمران سافر منقولا إلى صَنعاة [كَذَا] يوم الجمعة. مهما يكن من أمر، فأننى سأحاول الأتصال به، وأطلعه على رسالتك عسى أن يترك توصية أو شيئا من هذا القبيل. أعذرنى ـ أيّها السيّد ـ على الكتابة إليك بهذا القلم الرّصاص، إذ لم أجد القلم الذى أكتب به إلى السّراة الكرام، والورقة كما ترى.

هل سمعت بمرض صديقنا محمد عبدالحى.. ذهب إلى العلاج فى لندن يوم ٨٠/٧/٢٨ وكتبت إلى أخ لى فى السفارة أسأله عن علاجه وحالته داعيا له بالشفاء.

ـهذا ويسّر الله كل عسير، فأن رأيت الشريف عبدالله أمير الشرق ، فأبلغه أعذارى.

وبَقِيتَ لمحبّك.

محمد المهدى مجذوب / ٢٠/ ٨/ ٨٠

سأتصل بك لأخبرك بما يكون / تلفونى ٧٢٢٨٥ المكتب.

سلامة أصبعك. هل ضربت به ريّافيّا قَلَماً عربيّا. وليكن فى علمكم، إننى برئ من عرب الشرق (ع...) ، (ح...) ، (أ...) الخ.. هذا ال... ، ومُنحاز تماما إلى المغاربة رضى الله عنهم وأرضاهم

---

* فى هذا الخطاب إشارة إلى شيئ لا أذكره يتعلّق بسفير اليمن فى الخرطوم وهو فى الغالب مادّة علمية طلبت من المجذوب الأتصال بالسفير للحصول عليها.

* الشريف عبدالله المشار إليه هو السفير/ الوزير عبدالله الحسن الخضر الذى عيّنه نميرى حاكما للأقليم الشرقى ثم عَزَلَه بعد أسبوع لأنّه ـ كما قيل لنميرى ـ نعاه من الميكروفون. وكان عبدالله هوالوحيد من بين وزراء نميرى الذى يهتم بالمجذوب ويسعى جاهدا لمساعدته. وقد استعنت به أكثر من مرّة لأعادة توظيف المجذوب الذى خرج فى المعاش ولم يكن يملك قوت يومه، فكان يبذل جهدا خارقا لأنقاذ الموقف. ولكن مجهوداته كانت تصتدم بتآمر منصور خالد وحقده على المجذوب، ممّا جعل سّنوات ما بعد المعاش من حياة المجذوب عذابا حياتيا متّصلا. وكان عبدالله هوالوحيد الذى كتب رثاء للمجذوب فى

الصحف من طُغمة نميرى. وقد استغلّ منصور خالد مرحلة الطمع والثّرَة فى عقل حاكم البلاد التى زرعها هو وخليل عثمان داخله، واستكانة نميرى، لدعاواه بجلب دولارات الأمريكان ، فمارس القهر والتسلّط ، وقرر أستتابة المجذوب وإذلاله، وأجبره على تغيير صيغة إهداء ديوانه "الشرافة والهجرة "، بعد أن رفض المجذوب إلغاء الأهداء تماما، كما طلبوا منه، حتى لو أدّى ذلك إلى عدم إصدار الدّيوان. ولكنّ تلك الأستتابة هزّت أعماق المجذوب، وحطّمت أنسجة إحساسه الرقيق، وكانت نقطة الهزيمة فى قناعاته، وبؤرة العذاب فى ذاكرته حتّى فارق الحياة.

* وتشير الرسالة إلى تاريخ مهم هو مرض الشاعر الرقيق محمد عبدالحى وسفره إلى لندن للعلاج.

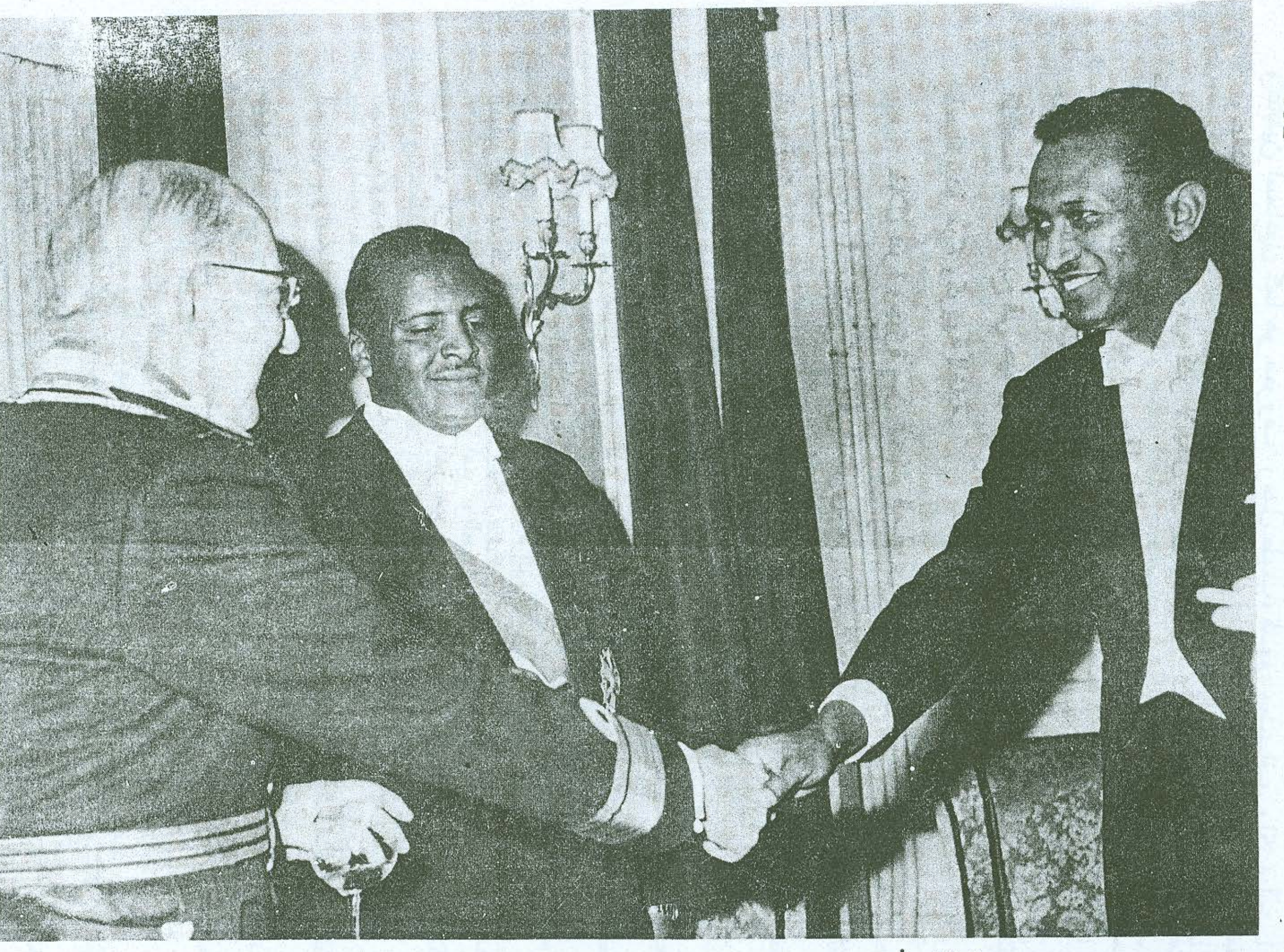
أحاديث الأجازات ما بين لندن.. وباريس.. والخرطوم.

إنقطعت الرسائل مع قيام الدكتاتوريّة. وأصبحت الفرصة الوحيدة لتبادل المعلومات والتعليقات هىعند عودتى إلى الخرطوم فى الأجازة. وكم كان عسيرا على الأنسان أن يبتلع فكرة حلول الخوف محلّ الطمأنينة، والخنوع محلّ حقّ الأعتراض، وصَمْتَ الأنطواء على الحقيقة مكان الجهر بها فى وجه الحاكم.

شهدت السفارة فى لندن إنقلابا فى كلّ شيئ؛ ذهب سر الختم الخليفة الوادع الهادئ ، وجاء عابدين أسماعيل الصاخب عالى الصوت. أُنزِلت صور رأس الدولة - مجلس السيادة - بوجوهها السّمحة ، وعُلِّقت صور ضبّاط الأنقلاب بكابات رؤوسهم المُقنطرة كالقرون، وبَرْدَلُوباتِهم التى تبدو كجلود بقر الجفاف الهالكة، ووجوههم الكالحة الناشفة قبل أن يتنعّموا بالسّلطة وأموال الشعب.

أمّا من حيث العقلية وأسلوب العمل فقد ذهبت تقاليد الدبلوماسيين وطريقة تفكيرهم، وحلّت محلّها مناورات المحامين وأحقاد القضاة وألاعيب الهُواة وعُنْجهيّة العسكر. فقد سيطر على مصير وزارة الخارجية كَكُل، وسفارة لندن بالذات ثلاثة "أفوكاتو" - ليست لهم أيّة علاقة بالعمل الدبلوماسى هم: بابكر عوض الله وفاروق أبوعيسى وعابدين أسماعيل، ففعلوا فيها البِدَعْ، بل فعلوا فيها وتَركوا كما يقول المجذوب!

وزاد الطين بِلّة شعور الملحق العسكرى، بأنّه أصبح " الحاكم العسكرى بلندن " خاصة بعد أن وصله خطاب من السودان يحمل فى عنوانه من الخارج هذه الصّفة، وقد أصبح هذا الخطاب نكتة الموسم فى الأوساط السودانية بلندن؛ حتى " عثمان سفارة " - الحارس الأبدى - فطس من الضحك!. وما زال الصديق الشاعر سيدأحمد الحاردلّو يذكر لى بعض عبارات التعليق على تلك الحال الغريبة مثل : السفارة بقت حاجة بَلَدى خالص. و..الله لَىْ من السُفرا البيكُوركُو ديل. وقد أضطررت مرّة إلى فضّ تشابك بالأيدى فى مكتب السفير!



صور :

١ـ مع اللورد تشيمبرلين والسفير سرّالختم الخليفة قبيل مقابلة الملكة اليزابيث

وعابدين أسماعيل كما هو معروف رجل طيبٌ، شـهم، مِضيـاف. ولكنـه أيضـا رجل غير منضبط وفيه قدر لا بأس به من السّبَهْلَلِيَّة. وقد أرادوا أن يبعـدوه عن المطالبة بوزارة فقذفوا به إلى سفارة لندن ، فأصابها ! وكان فاروق أبوعيسـى – وزير الدولة للخارجية - يحضر أحيانا لزيارة أستاذه وصديقه عابدين ف " يكمّـل النّاقصة "، ونصبح فى حيص بيص.أمّا حينمـا يحضـر خـالد حسـن عبّـاس، فـأنّ الحياة تبدو مُرّة وكريهة للغاية.

خلال فترة وجيزة مـن الحكـم المـايوى وقعـت فـى لنـدن أحـداث مـن قـادة النظام الجديد أسقطتهم تماما فى نظرى. من ذلك أنّ النمـيرى طلـب مـن الأتحـاد السـوفييتى تحديـد موعـد لوزيـر دفـاع النظـام خـالد عبـاس للقيـام بزيـارة رسـمية لموسكو لأجراء مفاوضات هامّة، فوافقوا وحدّدوا الموعد. فأذا بنا نفاجأ بوصـول وفد وزير الدفاع إلى لندن للأنتظار حتى يحلّ موعد التوجّه إلى موسكو.

نزلوا فى منزل السفير الذى يحمل أسم السودان ومهابته، ولـم يكـن أحـد منّا يتجرأ على فتحه واستخدامه لأى سبب مهما يكن فى غياب السفير، ولـم يكـن السفير الجديد قد وصل بعد، نزلوا به وحولّوه إلى كرخانه. هتكوا حُرمته، أدخلوا فيه العاهرات، وعلت من داخله المزامير والصيحات فانزعج ذلـك الحـى اللندنـى الهادئ، وجحظت عيون سُكّانه. وقد رأيت شخصيّا السكرتير المـالى لذلـك الوفـد المريب - واسمه صدّيق حمد - وهو يفتح حقيبة ضخمة مليئة بالدولارات يصـرف منها على نزوات وزير الدّفاع بلا مبالاة، فعجبت وأنـا الـذى تمسّكت قبـل أشـهر فقط بالقوانين واللوائح، ورفضت تسليم وُفُورات العـلاج مـن المبـالغ المخصصـّة للمرضـى مـن كبـار السـودانيين الذيـن يحضـرون للعـلاج فـى لنـدن، إلـى أولئـك المرضى بعد شفائهم، وطـالبتهم – بمـن فيهم عمّـى نـاظر الشـكريّة محمـد أحمـد أبوسن وعِزّت أبوالعلا - بالعودة إلـى السـودان لاسـتلام بـاقى أموالهـم لأنّـه غير مسموح لهم بـأن يحملـوا أمـوالا لا يتمّ تحويلهـا لهـم من بنـك السـودان لغـرض

منصوص عليه بقرار من الدّولة. وبالنّسبة لوفد وزير الدفاع، وكل الوفود الحكومية، فالمفروض أن تحوّل مخصّصاتهم عن طريق السفارة في لندن وموسكو.

والحادثة الثانية كانت حينما أطلق أعضاء مجلس قيادة الثورة نسائهم للتسوّق في لندن. ذات يوم بائس، اتّصل بي مستر جرين - مسئوول قسم السودان بوزارة الخارجية البريطانية - وقال لي أن مسز(...) حرم عضو رأس الدولة في السودان مقبوض عليها الآن في قسم شرطة في وسط لندن لأنّها ضبطت متلبّسة بسرقة ملابس من محلاّت ماركس آند سبنس. وسألني: ماذا تريدنا أن نفعل؟ قلت له: أوّلا، أرجوك أطلقوا سراحها فورا، وهذا طلب رسمي. وثانيا أرجو عدم إبلاغ سفارتكم بالخرطوم بهذا الحادث، وعدم السماح بخروجه إلى أجهزة الأعلام من طرفكم، وأرجوك كزميل دبلوماسي أن تترك لي كيفية الطريقة التي سأبلغ بها حكومتي حول هذا الموضوع، وهذا - بالطبع - طلب غير رسمي. قال لي: لا بأس. سأفعل ذلك. سأطلق سراحها، ولن نعلن الخبر. أضفتُ: لي رجاء آخر. قال: ماذا ؟ قلت: لا تتصل بأحد في سفارتنا حول هذا الموضوع. أقتله! قال: أعدِك. ولقد وعد ووفى.

مضت على هذه الواقعة الآن ثمانية وعشرون عاما، كنت خلالها أحد الضحايا والمظاليم لنظام نميري. ولكنني لم أبُحْ بسرٍّ هذه الواقعة لأحد، ولا أنوي أن أبوح. ولست صديقا لتلك الأسرة. وبالطبع لم أخطر " حكومتي" المفضوحة أصلا.

والحقيقة أن تلك الطّغمة من ضباط القيادة في " مايو" كانت طغمة عجبا في استهتارها. وقد قال لي " زينكو " مرّة، في جلسة مع علي دنقلا: لولا أن الشعب السوداني شعب ملعون لكان الله قد أسقطنا منذ زمان بعيد. نحن أحطّ وأفسد ضباط في الجيش، ولكن الله نفسه غاضب على الشعب السوداني، لأنّه شعب

منافق . فقال له علي دنقلا: المشكلة إنّو النـاس كـانوا بيرفعوا أيديهم بالدُّعـا لـي ربَّنا، وإنتو خلّيتوهم دى الوقتى يرفعوا رِجليهم، ما ممكن ربَّنا يستجيب!

أمّا بالنسبة لزيارة وزير الدفاع إلى موسكو فقد ألغت الحكومـة السـوفيتية الزيارة بعد أن تأكّدت أن المخابرات الغربيـة لا بدّ أن تكون قد أخترقت الوفد أثناء عربدته فى لندن. وعندما أعتذر وزير الدفاع السوفيتي بأنه مشـغول، ثـارت ثائرة نظام مايو ووجّهوا احتجاجا شديد اللهجة إلى الأتحاد السوفيتي! وعلّـق أحد الزملاء على هذا الأحتجاج بأنّه جريئ ، فقـال لـه المجذوب: هنـاك خيط رفيع يَفْصِل ما بين الجرأة والصّفاقة.

خـلال سنة ١٩٧٠، وبعد تكرار المصادمات بينـى وبين رجال النظـام الجديد أدركت أنّه لم يعد لى مقام فى سفارتنا بلنـدن. طلبت النّقل، وبالرغم من إلحاح عبدالله الحسن ـ الـذى تقرر إرساله سفيرا إلـى لنـدن ـ علـىَّ بـأن أبقـى، رفضت البقاء بها، بل ـ لأوّل وآخر مرّة فـى حيـاتى، كرهـت لنـدن مـن صميم قلبى. وجاء الفرج بنقلى إلى باريس.

ومن الغريب أن السبب الرئيسى فى الخلاف بينى وبين عابدين أسـماعيل، كان رسالة أعددتها ــ باسمه ـ لتنشر فـى جريـدة " التـايمز " اللندنيـة، ردّا علـى تقرير نشَرَته عن أحوال جنوب السودان، فهـالنى أن أكتشف ضعف معرفتـه بالأنجليزيـة حينمـا أصرّ علـى تصحيح بعض العبارات بأخطـاء كـانت ستفسـد الرسالة. لم آخذ إصراره على الخطأ مأخذ الجد، واعتبرتها هفوة عابرة لا بدّ أنّـه سيعود عنها، وأرسلت الرّسالة كما كتبتها ونشرتها التايمز، وعلّقـت عليهـا إحدى الصّحف السودانية بعنوان عريض : "عابدين يَتَجَلّى". ولكن عـابدين أعطـى أذنـه لجلساء السوء، فغضـب لأننـى " تحدّيتـه " ولـم أنشـر الأخطـاء، مـع أن أصدقـاءه أكّدوا له أن " تصحيحاته " كانت أخطاء.

وبهذه التجربة، عظُمت فى ذهنى الفجوة بين ما كنت فيه من صحبة جمال

محمد أحمد، وسر الختم الخليفة، وكلاهما عليم بأسرار الأنجليزية، وبين ما أصبحت فيه. وحينما يتعلّق الأمر باللغة ، فأنني أفقد تماما مقدرتي على المجاملة، وهي أصلا مقدرة محدودة ! وجاءت المشكلة اللغوية مع عابدين بعد فوضى الأدارة، وفساد عسكر مايو، بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، فقررت أن أرحل هاربا بعقلي.

آخر عمل في لندن : إنقاذ حياة عثمان وقيع الله !

كان آخر عمل قمت به في لندن هو خير الأعمال. فقد شاءت الأقدار وحدها أن أكون موجودا في منزلي حين حدث ما حدث. والطريف في الأمر أن الفنان الكبير ربما لم يعرف هذه القصة، أو ربما لم يعرف الشخص الذي أنقذ حياته حتى الآن، لسبب غريب آخر هو أنني لم ألتق عثمان منذ ذلك التاريخ حتى هذه اللحظة!

كانت الساعة حوالي الحادية عشر مساء بعد يوم مرهق كالعادة، حين رنّ جرس التلفون في شقتي. كانت المتحدثة فتاة أنجليزية، زميلة بالBBC . كانت مضطربة، وفي حالة من الهلع. قالت لي : لا أعرف أحدا غيرك ألجأ إليه، أن عثمان وقيع الله يموت في العيادة الخارجية بالمستشفى، والأطباء يرفضون علاجه لعدم وجود أوراق رسمية معه وجواز سفره بالمنزل، وهو فاقد الوعي. أرجوك ألحقني لتنقذه، وإذا لم تحضر حالا فسيكون الوقت متأخرا، ولن يعيش.

أخذت منها عنوان المستشفى، وارتديت ملابسي وأنا أكاد أموت من التعب، وهرعت إلى المستشفى. كان عثمان على نقّالة، على الأرض، فاقدا الوعي، ومنظره يقول أنّه في المراحل الأخيرة من الأحتضار. كان منظرا غريبا لم أتوقّعه في المستشفيات البريطانية. المستشفى في حالة طوارئ وهرج وزحمة بسبب بعض الحوادث. تملّكتني ثورة عارمة فاقتحمت حجرات الأطباء مبرزا بطاقتي الدبلوماسية، وأنا أهدد وأتوعّد بأن السفارة سوف تشكو الى أعلا مستوى

وسوف تفضحهم فى الصحف إذا لم يتحركوا فورا لأنقاذ أبـن عمّى الـذى يمـوت بالأهمال. أصيب الأطباء بالدهشة من ثورتى معتذريـن بحالـة الطـوارئ، ولكنّهـم تحرّكوا بسـرعة، وأدخلـوه إلـى العنايـة المركّزة. منعونـى أنـا من الدخـول معـه ولكنّهم سمحوا لصديقته بعد أن قلنا لهم إنّها زوجته. وسهرتُ بالخارج حتى قـالوا لى أن حالته مستقرّة. وفى اليوم التالى إتصلتْ بى صديقته، وأبلغتنى أنـه يتحسّن ولكنّه ما زال كالأموات. طلبتْ منها أن تبلغه تحياتى حينما يتحسّن، وأننى أغـادر لندن غدا صباحا.

آخر المشاعر فى لندن.

سودانيّة نادرة... تقلب المفاهيم والمواصفات !

حملت إلىّ سنوات أقامتى الثانية فى لندن مفاجأة لم تكن فى الحسـبان. فقـد انتقلت إلى لندن سودانيّة نادرة ما إن رأيتها حتّى عرفت أنّ البعد عنهـا هـو خـير ما يفعله العاقل بنفسه! كانت من ذلك العِرْق الفريد الذى تخصّصت أجيـال قديمـة من الصعايدة فى إنتاجه بالسودان. تنظر إليها فتشعر بملمـس نعومـة بشـرتها فـى عينيك ، تتحـدّث إليهـا فتشـعر بنعومـة روحهـا فـى أحشـائك، تنظـر إليـك فتشـعر بنعومة حالك فى أوصالك، تتحدّث إليـك فتتـذوّق حديثهـا بلسـانك. صبّهـا الخـالق صبًّا فى قالب نظر إليه، ثمّ كسره إعجابا به. إذا كانت الأنوثة الكاملة ممكنـة فقد تجسّدت فيها، وسالت منها كأنهار النار من البراكين.

لم يكن تكاثف كلّ تلك الصّفـات فيهـا كافيـا لجذب اهتمـامى بمـا يدعـو إلـى القلق، فصفاتها ـ بشكل أو آخر ـ متفرّقة بدرجات مختلفة فـى تجـاربى الأوربية. والبيئة المحيطة بها لم تكن توحى باحتمال وجود مشاركة فكريّة أو وجدانيّة بينـى وبينها، فاتخذت موقف الدّفاع ضدّ النزوات لحساسية الموقف. ثـمّ كـانت المفاجـأة حينما وجدت مَخْبَرَها يختلف تماما عن مظهرها. تحدّثتْ إلـىّ بشـغف شـديد عـن

الشعر وعن الرّواية وعن الأدب. وعرفتُ ـ لا أدرى من أين ـ أنّ هذا هو همّى، وأطلعتنى بعد ذلك على محاولاتها فى كتابة القصّة.

كانت من أسرة طيّبة، محاطة باليسر والنعيم، وبنظرات المعجبين، وبكلّ غال وثمين. ومع ذلك كانت من أتعس خلق الله! فقد فرضت عليها الأقدار صحبة تختلف عنها اختلاف الأضداد. كانت ناقدة بصيرة بعيوب النّاس. والنّاقد البصير، حينما يكون فنّانـا، تتمزّق أحشاؤه لأفتقاد ما يبتغيه من جمال الحياة وتكافؤ العلاقات..كانت مشتعلة الذكاء، ليس فى نهر إحساسها مجرى واحد يمكن أن يوصف بأنّه هادئ..كلّ مشاعرها وأحاسيسها شبقة عارمة، ومع ذلك ليس بينها إحساس واحد لا يرتكز على بصيرة وعقيدة وتحليل. تعرف معنى المشاعر الجارفة منبعاً وتدفّقًا ومصبّات، وخلال سكرتها الوجوديّة، تتملّك الكون وتفنى فيه جذباً وبوحاً وتتبنك بهمهمات صوفيّة أنّها فى حالة وعى برزخى بالكينونة! ومع كلّ ذلك، كانت سودانية لحما ودما، يتهفهف الثوب عليها كفقاعات الماء الملسوعة.

كان من المستحيل أن أسعى أنا إلى اكتشافها فالموقف لا يحتمل. وكان مدهشا لى أنّ ظمأ روحها ترك موارده المشرئبّة إليه، واتّجه إلى مراسىّ وشطآنى البعيدة... فكان ينهل منها ويروى ظمأ عزوبتى الثانية.

علاقة تحكمها التقاليد السودانية فى لندن؟ يا له من عذاب. ولكنّ نزوع الأرواح إلى بعضها يقهر الصعاب، ويتحدّى المخاوف. كان كلّ موعد معها يشبه التخطيط لمعركة عسكرية فاصلة. وكان كلّ لقاء معها اندهاشا عقليّا وروحيّا متجدّدا. حينما تلقانى كانت تخرج من حالة الأستعراض التى فهمتُ معها لماذا قالت عائشة بنت طلحة ـ أجمل جميلات العرب ـ لزوجها مصعب بن الزبير عندما عاتبها على كشف وجهها فى الطريق: تحدّثاً بنعمة الله: وأمّا بنعمة ربّك فحدّث، وقال عنها أبوهريرة: كأنّها جِنيِّة! كانت تقول لى: أنت تثير غيرة الرّجال

بمجرّد وجودك، وذلك يحرمنى من الأقتراب منك.

حينما نلتقى كانت تحدثنى دون توقّف عن أحاسيسها الفنيّة والجماليّة فى مختلف مناحى الحياة، وكأنّها فى سباق مع الوقت، ثمّ تنظر إلىّ وتنتحب بمرارة وتقول: أنا بتكلّم معاك من غير توقّف لأنّى عارفة إنّى ما حأتكلّم فى الحاجات دى ولا بالطريقة دى تانى لحدّ ما أشوفك المرّة الجاية كمان. كانت كلمة " كمان " هذه تخرج من شفتيها مموسقة بطريقة تشبه تجربة الوتر الثالث للكمان فى صمت قاعة " ألبرت هول".

كنّا ندخل فى أنواع من المجازفات والمغامرات، ونرتكب ألوانا من الحماقات فى سبيل أن نلتقى، ليس لها تصنيف إلاّ الجنون. وقد ظلّت وفيّة لهذه الصداقة بعد أن افترقنا عبر الأقطار والقارات.

وتترامى إلىّ أخبارها من حين إلى حين.. قيل إنّها أصبحت " غريبة الأطوار" ... ولكنّهم لا يفهمونها... كانت دائما "غريبة " على من أحاطها القدر بهم.. كانت فنّانة يتفجّر الفن فى عروقها، ولكن جمالها الآسطورى وأنوثتها الطاغية ظلماها، وظلمتها نظراتها وبريق عينيها الذى يرتجّ له أقوى الأقوياء.

دخلت باريس على أجنحة الصّبابة والشوق إليها، يطير بي أملٌ واثق بأنني سأجد فيها الخلاص من العفَن الذى اكتنف أجواء لندن بعد الغزوة المايوية. دخلتها وأنا أردد قول أبي الطيب :

وما صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ على أمَلٍ   مِن اللّقاءِ.. كمُشتاقٍ بِلا أمَلِ

وما زال سيد أحمد الحاردلو يذكر لي قولي له، وأنا أودّعه : ستقع أحداث جسام في هذه السفارة، أحمد الله على أنني لن أحضرها. وقد عاش سيداحمد وعدد من الزملاء الدبلوماسيين، مأزق وجود بابكر النور وفاروق حمدالله في لندن عند وقوع انقلاب هاشم العطا بعد ذلك بفترة قصيرة، وعانوا الأمرّين من تقلُّبات وانقلابات عسكر مايو.

كانت تجربتي في باريس ثرّة وممتعة. لو لم أعِشْ في باريس، وأتعرّف على الشعب الفرنسي عن قرب، ولو أنحصرت معرفتي بالثقافة الغربية على النافذة الأنجليزية فقط، لكانت خسارتي كبيرة جدّا بهذا الفقد. صحيح أنني زرت باريس قبل ذلك لأرى متحف اللوفر، وسافرت إلى إقليم الألزاس واللورين، ولكنّها كانت إجازة عابرة. وبعد أن قضيت أوطاري من العلاقة مع الأنجليز ولغتهم أصبحت فرنسا ولغتها حلما وهاجسا.

ومنذ الوهلة الأولى أرتاحت نفسي للفرنسيين. وكان المجذوب يستمع إليّ بارتياح شديد وأنا أقول له أن الفرنسيين هم أمّة وسَط في أوروبا، ففرنسا ليست دولة صناعية فقط، إنّها دولة زراعية من الطراز الأول، ومجتمع الصناعيين والعمّال، يعطي مجتمع المزارعين والفلاّحين حقّه في الثروة والسلطة والأحترام الأجتماعي. والأنسان الفرنسي في المدينة هو أنسان وسط؛ لا هو متزمّت تزمّت الأنجليز والألمان، ولا هو مسترخ على روحه استرخاء الأيطاليين والأسبان.

وأول ما لفت نظرى فى باريس أن الفرنسيين يلقون بتذاكر المترو على أرض المحطة التى تكتسى بلون التذاكر الأصفر حتى يكنسها الكنّاسون الذين لا يرفعون أيديهم عن طرقات باريس. فشعرت أنّ فى هذا التصرّف الغريب على تجربتى الأنجليزية نوعا من الأسترخاء المقبول لأنّهم لا يمارسون عملية ألقاء التذاكر على الأرض إلاّ داخل محطّات المترو تحت الأرض. والفرنسيون يتناولون كلّ شيئ من زاوية ثقافية ، ولذا فهم مولعون بالمناقشة والحوار.

وتذرع شوارع باريس، فتعاودك ذكرى قراءآت قديمة مماً كان يكتبه الأدباء المصريون أمثال توفيق الحكيم وعشرات غيره حول شوارعها وميادينها ومقاهيها وحدائقها. فها هو بولوفار سان جيرمان، وها هو بولوفار سان ميشيل، وها هى الكافيه دى لا بيه، وها هى جامعة السوربون، ومونتماتر، وبيجال، والشانزليزيه، وقوس النصر، وبرج إيفل... أماكن قرأنا عنها عشرات المرّات، وتتبّعنا فيها بالخيال تجارب وانفعالات أولئك الروّاد من الكتاب والأدباء، وتفجُّرعواطفهم وانفلاتات شبابهم. كنت أسير فى تلك البولوفارات الواسعة كالمسحور، أمشى بالساعات دون أن أشعر بالتعب، وفى داخلى يتعالى رنين تلك القراءآت القديمة وصور كتّابها، وما يضفونه عليها فى كتاباتهم من سحر. واكتشفت المتاحف الأخرى - غير اللوفر - مثل الجراند باليه، والبيتى باليه ، والأورانجيرى، والجو دى لا بوم...الخ.

ومنذ الوهلة الأولى أيضا آليت على نفسى أن أقطع صلتى باللغة الأنجليزية تماما، فلا أقرأ الصحف الأنجليزية، ولا أتحدثها إلاّ مضطرا. كانت لى تجربة عابرة مع الفرنسية فى جامعة الخرطوم فى أول عهدنا بالخارجية، جعلتها أساس أنطلاقى الكاسح نحو تعلُّمها فى موطنها، والزمت نفسى ما لا يلزم فى سبيل ذلك. ففى الأسبوع الأول لوصولى أنتسبت إلى مدرسة الأليانس فرانسيز المسائية، فكنت أخرج من السفارة بعد أنتهاء ساعات العمل فى الخامسة والنصف

أو السادسة، واتّجه إلى المدرسة. وكنت أقرأ الصحف الفرنسية بالقاموس، وأقضى ساعات ما قبل النوم أستمع الى الفرنسية فى التلفزيون، ثم أنام على "وغوغتها " فى الراديو.

سألنى المجذوب مرة أن أعقد له مقارنة بين لندن وباريس، وبين الأنجليز والفرنسيين. فقلت له أن الأنجليز جسّدوا إحساسهم بالعظَمة فى شخصياتهم القيادية، حيث تَجد كبار القادة السياسيين والعسكريين يتحوّلون إلى شخصيات عملاقة مهيبة، لا يستطيع الناس العاديون الأقتراب منها فى حياتهم، ثم يتحولون إلى شخصيّات أسطورية بعد مماتهم. أمّا الفرنسيون فأنّهم يميلون إلى تجسيد إحساسهم بالعظمة فى تجميل باريس وحَقْنِها كلّ عام بمنشأة عملاقة تضيف إلى عظمتها وجلالها وجمالها، حتى صارت بحق أجمل مدينة يمكن أن يعيش فيها الأنسان. أمّا المقارنة بين لندن وباريس فهى غير واردة أصلا! فلندن بالنّهار - مقارنة مع باريس - مدينة ريفية مزدحمة، ولندن بالليل - مقارنة مع باريس - قرية مُعْتِمَة.

والقصور الضخمة كالقلاع وسط المروج المَخْمَلِيّة فى بريطانيا العظمى ما زالت هى سكن اللوردات والأباطرة الذين حكموا الهند والسّند "وبلاد تركب الأفيال"، كالتعبير المصرى. أمّا الشاتوهات والقصور والقلاع وسط المروج المُوَشّاة بنمنمات عناقيد العنب فى فرنسا، فقد تحولّت إلى مراكز ضخمة لأنتاج البوجوليه، والبوردو، والشمبانيا، والكونياك، وغيرها من المشروبات والأنبذة الفرنسية الرّفيعة.

وبيوت لندن ليس فيها بلكونات، وفى بيوت باريس البلكونات ملكوت للديكور والتجميل. والمائدة عند الفرنسيين مجال للأبداع اللامتناهى، والأكل عندهم طاعمٌ، أشتات، كفنّ الحديث. أمّا عند الأنجليز فالمائدة هى عُدّة الأكل، وكيفية الجلوس، ووضع الفوطة على الصّدر، وكيفيّة المضغ مع قفل الشّفاه،

والبراعة فى التقطيع بالسكّين. امّا الطعام نفسه فمسيخ ومحفوظ، ومعظم الناس يـأكلون صنفا واحدا كل يوم هو السمك بالبطاطس. أذكر نكتة كان يتبادلها الأفارقة تقول: أن إنجليزيا رأى إفريقيا يَكُدّ ويُقَرْمِش عظم الخروف على المائدة فقال له : إذا كنتم فى إفريقيا تـأكلون العظام بهذه الطريقة، فماذا تأكل الكلاب عندكم؟ فردّ الأفريقى على الفور : **Fish & chips** .

والفرنسيون عفويون، يميلون إلى المُجابهة والبجاحة فى القول بالكلمات الخارجة. وليس غريبا أن ترى فرنسيا حسن الهندام محترم المنظر، يغيظه شخص فى الشارع فيلتفت إليه ويتلفّظ بـأقذع الألفاظ، ويأتى بحركات تهريجية بيديه، ثمّ يعود ويستأنف مشيته المحترمة!

ولكنّ أهم ملاحظة لفتت نظرى فى الفوارق ما بين الأنجليز والألمان من جهة، والفرنسيين والأيطاليين من جهة أخرى، هى أننى وجدت الأجابة على سؤآل طالما حيّرنى وهو: لماذا أنهزم الفرنسيون بسرعة خاطفة فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهم ليسوا أقلّ تقدّما من ألمانيا وبريطانيا، وهم أحفاد نابليون ؟ والأجابة التى خرجت بها من تأمّلى للطريقة الفرنسية فى الحياة هى أن الفرنسيين والأيطاليين وصلوا إلى درجة متقدمة ـ أكثر بكثير ـ فى فهمهم لقيمة الحضارة وإحساسهم بها من الأنجليز والألمان وشعوب شمال أوروبا عموما. أنهم يفهمون الحضارة الحديثة والتقدّم التكنولوجى على أنها وسيلة للأستمتاع بلذائذ الحياة ومُشْتَهَياتِها فى هدوء وسلام ودعة. وهم، من ناحية أخرى، يَصُبُّون عُصارة عقولهم وحواسّهم الفنيّة فى تجميل مدنهم وتطييب طعامهم وشرابهم وهندامهم. ونتيجة لهذه الحالة العقلية فأن الحرب أصبحت عندهم ـ وكذلك الطليان ـ عملا همجيّا لا معنى له ولا يمكن أن يتحمّس له الأنسان أو يجد فيه متعة ولذّة، والأنتصار العسكرى فقد عندهم معناه النابليونى، وأصبح نزوة طائشة. ثمّ إنّ باريس أغلى وأحلى وأعظم من أن يسمح الأنسان بأدارة معركة

عسكرية فيها، أو حتى بالقرب منها. الأمر المنطقى، إذن، هو أنّه إذا فشل الدفاع عنها من على البعد فلا بدّ من تسليمها للغزاة دون تعريضها للدمار. وهذا بالضبط ما فعله الفرنسيون بعد انهيار خطّ " ماجينو " فى الحرب العالمية الثانية، وقبل ذلك فى الحرب الأولى. أمّا الشعوب البريطانية والألمانية، فبالرغم من تطوّرها التكنولوجى، وبالرغم من وجود عباقرة الأدب والموسيقى بين ظهرانيها، إلاّ أن أحساسها بالحضارة لم يصل إلى مستوى الرفض العقلى والوجدانى القاطع للعنف والدمار، وما زال الأنتصار العسكرى ـ بمعناه الكلاسيكى ـ يشكّل عندها مصدرا للتلذّذ والأستمتاع. وقد ظهر شاهد على ذلك فى السنوات الأخيرة حينما هجم روّاد كرة القدم الأنجليز فى بلجيكا على مدرّجات الأيطاليين وضربوهم وطردوهم منها ثم أعلنوا " أحتلالهم لتلك الأرض " فى بيان شبه عسكرى، مما أدّى إلى انهيار جانب من الملعب وموت عدد كبير من الأيطاليين. ويلفت النظر أن شعوب اسكندينافيا فى شمال أوروبا ليست كذلك، فقد وصلتها الحضارة فى عهود أسبق عبر احتكاكها بشعوب الشرق الآسيوى وروسيا.

وقد لفت نظرى التشابه فى التخطيط والمبانى بين باريس وواشنطن، وعلمت أن المهندس الذى خطط واشنطن كان فرنسيا، فتعمّد تشتيهها بباريس. وفى أمريكا سمات فرنسية كثيرة، والرّوح متشابهة.

ولئن أطلت وقوفى عند باريس فلأننى أحببت العيش فيها. ولولا حسد الحاسدين لأطلت المقام بها. خاصة وأن علاقتى بالفرنسية قد أنجبت. فقد كنت محظوظا فى توقيت وصولى الذى صادف عرضا سخيّا قدّمه " جان دى ليبكوفسكى " وزير الدولة للخارجية، عمدة " رُوَايون " إلى السفارات بتقديم منحة دراسية لمندوب واحد من كلّ سفارة للدراسة بمعهد تعليم الفرنسية الحديث بتلك المدينة. كانت تجربة رُوايون ممتازة فى ناحيتين ؛ اللغة وفواكه البحر !

فلأول مرة رأيت معملا لغويا متكاملا يعمل بالصوت والصورة وأجهزة

التسجيل متعددة الأغراض، ويقوم على فكرة تَعَلُّم الكلام وأدارة الحوار وليس على الكتابة أو القراءة. كان بالمعهد عدد من الدبلوماسيين من مختلف السفارات وغيرهم، وبالمعهد قسم لتعليم الأنجليزية للفرنسيين. وتقع روايون على الشاطئ الجنوبى الغربى لفرنسا على بعد خمس ساعات بالسيارة من باريس، وهى بهذا قريبة من مناطق الصيد الجيّدة فى الأطلنطى، وبها كميات هائلة من صيد البحر بمختلف أنواعه التى يفتتن بها الفرنسيون أيّما افتتان، ويسمّونها " فواكه البحر "، وهى أشياء يصعب على السودانى مجرّد الأقتراب منها، أو النظر إليها دعك عن الأمساك بها وتحريكها نحو فمه. وبعد تردد كثير أقبلت عليها ولم أكَدْ.. فقد أعجبتنى وسحرتنى منذ تلك الأيام وحتى الآن.

وقد نظّموا لنا زيارة لأقليم "كونياك " فى مقاطعة " بوردو "، حيث القلاع الشاهقة التى أصبحت كل واحدة منها كَوثَرا تتدفق منه أنهار من الشراب المسمّى باسم الأقليم، وعرضوا علينا من أنتاج القرون أصنافا لا يستطيع الأقتراب منها إلاّ " الجرَارِق ". أذكر أننى خرجت من تلك الزيارة بصداع قاتل لأنهم " شمَمُوا " كلّ واحد من الدبلوماسيين كأسا من زجاجة كان مِزاجها ثمانين عاما تَعْتِيقَا، تكفى رائحتها فقط لتشقّ الرأس! ولأنّه ليست لى تجربة " سودانية " فى الشراب، فقد تأذّيت كثيرا من تلك الزيارة، بالرغم من استمتاعى بالمكان، وطريقة تعتيق الكونياك.. ومنظر البراميل الخشبيَّة العملاقة التى تحفظ آلاف اللّترات من نَسْلِ حدائق بابلْ المُعَلَّقَة، وأعناب إِشْبِيلِيَّة المروّقة، وكأنّها أرحام القرون. وتذكرت أبانواس وهو يطلب من صاحبيه - إذا مات - أن يدفِناه بين الأعناب فى مزارع الكروم بِقُرْطُبَّل ، وليس وسط حقول القمح، لعلّه، فى قبره، يسمع ضجّة أرجُل العاملين فى صنْعِها :

خَلِيلَىَّ إن مِتُّ لا تجعلا — مقامىَ إلاّ بِقُرْطُبَّلِ
أقيما لى القبر بين الكُروم — ولا تُدْنِيانى من السُّنبُلِ

لَعَلِّىَ أسمعُ فى حُفــــرَتِى إذا عُصِرَتْ...ضَجَّةالأرْجُلِ

فقد كانوا فى عصره يعصرونها بأرجُلِهم، وذلك أمر هائل، كما يقول المجذوب .

وفـى روايـون جمعتنـى الظـروف بمذيعـة التلفزيـون الفرنسـية المعروفــة "دونيس جلاسير Denise Glaser التى كانت تقضى عطلة الصيف هنـاك. وقـد انعقدت بيننا أواصر صداقة ستكشـف لـى، بعـد ذلـك، عـن جوانـب فـى شـخصية كاتب صحيفة " لوموند "، الفرنسى، المصرى، اليهودى المعروف: إريـك رولـو، صديق مرشَّح الرئاسـة الفرنسـى، فرانسـوا ميـتراند، المهتـم بالشـئون السـودانية، والذى عيَّنه ميتراند سفيرا فى تونس ثمّ سفيرا متجوّلا طوال فـترة رئاسـته. أظـنّ أن جلاسير وثّقت علاقتها معى لحرصها على التحدّث بالأنجليزية،

وقد عرّفتنى على عجوز فرنسية خفيفة الدم مولعة بالنّكـات والطرائـف. حكت لى تلك العجوز نكتة عن كاترين دى بواتييـه، عشـيقة لويـس الثـالث عشـر التى كانت تقيم معه فى قصره بمدينة بواتييه، وهى المدينة التى احتلّها العرب فى زحفهم شمالا من الأندلس، قالت: خرجت كاترين دى بواتييه فى يوم صيـف حـار إلى المروج المحيطة بالقصر فى مكان هادئ، واستلقت علـى بطنهـا تـأخذ حمّـام شمس، عارية تماما. فأقبلمن فرسان الملك ورأى المنظر. ظنّ الفـارس أنّهـا فتـاة ريفية انتهزت فرصة الهدوء ، فنزل مـن حصانـه واقـترب منهـا دون أن تشـعر، وصفعها على صُلبها بكفّه صفعة شديدة. هبّـت كـاترين مذعـورة وسـترت نفسـها وجرت نحو القصر، ولكن الفارس عرفها وعرفته.

وخاف الفارس أن تخبر كاترين عشيقها الملك فيقتله، فذهـب إلـى القصـر، وأرسل إليها ورقة كتب عليها :

Madame ,

si votre coer est ausi dur que votre queue , je sui fouettue .

مدام

إذا كان قلبك بقسوة وصلابة صُلْبِك ، فقد انتهت حياتى .

وبعد برهة جاءه الرد منها :

chevallier ,

si votre queue est ausi dur que votre main , repassaez demain.

آيها الفارس ،

إذا كان (ذيلك) بقسوة وصلابة كفّك ، فَعُدْ غداً !

وأضافت العجوز الظريفة: لا بدّ أن هذا الفارس كان من بقايا أجـدادك العرب! ولا يظهر لطف هذه النّكتة حينما تترجم، بنفس لطفها فى الفرنسـية لأنّهـا تعتمد على التلاعب بالألفاظ، وفيها سجع فرنسى الرّنين.

قضيت حوالى ستّة أسابيع فى روايون، عدت بعدها إلـى بـاريس ودخلـت فـى دوامـة الأحـداث فـى السـودان وفـى العـالم العربـى. فــى السـودان تكشـفت الصراعات بين عسكر مايو، وفى العالم العربى بدأ الصراع بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وتوالت الأحداث لتقـع " مجـزرة يوليـو الأسـود " فـى عمـان التى أوقفها عبدالناصر بالدعوة إلى مؤتمر قمّة عربيـة. وقـد لعـب جعفـر نمـيرى دورا إيجابيا مشرّفا للسودان فى تلك الأحداث وكان متجاوبا مـع عبدالنـاصر فـى فهـم الخطــر الــذى يمثّلــه الصــراع العربــى ـــ العربــى بعــد الهزيمــة.

رحيل عبدالناصر

فـى حوالـى السـاعة العاشـرة مـن مسـاء ١٩٧٠/٩/٢٨، أذاع التلفزيـون الفرنسى نبأ رحيل جمال عبدالناصر. أذكر أن أول ردّ فعل منّى كـان هـو قولـى، وكأنّه يسمعنى: أشكرك، أشكرك.. لقد رحلت ولم تتنازل عن حقوقنـا وكرامتنـا.. أشكرك.. فسوف يبقى صمـودك حتـى النهايـة نبْراسـا يضيـى طريـق المسـتقبل.. أشكرك..الآن فقط أصبح فى تاريخنا الحديث، بطـل لـم يَخُـن شـعبه ولـم يتنـازل تحت ضغوط الأجانب حتى النهاية.. أشكرك !

كان معى زملاء أمريكيون من كلية الأليانس فرانسيز، سمعونى أحدّثُ نفسى بهـذا الكـلام، ووجمـوا مـن هـول الأنفعـال الـذى رأوه علـى وجهـى فاسـتأذنوا وانصـرفوا. وقضيت بقية ليلتى، وليالى أخرى كثيرة لا أستطيع تصديق رحيله. لم ينقذنى من تلك الحالة إلاّ فكـرة خطـرت لـى بـأن أرسـم لوحـة تمثّـل عبدالنـاصر شامخا فوق موكب جنازته. وأسميت تلك اللوحة ـ وهى بمقاس 150 \ 100سم. (عودة ناصر). ذلك أن موت عبدالناصر كان فعـلا بمثابـة عـودة لـه إلـى قلـوب الناس كافة. فبموته أنتهت الخلافات حوله، وخرج النـاس فـى كـلّ البـلاد العربيـة يعبّرون عن حبّهم له، وسار خلف نعشه ستة ملايين أنسان.

استغرق رسـم تلـك اللوحـة عـدة أسـابيع، وبعـد أن فرغـت منهـا زارنـى بعـض الأصدقاء ومعهم فتاة من السويد أخـذت تنظـر إلـى اللوحـة باهتمـام وتركـيز. ثـم دمعت عيناها وقالت لى : أنا لاأعرف من هو هذا الشخص الـذى صـوّرت موتـه فى هذه اللوحة ولا ما يعنيه بالنسـبة لـك، ولكنّك وضعـت فيهـا مـن الأحـزان مـا يجعل أىّ إنسان ينظر إليها يشعر بالرغبة فى البكـاء. وقـد أراحتنـى هـذه العبـارة وكأنّى كنت أبحث عن شاهد على حزنى على عبدالناصر.

انقلاب هاشم العطا

وتتوالى الأحداث الكبرى علينا ونحن في باريس. في شهر يونيو ١٩٧١ وصل إلى باريس فاروق حمدالله ، أول وزير داخلية لنظام مايو، وكان قد أبتعد عن السلطة أو أُبعِد عنها. وطلب اليّ السفير صلاح هاشم أن أستضيفه في منزلى نسبة لأنه لا يملك تكاليف الفندق، وخشى السفير أن يستضيفه حتى لا يغضب عليه النميرى، فرحّبت بالفكرة ولم أكن أعرف فاروق شخصيا ولا سلمت عليه في حياتى، فقد رفضت فكرة زيارة قادة الأنقلاب أو إجراء أي اتّصال بهم حينما استدعانى بابكر عوض الله وعرض علىّ تولّى منصب وكيل وزارة الشباب، وانتهت المسألة بعدم الأتفاق وعودتى إلى السفارة بلندن.

أقام معى فاروق حمدالله ثلاثة أو أربعة أيام لم نتحدّث خلالها في السياسة إطلاقا. بل لم نتحدّث في أي موضوع إلاّ حديثا عابرا. كان شخصا هادئا مهذّبا. وأظنّه لم يفاتحنى في السياسة لسببين؛ الأول أنه كان ينطوى على سرّ الأنقلاب القادم، والثانى عدم الرغبة في إحراجى بالكلام ضدّ الحكومة التى أمثّلها رسميا. أما من ناحيتى فقد تعمّدت عدم الكلام معه في السياسة لأنّه كان مُصنّفا في ذهنى كواحد من معسكر الأعداء الذين استغلوا مواطن الضعف في شخصية بابكر عوض الله، فأبعدوه عن معسكره ، بل جعلوه يتنكّر لمجموعته وينقاد كالأعمى لقرينه المكلّف بقيادته، ذلك الشيطان الملائكى البارع فاروق أبوعيسى، كما أوضحت تفصيلا من قبل.

أتّفاقيّة أديس أبابا

حينما كنت قائما بالأعمال في باريس بدأت الأتصالات بين نميرى وجوزيف قرنق للوصول إلى سلام في الجنوب بوساطة قويّة من مجلس الكنائس العالمى في جنيف. وكانت السفارة في باريس تغطّى سويسرا. فكنت أتولّى نقل الرسائل، وبعضها كان شفهيّا ، من مجلس الكنائس إلى الخرطوم وبالعكس. ومن

طرائف ما وقع لى فى هذه الأتصالات، أنّه ـ بعد الأتفاق على كلّ شيئ حول الأجتماع المزمع فى أديس أبابا ـ اتّصل بى الأب..... الذى كان يدير الأتّصالات وقال لى: هناك رسالة صغيرة ولكنّها محرجة أرجو أن تبلّغها للجانب الحكومى. قلت: خير! قال: يطلب جوزيف لاقو أن لا يحاول الوفد الحكومى مصافحة وفد حركته بالأيدى أو الأحضان السودانية عند الدّخول إلى قاعة الأجتماعات!. ضحكتُ ، فضحك هو، وأضاف: آسف، ولكنّى لا أملك الأمتناع عن إبلاغ طلباتهم. قلت : حاضر، سأبلغ حكومتى. أحسست بأننى أريد أن أفعل ما يفعله يوسف مختار بعد كلّ مكالمة لا تعجبه. كان يَشُدُّ قبضة يده ويرسلها نحو التلفون بقوّة وكأنّه يوجّه له لكمة قاضية!

مأساة محمد ميرغنى ... تجربة دبلوماسية فريدة.

كان محمد ميرغنى صحفيا نشطا من شباب الخرطوم الأكثر انتشارا وحركة فى المجتمع. وكان شديد الحرص على الألتحاق بعمل فى المؤسسات الدّولية. وقد التحق بالأمم المتّحدة وأصبح مسئولا إعلاميا عنها فى القاهرة. ويبدو أن شيئا مّا قد وقع فى حياته أدّى إلى تدهور حالته النّفسية بصورة أحزنت أصدقاءه وزملاءه. كانت هولاندا أيضا تابعة للسفارة بباريس.

وذات يوم تلقّيت مكالمة من مدير سجن أمستردام. هالنى الأمر وتملّكنى العجب! لماذا يطلب مدير سجن فى أمستردام الحديث إلى سفير السودان فى باريس؟! قال مدير السّجن : عندنا مواطن سودانى يريد التحدّث إليك. وجاء صوت محمد ميرغنى ليبلغنى أنّ الهولنديين لم يحترموا جواز سفر الأمم المتّحدة وأنّهم اعتقلوه بلا ذنب فى المطار، وتحدّث كثيرا وبحدّة شديدة. طلبت الحديث مرّة أخرى إلى مدير السّجن وأبلغته بأن السفارة تطالب بأحسن معاملة للمواطن السودانى المهم مهما كانت التّهمة. ثم طلبت منه أخطارى بالتهمة فعلمت منه أنّ محمد ميرغنى كان يحاول أخراج أشياء ممنوعة من أمستردام، لم يشرح طبيعتها

واظنّها كانت قطعا أثريّة أو لوحات نادرة، فطلبت منه أن يتوقّع تدخّلا من جانبنا على المستوى الدبلوماسى، وأن يتعاون معنا فى هذه القضيّة. بعد ذلك طلبت سفير هولاندا فى باريس وأخبرته بالقصّة وقلت له أن المقبوض عليه شخصية مهمّة فى السودان وأنّ سجنه فى هولاندا سيؤثّر سلبا على العلاقات الطيّبة بين البلدين، ورجوته أن يتدخّل باسم زمالتنا الباريسية لأطلاق سراحه. وعدنى أن يبحث الأمر، وبعد ذلك تطوّرت الأمور بشكل غير مألوف فى العمل الدبلوماسى. كنت أتّصل يوميا بسجن أمستردام وبالسفير الهولندى فى باريس الذى تعاطف جدّا مع استغاثتى به. طلب منّى السفير الهولندى فى باريس أن أتوقّع تطوّرا مهمّا فى قضيّة محمد ميرغنى الذى كان قد حوكم وأدخل السّجن فعلا ليقضى عقوبة سنتين أو ثلاث.

وفى اليوم التّالى اتّصل بى السفير وأبلغنى بأغرب خطّة تعاون دبلوماسى من دولة أوربية نحو دولة إفريقية نامية. قال لى أنّ إدارة السّجن وافقت على منح السّجين محمد ميرغنى يوما إجازة فى نهاية الأسبوع الحالى. وطلب منّى تجهيز وثيقة سفر اضطرارية له للعودة إلى السودان، وأنّه - السفير - سيتولّى إرسالها إلى السّلطات فى أمستردام لأنّهم سحبوا جواز سفره لأعادته للأمم المتّحدة، وأضاف أنّ علىّ أن أتّصل بالسّجين السودانى وأخطره بأنّه سيخرج من السجن ويهرب إلى السودان، وأن تذكرة سفره على الKLM ستكون فى انتظاره بالمطار!!

غمرنى التّعجّب والأستغراب، بل والشّكّ والظّنون، ولكن ليس هناك وقت. أتّصلت بمحمد ميرغنى وأنا فَرِحٌ سعيد بأمكانية خروجه، فأذا به يقول لى: أنا أرفض أن أعود إلى السودان. أريد أن أذهب إلى كندا أو نيويورك. شرحت له أن وثائق السّفر الأضطرارية لا تسمح لحاملها بالسفر إلى بلد غير موطنه. رفض بشدّة . قلت له : أمامك خياران: السودان أو السّجن. والقرار لك. وقد

نجح الحزم حين فشل اللّين، فسافر محمد ميرغنى عائدا إلى السودان. وبعد فشل انقلاب هاشم العطا وركوب منصور خالد ظهر الخارجية، وبعد عودتى إلى الخرطوم، شكانى محمد ميرغنى - بأيعاز من منصور - وطلب محاسبتى على التقصير فى أنقاذه وعلى رفضى مساعدته فى السفر إلى أمريكا !!. وكانت الأمم المتّحدة قد فصلته من الخدمة بعد تلك الحادثة. فارسل إلىّ منصور الشكوى طالبا (أكسبلانيشن) فاضطررت إلى كشف المستور فى قضيّة محمد ميرغنى فى ردّى على الأستجواب ممّا أسكت منصور وجعل أجهزة نميرى ومن كانوا وراء الأستجواب يعضّون أصبع النّدم على فتح الموضوع.

أصدار كتاب بالفرنسية عن الجنوب.

من تجاربى التى فرحت بها كثيرا فى باريس تجربة استخدام أمكانيات مكتب الجامعة العربية هناك لخدمة القضايا العربية بطريقة فعّالة فى مجال الأعلام. كان مدير المكتب مصريا بارعا ومثقّفا قوميّا عظيما أسمه عادل عامر. وكان قد نجح فى إقناع الأمانة العامّة للجامعة بتزويد المكتب بالأجهزة الحديثة للطباعة والنّشر. ومرّة أخرى استخدمت خبرتى فى الBBC ومعرفتى إلى حدّ مّا بتلك الأجهزة ، وأدرك هو أننا نتحرّك على نفس الموجة فقرّر أن يمنحنى أمكانياته كلّها لتنفيذ مشروعى الذى اقترحته بأخراج كتاب عن مشكلة جنوب السودان بالفرنسية لمواجهة الدّعاية المضادّة .

وكان " أبل ألير " هو المفكّر الذى اخترت أن أستعين بفكره لأناقشه وأعرضه على العقل الأوروبى المسيحى. كتبت - بمعاونة سكرتيرتى الفرنسية البارعة كتيّبا صغيرا مثل أصدرارت وزارة الأعلام السودانية مع بعض البيانات والصّور ووقفت بنفسى مع الفنّيين بين ماكينات "ألأوفست "، وأخرجت كتابا رسم غلافه محمد بدوى، ووزّعته على كلّ السّفارات



وداعا لندن



أهلا باريس

والصحف والمكتبات ودور الثقافة والأعلام فى باريس وخارجها. ونجح الكتاب لأنّه كان مدعوما بتطوّر إيجابى قام به النّميرى هو أتّفاقيّة أديس أبابا .

ظاهرة... إسمها : منصور خالد !

غادرنا فاروق حمدالله إلى لندن للعلاج كما قال. وفى يوم ١٩ يوليو ١٩٧١ جاءت أخبار أنقلاب هاشم العطا وتعيين بابكر النور رئيسا لمجلس رأس الدولة وفاروق حمدالله عضوا بالمجلس وكان كلاهما فى لندن. ومع وقوع الأنقلاب ظهر في سفارتنا منصور خالد الذى نُقِلَ من منصبه كمندوب للسودان فى الأمم المتحدة ، وأصبح "طائرا " لا يعرف ما ذا سيكون مصيره مع ضباط "مايو " الذين أصبحوا يعاملونه بتشكك وريبة. ونشأ فى السفارة وضع غريب. فقد أصبحت أنا ضدّ الأنقلاب الجديد لأنه أعلن عداءه للقومية العربية وحاصر سفارتى مصر وليبيا، ثم لأن بابكر النور قرر البقاء فى لندن وعقد مؤتمر صحفى فى السفارة ليس له معنى ولا هدف، بدلا عن الذهاب فورا إلى أرض الوطن الجريح، بينما أصبح منصور خالد، سفير نميرى، متحمّسا جدا للأنقلاب وقاد معه السفير فى باريس صلاح هاشم الذى فاجأنى بقوله أنّ ناس نميرى أولاد (خ....)!

وقد بلغ بى الغيظ مداه من تصرّفات بابكر النور وإصراره على "الأستعراض" فى لندن بعد النكوص عن أداء واجب المغادرة الفوريّة إلى بلاده الممزّقة المضطربة، إلى درجة أننى فكّرت جدّيا فى السفر إلى لندن وحضور المؤتمر الصحفى وإدانة بابكر وتوبيخهه على تقاعسه ولجوئه إلى هذه الحركة الأستعراضية - المؤتمر الصحفى - ثم إعلان استقالتى من خدمة حكومته. ولكننى لم أفعل لأدراكى أن مثل هذا العمل لا يَصُبُّ إلاّ فى مصلحة الأنقلابيين الأوائل.أما منصور خالد، فقد تحركت فيه كلّ حواسّه الأنتهازية فشحذ إمكانياته

الهائلة وأدوات سحره الباتِعْ الذى ـ وأشهد على ذلك ـ لا يستطيع مقاومته إلاّ أُلُو العزم !

أخذ منصور يتّصل بفاروق حمدالله مرات عديدة كلّ يوم من مكتب السفير. وقد كنت معهما أثناء الأتّصالات أسمع وأعجب. ومع الألحاح، أصبح فاروق يتهرّب من اتّصالات منصور " ويلطعه " على التلفون فترات طويلة، ظَنًّا منه أن مثل هذه الأهانات الصغيرة تردع شهيّة منصور الذى يلبس لأهدافه جِلْدَ التّماسيح، وينطلق إليها غير عابئ بترّهات الحساسية وأوهام الكرامة الشخصيّة! وفى أحد الأتِّصالات سمعت منصور يسأل فاروق : عملت شنو فى الحكاية اللى قلت ليك عليها ؟ وجاء الردّ سلبيا، فيقول منصور مُسْتَنْزِفا الفُرَص كالعادة : حاتّصل بيك تانى. ويعلّق صلاح هاشم: هلا هلا! السلطة حلوة. أن عملية استنزاف الفرص هى سياسة بعض الناس فى هذه الحياة، وهى تعنى استنزاف وقت وصبر واحتمال الآخرين حتى يستسلموا. ولله فى خلقه شئوون! أما بالنسبة لمنصور خالد، فأنّه يضيف إلى ذلك استنزاف " تلفونات " الآخرين .أنت عندك تلفون دولى ،أنت تضمن صداقته أثناء وجوده حيث توجد أنت. منصور مصاب باثنين من أمراض العصر الحديث : التلفون وخطوط الطيران. لقد توقف منصور عن القراءة منذ سنوات فهو يكتفى بالأرشيف الكامل الذى يعدّه له بكفاءة " حسين سيد احمد " ـ أبرع الأداريين فى وزارة الخارجية ـ لتأليف كتبه ، ويقضى باقى وقته فى قراءة مجلّدات خطوط الطيران التى تقدّم البدائل المختلفة لمسارات الطيران العالمى، ويلعب عليها لعبة " اللّودو"، والشطرنج، ويجد متعة هائلة فى أن يثبت لمساعديه ـ بعد ساعتين من البحث ـ أنّ أقرب مسار " يجب " أن يحجزوا له عليه للوصول من لندن إلى الخرطوم هو عن طريق واشنطن! أما باقى الوقت فهو يقضيه فى المكالمات التلفونية. وفى هذا المجال فأن منصور يصيبه هبوط فى الضغط إذا لم يتحادث يوميا مع كلّ القارّات قبل أن يقدّم تقاريره

اليومية.

ولا بدّ أن أقول أن منصور خالد هو الظاهرة السودانية التى جعلتنى ـ أكثر من أيّة ظاهرة أخرى ـ أتوقّف، وأعود إلى نفسى لأختبر دوافعى الحقيقية من وراء العمل السياسى؛ هل هى لخدمة السودان.. أم لعلّ وراء عقلى مطامح شخصية لا يريد أن يفصح عنها الآن ؟ لأن منصور خالد هو أكثر سودانى تهيّأت له الفرص لكى يخدم بلاده، فلم يخدم إلاّ نفسه والدول التى ينتمى إليها قلبه وتتحقق عندها مصالحه.

المهم.. ظلّ منصور على اتّصال وثيق بفاروق حمدالله حتى آخر لحظة من يوم ٢٢/يوليو/٧١. ولكن، مع وصول أنباء فشل الأنقلاب وعودة نميرى تحولت اتّصالات منصور فورا إلى الخرطوم، كما أجرى اتّصالات مكثّفة مع إحدى السفارات الكبرى فى العاصمة الفرنسية، أكّد على أثرها أن نميرى سيتلقّى دعما من الدول الكبرى ضدّ الشيوعيين.

أما تعليقه لصلاح هاشم عن صديقه فاروق حمدالله الذى اعتقله القذافى ليسلمه إلى مقصلة نميرى، فقد كان: يروح فى داهية! وقد عقد منصور اجتماعا أخيرا مع بعض الأجهزة الغربية بعد أن اكتمل تنسيق موقفه مع نميرى الذى أسكره الغضب والخوف، عاد بعده إلى السفارة وقال لى: أحجزوا لى فى أول طائرة إلى الخرطوم. قلت له: كيف تهبط الطائرات والمطار مقفول ؟ قال لى بلهجة القوى الواثق: يفتحوه يا أخى! وفعلا فتح نميرى مطار الخرطوم لتهبط فيه أول طائرة منذ الأنقلاب، طائرة منصور خالد.

ذهب منصور إلى الخرطوم ليقف شاهدا على المذبحة البشعة التى ارتكبها نميرى ضدّ المدنيين من أنصار الأنقلاب. ومرّة أخرى انقلبت المشاعر عندى وعنده رأسا على عقب؛ فبالرغم من اعتراضى على سياسة عبدالخالق محجوب وبيانات ما أسموه " السلطة الوطنية " وحماقة استعداء مصر وليبيا، إل

أن قتل عبدالخالق والشفيع وجوزيف قرنق أثار فى قلبى مـن الأحـزان والسـخط ما جعلنى أكره العمل فى السفارة ومع حكومة السودان.

بعد أن شارك فى المذبحة، عاد منصور إلى باريس عـودة مريبـة اجتمـع خلالها مع بعض الأجهزة الغربية. ولفت نظرى أن الصحفى الفرنسى ـ المصرى ـ اليهودى : إريك رولو، كان دائما فى مركز اتّصالات منصور، ممـا أوحـى لـى بقوّة بأنه جزء من أدوات التنسيق للأجهزة الأمريكية فى باريس.

قبل عودة منصور إلى باريس حدثت بعض التطوّرات :

فقد نظّم الحزب الشيوعى الفرنسى مظاهرة كبرى فى ميدان الجمهوريـة، للأحتجاج على قتل عبدالخالق محجوب. وما زلت أذكر صورة عبدالخالق ـ وهـو يُساق إلى ساحة الأعدام ـ التى نصبوها فى الميدان بحجم سبعة أمتار، وقـد لبـس الجلاّبية واكتسى وجهه بذلك التعبير الرّجولى، الهادئ، الواثق، المبهر، وقد كتبوا فوقها بحروف ضخمة : **هكذا يموت الشيوعيون**، فكان رمزا لأجمل وأعظـم مـا فى السودان والسودانيين من معانى. وقـد تجولـت وسـط ذلـك الحشـد الهـائل مـن الفرنسيين ـ حوالى مئة ألف شخص ـ ، وشعرت بالفخر، لأننى لـم أشـهد بـاريس تحتفى باسم شخص أجنبى قط بتلك الصورة وبذلك الحجم.

وبعد يومين من تلك المظاهرة ، زار السفارة وفـد مـن أعضـاء البرلمـان الفرنسى ـ الجمعية الوطنية ــ وكنـت قائمـا بالأعمـال، وقدّمـوا إلـى وثيقـة طولهـا حوالى مترين تضـمّ آلاف التوقيعـات مـن أعضـاء الجمعيـة الوطنيـة والمواطنيـن الفرنسيين تشـجب جريمـة قتـل عبدالخـالق محجـوب والشـفيع وجوزيــف قرنــق وغيرهم، موجّهة إلى جعفر نميرى، وطلبوا أرسالها إلى حكومة السودان. تسلّمت الوثيقـة وودّعتهـم. وحينمـا عـاد صـلاح هاشـم، الـذى لحـق بمنصـور خـالد فــى الخرطوم لاجتماع السفراء، وقع خلاف حاد بينى من ناحية، وهو ويوسف مختار ـ السكرتير الثانى ـ من ناحيـة أخـرى حـول أرسـال الوثيقـة إلـى الخرطـوم. كـان

رأيى أن مهمّتنا كسفارة هى أن نرسل تلك الوثيقة إلى حكومة بلادنا بغضّ التظر عمّا إذا كانت تتفق مع سياسة تلك الحكومة أم لا، طالما أنّها جاءت من جهة رسمية فى البلد الذى نمثّل بلادنا لديه. وكان رأى صلاح هاشم ويوسف مختار أن هذا يعتبر عملا عدائيا ضد حكومة بلادنا، وينبغى عدم إرساله إلى الخرطوم. حاولت إقناعهما بأن حكومة الخرطوم يجب أن تعلم بما يحدث سواء كان معها أو ضدّها، فاتّصلا بمنصور خالد الذى أيّدهما فى قتل الوثيقة وإعدامها، ونصحهما بحرقها.. فأحرقوها!

كانت سفارات المعسكر الأشتراكى تتصل بنا يوميا للأستفسار عن مصير عبدالخالق محجوب ورفاقه ،وتستنكر إعدامهم، وتريد أن تعرف ما يجرى فى السودان . وقررت أن أمدّها بكلّ ما لدى من معلومات وتحليل للموقف المقرف. اتّصل بى السكرتير الأول للسفارة السوفيتية، وطلب مقابلتى، فرحّبت به. قال لى بعد الزيارة : أريد تحليلا ومتابعة لما يجرى فى السودان، ولا أستطيع أن أحضر إلى سفارتكم كلّ يوم. هل يمكن أن نتغدّى معا غدا فى مكان آمِن ؟ قلت : بكلّ سرور، وأنا أيضا أريدكم أن تعرفوا حقيقة ما يجرى، وأنه فوضى وظلم لا يقبله الشعب السودانى. والتقينا فى مطعم متواضع أكثر من مرّة. كنت أعرف أن مثل هذا اللقاء لا بدّ أن يكون مرصودا من أجهزة المخابرات الأمريكية، فهم يتابعون السوفييت أينما ذهبوا، وكان كلّ ما فى عقلى ووجدانى يقول: طُظْ!

بعد الأعدامات، تَلَبَّسَتنى حالة من الضيق واليأس عرفت معها أن علاقتى بنظام نميرى، والعمل الحكومى فى ظلّه لن تطول. وعجزت تماما عن العمل الرسمى، لأنّ العمل الرسمى أصبح هو التطبيل للمذبحة وأدانة من أيّدوها ممّن نكَّل بهم نميرى بعد عودته. طلبت إجازتى ولم أذهب إلى السودان. قررت أن أبتعد عن كلّ الناس لأتأمّل ما يجرى فى بلادى من تطورات غريبة عليها تماما. فلأول مرة فى تاريخنا الحديث شهدت بلادنا الأغتيال السياسى والسَّحل وشنق

الموتى. كانت الرحلة إلى الريفييرا الفرنسية هدفا من أهداف أيام الصفاء. ولكننى توجّهت إليها وحيدا، وقد رفضت مناشدة أصدقائى الذين سبق أن وعدتهم بالقيام برحلة مشتركة، وقررت أن لا أكلّم أحدا . فقد انتابنى كُره شديد للناس ويأس وقنوط من مصير الأنسانية.

أخذت سيارتى الخاصة وتوجّهت جنوبا فى طريق ال Auto route du sud إلى ليون ومنها إلى طريق جبلى وعر حتى " نيس" . أذكر أننى قضيت أسبوعا كاملا لم أكلم فيه إنسانا غير جرسونات المطاعم والمقاهى حين آكل أو أشرب. كنت أقضى وقتى على البلاجات لا أتحدث ولا أحاول خلق علاقات وإنّما كنت أكتب خواطرى، وقد ملأت كراسة كاملة ضمّنتها مشاعرى حول ما حدث فى السودان، وهى الآن بعيدة عن منالى، فى الخرطوم.

قضيت شهرا فى الريفييرا لم أستقر أثناءه فى مدينة أو قرية أكثر من يومين، ولم أخلق فيه علاقة مع أحد! حتى فى " سانت تروبى" حيث تسبح الفاتنات عاريات الصدور، لم أجد فى نفسى ميلا إلى النظر أو الحديث، بل كنت استلقى على بطنى وسط البلاج أزيح من وجه صفحاتى حبّات الرّمال التى تنثرها السيقان المرمرية العابثة فوق كرّاستى.. وأكتب، أكتب. وقد مرّ بى جرسون مغربى وأنا على هذه الحال فى سانت تروبى فقال لى بالفرنسية : ماذا تفعل يا سيّدى ؟ أنت تأتى هنا لتكتب ؟ هل هذا مكان الكتابة ؟ أنظر حواليك واستمتع. ثم نظر فى كراستى وصاح : هذه لغة عربية ! هذا عظيم.. استمر ياسيدى، استمر، لا بدّ أنّك تكتب وصفا تفصيليا لهؤلاء الأوغاد لكى ترسله إلى الصحف العربية. هذا عظيم!.

المدينة التى وجدتها مناسبة أكثر من غيرها لحالتى النفسية وللكتابة كانت مدينة " كان" لأن بلاجها واسع عريض ومريح. كنت أبقى فى البلاج حتى ما بعد انصراف كلّ الناس، وهناك اكتشفت ـ لأول مرّة ـ أنّ البحر يتحدّث إلى الأنسان

حينما يصمت الناس! بعد مرور أسبوعين لم أحتمل صمت، فتحادثت مع زميلة لى من الأليانس فرانسيز وصلت قبلى إلى مكان قريب من الريفييرا، فحضرت وقضت معى يومين كسرت بهما رحلة الصمت والحزن. ثم عادت من حيث أتت واستمر الحال حتى عدت إلى باريس. كانت ، بالتأكيد،أبأس طريقة يمكن أن يقضى بها إنسان عطلة الصيف فى شاطئ الزُمُرُد.

عاد منصورخالد إلى باريس ليقول لأصدقائه: أطمئنّوا ! لقد تسلّمت زمام الأمور. وفعلا كتب عميل المخابرات الأمريكية المعروف " سالزبيرجر" مقالة فى "الهيرالد تربيون" يتهكم فيها على أوضاع السودان أشار فيها إلى أن الثمار سقطت فى أيديهم إلى درجة أن منصور خالد ـ دون أن يقول للقراء من هو منصور خالدهذا ـ أصبح وزيرا للخارجية فى المحمية الجديدة . قلت لمنصور وأنا أصحبه فى السيارة إلى المطار: هل أستقرّت الأوضاع فى السودان ؟ قال بالأنجليزية: The worst is not yet over. وأردف: لِسّة فى بقايا.. فَضَلْ فاروق أبوعيسى.. الكلب! ولا بدّ أن أقول أن منصور عفيف اللسان، فهو لا يستخدم الألفاظ النابية التى ترد بسهولة ويسر على ألسنة معظم الناس. ولذا فقد فهمت من تعبير " الكلب" أن فاروق أبوعيسى سوف يكون هو الهدف القادم للتدمير بلا رحمة، بل بحقد شديد، مع أنّه لبس النظّارة السوداء حدادا على" شهداء" بيت الضيافة!

وعلى عكس ما يظنّه الناس عن منصور فهو ليس جبانا. بل هو شجاع فى رأيى. فهو لايتردد فى أتخاذ الموقف السياسى الذى يخدم أهدافه، وهو يملك شجاعة الأقدام على اقتحام أبواب كبار المسئولين فى الدول الغربية لتقديم نفسه وشرح مخططاته لخدمة الأهداف السامية لتلك الدول، مستخدما حاسّة الأستنزاف القويّة. حدثنى صديق لمنصور أنّه أقام أمام باب مكتب أحد كبار أعضاء الكونجرس الأمريكى ثلاثة أيام دون انقطاع لكى يرضى ذلك النائب بمقابلته،

وكان قويـ متعاليا، ونجح منصور في مقابلته، وأصبح ذلك الرجل يتحدث بأعجاب عن ذلك الAfrican Boy ، ويستعين به في القضايا الأفريقية.

وحينما يتّجه منصور صوب أمرٍ يريده، فأنّه ينسى نفسه ومركزه وموقعه، وينطلق نحو ما يبغي، لا يلوى على شيئ ـ كما يقول الأقدمون ـ . رأيته يجلس ـ وهو وزير لخارجية السودان ـ في مقهى أمام الأليانس فرانسيز، مع مجموعة من " فتوّات " شمال إفريقيا الذين عُرِفوا باستخدام العنف والتهديد لاقتياد الحسناوات. أصواتهم عالية، عيونهم شرسة، وعلى وجه زعيمهم جرح غائر كمجرمي السينما، وهم ينادون الطالبات عند خروجهنّ من الكلية ليشاركنهنّ الجلسة. لم أكن أجلس في ذلك المقهى إطلاقا. فقد حذرني الزملاء منه منذ أول يوم. وقد رآني منصور وأنا خارج من الكلية ـ ولم يكن يتوقّعني ـ ولم أشأ إحراجه فلم أكلّمه.

أظنّ أن هذا التصرّف يحتاج إلى شجاعة فائقة وجرأة حقيقية من شخص يحتلّ منصب وزير الخارجية في بلده. ويبقى بعد ذلك الخيط الرفيع الذي يفصل بين الجرأة وال... كما يقول المجذوب. وقد فرض ذلك الزعيم ذو الوجه الأجرامي المجروح نفسه مرّة على بعض الزملاء والزميلات، فلمّا حضرت دخل معي في مناقشة حول شئون السودان، فلما أوضحت الموقف للواقفين قال لي بعجرفة مقيتة: وزير خارجيتك لا يرى هذا الرأي، وليست هذه سياسته. فأجبته بما يشبه عبارة المجذوب المغلّفة : أفْعَلْ وأَتْرُكْ فيك، وفي وزير خارجيتي الذي يتحدّث مع أمثالك حول سياسة السودان. وأردفت: أنا أعرف أنّك صديق وزير خارجيتي، وأعرف أيضا محور صداقتكما، وهو بالتأكيد ليس في مصلحة السودان، وأرجو أن تقول له هذا حينما تلقاه.

وفعلا قابلني هذا القوّاد القميئ بعد عودة منصور المريبة إلى باريس وقال لي إنّه أبلغ منصور بما دار بيننا.

ومن مظاهر جرأة منصور أنّه كان وهو وزير للخارجية، يرسل رسائل التلكس إلى يوسف مختار ليقوم نيابة عنه بالمراهنة على سباق الخيل فى باريس، ويتفرّغ تلكس السّفارة لأرسال أوصاف خيل السباق، وما تقوله صحف المراهنات عن فرصتها فى الفوز، ثمّ إرسال النتائج إلى سيادة الوزير حتى فى عواصم الدول التى يكون فى زيارة رسمية لها.

كثير من معارفنا المشتركين يعجبون كيف لم نصبح، منصور و أنا أصدقاء. والتساؤل ناشئ عن وهم شائع بأنّ العلاقة الحميمة لكلينا بالثقافة والمجتمعات الأوربية كافية لكى تجعلنا شبيهين، ولا شبه أطلاقا: فعلاقة الأتباع بالمجتمعات الأوربية ليست كعلاقة الأنداد.

قبل أن يغادر منصور باريس وقع موقف طريف؛ ذهبنا إلى حفل استقبال رسمى فى إحدى السفارات، ووقفنا، منصور وأنا مع صديقه الفرنسى - اليهودى إريك رولو وزوجته. وحينما قدّمونى لزوجة رولو سلّمت علىّ وصاحت : آه .. أنت اللّى حيرجّعوك للسودان ؟ وتكهرب الجو.. أرتبك منصور، وأحمَرّ وجه رولو وكاد يهرب، وارتعشت زوجته وهى تحاول أن تغطّى عورتها بأىّ كلام، فأذا بها تقول لى: آه دا كان حلم. تعرف! أنا حلمت بك البارحة، رأيتك وهم يرسلونك للسودان. مجرّد حلم. لم أعلّق، ولم أتحدّث. أما منصور وأريك رولو، فقد توجّه كلّ منهما إلى أقرب مجموعة مجاورة من الحفل، وتركانى مع " المَرَة" التى تشنّجت تماما. ولكن الصورة أزدادت وضوحا. فقد كنت إذن موضوع حوار بين منصور وأريك، أنتهى بأن أبلغ منصور أريك بأنّه سيعيدنى إلى الخرطوم. ماذا عساه أن يكون.. ذلك الحوار بين وزير خارجية السودان وعملاء المخابرات، حول شخصى الضعيف؟

وقبل أن يغادر منصور باريس استدعى يوسف مختار، وخيّره بين السّيف والذّهب فى التعامل معى. هذا المنظر من المسرحية المملّة لم يكتمل إلاّ

سنة ١٩٨٦ حينما زارنى يوما صديقى القديم الذى انقلب علىّ ، والذى شاءت الأقدار أن نصبح جيرانا فى "أركويت" : يوسف مختار. رفض الدّخول إلى المنزل وقال لى إنّه وجد أنّ الأقدار جمعتنا مرّة أخرى كجيران، وأنّه يحمل إحساسا فادحا بالذنب نحوى يريد أنْ يلقيه عن كاهله. كنت أعرف تماما ما يتحدّث عنه، ولكننى - لأننى كنت أحبّه حقّا، ولأنّه كان ضحيّة استغلال منصور لبعض العقد غير المبرّرة الكامنة فى نفسه لم أعتب عليه.

قال يوسف إنّه حضر لأنّه اكتشف أن منصور لا أمان له، وأنّه انقلب ضدّه بعد كلّ خدماته..ودمعت عينا يوسف. قلت له إنّ ذلك أحزننى، ولكننى رفضت الدخول معك فى معركة كما تعرف. قال لى إن هذا صحيح (ولكننى خضعت لمنصور، وفعلت أشياء " وسخة " ضدك، وأنت لا تعرف) قلت له : إطمئن. كلّ ما فعله منصور ضدّى، أصبح مصلحة لى. ولولا أن منصور أحالنى إلى المعاش لكنت مثلك ومثل بقية الزملاء فى الخارجية الآن، لاأعرف مصيرى مع حكومات المجانين فى السودان.

ومن طرائف أيام باريس، أن النميرى - فى لحظة من لحظات خوفه من الشعب السودانى - أمر بأن تعمل السفارات على تجميع المبعوثين السودانيين حولها، وأن تقوم بدور سياسى لأقناع المبعوثين بديمقراطية النّظام. وتتواتر الدلائل فى ذاكرتى على صدق مقولة بابكر عوض الله عن جُبن النميرى بالرغم من مظاهر الشجاعة الكلاسيكية التى يملك موهبة خاصة فى استعراضها.

فقد أرسلوا إلينا - وأنا قائم بالأعمال ــ أوراقا كثيرة تحثّنا، بل تأمرنا، أن ندعو المبعوثين ونتحاور معهم، وأن لا نتركهم نهباً للضياع وللأفكار التى تباعد بينهم وبين وطنهم، وهذه معانى سامية لا يملك أىّ وطنى رفضها أو التقاعس عن الأستجابة إليها. بادرت إلى دعوة المبعوثين من كلّ أنحاء فرنسا إلى اجتماع

بمبنى السفارة فىأفينيو " فيكتـور هوجـو ". كـان هنـاك عـدد مـن المتشـككين فـى دوافع السفارة لهذه الدعوة المريبة، وحينما حضروا وبدأت أخـاطبهم ثـار أحدهـم وهاجم حكومة مايو. توقّع الأجتماع أن أرفع الجلسة وأفضّ الأجتماع، ولكننـى ـ على العكس ـ قلت له : هذا من حقّك، وقد طلبت منّى الحكومـة أن أسمح لـك بأبداء وجهة نظرك. لم يتوقّع المبعوث تلك المفاجأة التى أفسـدت عليـه مخطّطـه، فخرج من الأجتماع ساخطا. قلت للحضور إن هذا أيضا من حقّه، فقام مـن بيـن المبعوثيـن شـاب هـادئ كـان يحضّـر للدكتـوراه أسـمه إسـماعيل الحـاج موسـى وخاطب الأجتماع قائلا: هذه أول مرّة نشعر فيها أن السفارة تفهم مشاعرنا، وأنّها جادّة فى التعامل معنا باحترام. أنـا عـن نفسـى سأستمر فـى هـذه التجربـة حتـى النّهاية. ومنذ تلك اللحظة بدأنا عقد اجتماعات مشـتركة مـع المبعوثيـن، وتحوّلـت السفارة إلى بيت للسودان يعمل من خلالـه السـودانيون لخدمـة بلادهـم والتحـاور حول مشاكلها. ولكن...

لعب فأر الجُبن فى عِبِّ نميرى فأرسل استفسارات عاجلة عن ما يحـدث فـى السفارة مع أوامر مشدّدة بأيقاف الأجتماعات ومنع المبعوثين مـن دخـول السـفارة !. وأصدر أمرا ألى صلاح هاشم بأن يقطع مهمتـه فـى الخرطـوم ـ وهـى مهمّـة وهميّة أراد بها منصور خالد أن يضع صلاح هاشم تحت بصره ويُمَنِّيـه الأمـانى لكى لا يبوح بسرّ تَبَتُّلات منصور و"انْبِراشِهِ" تحت أقدام فـاروق حمداللـه ـ ممـا كان سيودى به إلى نفس مصير سيد احمد الحاردلو الذى كُتِبَت عليه " الجَهْجَهَة". عاد صلاح هاشم فورا إلى باريس. وبطريقته العفويّة الحلوة أعاد علـىّ ملاحظـة قديمـة سبق أن أبداها حـول شـخصيّتى حينمـا سـألنى عـن التنقُّلات والتعديـلات الوزارية الخِداعية التى كان يقـوم بهـا نميرى، فقلـت لـه : أنـا لا أتـابع ولا أهتـم بتعديـلات نميرى الوزاريـة ولا بتنقّـلات وزارة الخارجيـة فـى ظـلّ حكمـه لأنّهـا جراحات تجميلية فاشلة وبائسة، فقال لى: هل تعرف يا على ما هو السّر فى أنّنـا

جميعا نجلس الساعات نناقش هذه الأشياء وأنت ترفض الجلوس معنا، وتستمر تعمل فى مكتبك، وتُصرِّف عمل السفارة وكأن الأمر لا يعنيك إطلاقا ؟ قلت ما هو السِّر ؟ قال بالأنجليزيّة : You are intellectualy arrogant " أنت مُتَغَطْرِس ثقافيا "، ولا بدّ أنّك تحتقرنا جميعا. قلت له: هذا غير صحيح. الفرق هو أننى أفهم تماما أن نميرى وصل إلى نقطة الضعف فى الشعب السودانى. وهى الأهتمام الساذج بالتعديلات الوزارية وكأنّها تغيير للسلطة، و"هَيافَة " معظم الناس فى الأهتمام بها وكأنّها أحداث جسيمة، وهى فى الواقع لا تعنى أىّ شيئ. (ومن عجائب الشعب السودانى أننى وجدت السودانيين فى القاهرة يتحدّثون سنة ١٩٩٧ عن تعديلات عمر البشير الوزارية، وتعيينات الولاة الجدد، وكأنّها تطوُّرات وأحداث حقيقيّة !!)

وعلاقات منصور خالد فى أوربا واسعة لأنّه استثمر بذكاء حقيقة لا يعرفها إلاّ القليلون من أبناء العالم الثالث عن الغرب وهى أن الأجهزة التحتيّة " المخابرات " فى النُّظم الديمقراطية الغربية هى الحكومة الحقيقية التى توفّر الفرصة للدولة لأحكام الرّقابة على المجتمع فى ظلّ المبادئ التى تمنع التدخل فى الحريّات الشخصية والممارسات الأجتماعية. وأن العالم التّحتى " المافيا "، هى التى تلعب دور الماسونية الجديدة فى المجتمعات الصناعية حيث تقوم بالتنسيق بين رجال المال والأعمال من ناحية، والدولة من ناحية فى كثير من الحالات. ولا يقع الصّدام بين الجهتين إلاّ فى " بعض " حالات تجارة المخدّرات، وليس فى كلّ حالة، لأنّ " الأجهزة التحتيّة " كثيرا ما تستعين " بالعالم التّحتى " فى أداء مهامّها. ولا ينكر إلاّ جاحد أن منصور - من بين أبناء العالم الثالث ـ قد وصل إلى مركزمتميّز فى الجهتين. وربّما نجد العذر لمنصور فى أنّه لم يستخدم هذه الصّلات الرّفيعة والممتازة لخدمة السودان، فى حقيقة أنّ منصور تحول إلى كائن "عالمى"، لا ينتمى إلى بلد بعينه، وإنّما ينتمى إلى عالم المتقدّمين

والمتفوّقين، عالم " الصّفوة " و " النُخبة "، أصحاب الحق فى السيادة على العالم. وأنّ من الطبيعى بالنسبة إليه أن يكون فى خدمة هذا العالم، أى فى خدمة الحضارة. وتتمثّل هذه الخدمة فى العمل الجاد والمخلص لأخضاع بقيّة خلق الله من الشعوب المتخلّفة ـ ومنها شعبه السودانى ـ للتوجيهات الأنسانية النبيلة التى تصدر عن العالم التمتفوّق. لهذا السبب فأن مؤلّفات منصور كلّها تخاطب الصّفوة والنُخبة، ولا تخاطب الشعوب والغلابة.

وقد أتيح لى أن أكتشف تأثير صفة شخصية فى منصور ساعدته على تشحيم طريقه داخل المجتمعات الأوربية. تلك هى أبتسامته الحلوة. دُعينا مرّة إلى حفل خاص فى منزل أحد كبار القيادات الأقتصادية لمنظمّة التنمية الأوربية وزوجته رئيسة تحرير مجلّة الأزياء الراقية Vogue. وما إن دخلنا حتى احتضنت الزوجة منصور، وأخذت تقدّمه لأصدقائها طالبة منهم فى كلّ مرّة أن يلاحظوا ابتسامته الساحرة! وأعترف بأنّ الأمر استوقفنى، فأعدت النظر ساعتها فى ابتسامة منصور فوجدتها فعلا ابتسامة حلوة ومضيئة... فاقِعٌ لَونُها * تَسُرُّ الناظرين!

ومنصور رجل علاقات عامّة من الطراز الأول. وهذه الصّفة واحدة من أهمّ دلائل انتمائه المُبكِّر إلى عصر الأعلام. أذكر أن أول مشكلة نشأت بينى وبينه في باريس كانت ـ بعد إبعاده عن منصب مندوب السودان فى الأمم المتحدة قبيل انقلاب هاشم العطا ـ بسبب أصراره على يوسف مختار أن يشحن بالحقيبة الدبلوماسية ثلاثين كيلوجراما من صورة خطابه الأخير أمام الجمعية العامّة ـ وهو إجراء روتينى تقوم به حتى سفارة جزرالقمر فى مقر الأمم المتّحدة، ولكن من نسخة واحدة لا تكلّف الدولة شيئا ـ إلى الوزراء بحكومة نميرى الذين يتلقون نفس ذلك الخطاب ـ كأجراء روتينى ـ من وزارة الخارجية بالخرطوم. والحقيبة الدبلوماسية مكلّفة جدّا للدولة، فرفضت أرسالها بالحقيبة،

وحقد عليّ حقدا شديدا لذلك. ثم لاحظت بعد ذلك حينما عدت إلى الخرطوم أن العمل الأساسي لمنصور كان هو إرسال جميع خطاباته في المحافل الدولية إلى جميع أعضاء مجلس الوزراء ووكلاء الوزارات، و" صفوة " مختارة من سدنة نظام نميرى، و"نخبة " من كبار ضبّاط الجيش وقادة الشرطة، بعد أرسالها رسميا بواسطة الوزارة. وكان إفراطه في ذلك يصل درجة المبالغة، حتّى تصوّرت أنّه لو أَحْدَثَ لوضعها في مظروف من السلوفان وأرسلها إلى السادة الوزراء !

البيت الذي بناه الجاك الدبلوماسي

من أبرز صفات وزراء الخارجية القادمين إليها من "القطاع الحديث"، أنّهم شحّاذون من الطراز " الحلبى "! يذهبون إلى دعوة غداء في منازل الدبلوماسيين السودنيين في الخارج فيشحذون كلّ ما تقع أعينهم عليه معلّقا على الحائط أو محفوظا داخل الأدراج! ويلفت النظر أن هذه الصفة ليست في الوزراء القادمين من الأحزاب السياسية، وطبعا ليست في الوزراء الدبلوماسيين.

أمّا شحاذة صاحبنا فأنّها من طراز "النهب المسلّح". لقد قدّم الدبلوماسيون من عرق جبينهم، ومن مخصصات بند الضيافة الأبواب والشبابيك والأدوات الكهربائية وبعض الأثاث وكلّ شيئ ما عدا الحوائط هدايا إجبارية لذلك البيت الذي بناه الجاك. وما زلت أذكر شكوى الأخ عصام حسن لي في نيروبي، وكان سفيرا بها، حينما وجدته يلهث في شراء الكوالين والأقفال والترابيس والأدوات الكهربائية ألخ.. لمنزل الوزير، فسألته: من الذي يتحمّل ثمن هذه الأشياء؟ فقال أنّها من جيبه الخاص ومن بند الضيافة. ويلعن أبوالخارجية.

رأى المجذوب فى منصور خالد.

بعد الأستتابة المهينة التى فرضها منصور على المجذوب بسبب إهداء ديوانه "الشرافة والهجرة "، جلسنا، المجذوب وأنا، نناقش ونحلّل هذه الظاهرة الجديدة بين أهل الثقافة والحكم : منصور خالد، نحاول أن نفهم أين نحن من هذه الدنيا، وألى أين تتجه بلادنا. كان عندنا جيل من الساسة الأدباء المثقفين قبل عهد نميرى، وكانوا جزءا من الشعب، ومن السودان. ربّما نحن تخلّفنا، فلنحاول أن نفهم هذا الكائن القادم من أوروبا ـ حيث كنت أنا، وبقيت أنا ـ من منطلقات موضوعية بحتة. وحدّدنا محاور ثلاثة للمناقشة بيننا هى:علاقة منصور بوزارة الخارجية ... علاقة منصور بالأدب والشعر... علاقة منصور بالمرأة .

علاقة منصور بالخارجيّة

جاء منصور إلى الخارجية بحقد دفين، منشوه هو عجزه عن الجلوس لأمتحان الخارجية. هناك علامة استفهام تنبض فى تاريخ منصور خالد. فهو من الجيل الذى دخل شبابه إلى وزارة الخارجية بالطرق الشرعية، وهى الأمتحان. وقد كان منصور سكرتيرا لعبدالله خليل، وبالتالى كان فى موقف يسمح له بالتقدّم للأمتحان مع التوصية القوية. السؤآل هو لماذا لم يتقدّم منصور خالد لأمتحان الخارجية التى كانت أمنية حياته فى الفترة التى كان فيها مدعوما بمركزه كسكرتير لرئيس الوزراء ؟؟ سألنا ميرغنى الصايغ والعارفين بتاريخ المتقدّمين للخارجية فعلمنا ـ مثلا أن صلاح أحمد إبراهيم تقدّم لأمتحان الخارجية وكان ترتيبه الأول، ورفضوا قبوله بسبب مبادئه. وأن مصطفى مدنى تقدّم للأمتحان وقبلوه سكرتيرا ثانيا، متخطّيا دفعته بسبب الأقدمية. وأن منصور خالد حاول الألتفاف حول القانون وطلب من عبدالله خليل تعيينه فى الخارجية بدون امتحان فرفضت الوزارة، ورفض عبدالله خليل ممارسة الضغط على قادة الوزارة فكرهه منصور وحقد عليه وعلى الخارجية معا.

وبالطبع فأن منصور لم يعجز عن الجلوس لأمتحان الخارجية عـن جهل أو بـلادة ، وأنما عجـز لأنـه روّض نفسـه علـى الوصـول إلـى أهدافـه بـالفهلوة والشطارة. وظل منصور بقية عمره يتربّص الفرص حتى يكون في وضع يسمح لـه بـأذلال الدبلوماسيين ووزارتهم التـي تـأبّت عليـه. وواتتـه الفرصـة مـع فشل أنقلاب هاشم العطا، وتهافت نميرى وراء المساندة الأمريكيـة لتقلّباتـه الممطوطـة من الأشتراكية المدعومة بالشيوعيين، إلى الرأسمالية المدعومة بالأجهزة التحتيـة والعالم السّفلى فى الغرب. قفز منصور فوق هامة الخارجية قفـزة ذئب مسعور، فأخذ ينهش لحمها ويهرس عظمها من كلّ موضع.

مع بداية وصوله فرض على الدبلوماسيين الخنـوع والصمت والطاعـة العمياء والتغاضى عن القصور المشين فى إدارة الوزارة، شرطا أساسيًا للأقتراب منه. ثم عزل نفسه عن الأدارات الرئيسـية بـالوزارة وأنشـأ سكرتارية ضخمـة " همّش بهـا دور تلك الأدارات، ووضـع معـايير معيّنـة يتـأهّل بمقتضاهـا شـباب الدبلوماسيين للعمـل فـى " حَرَمْلِك " الوزيـر الـذى أسـماه " المكتـب التنفيـذى ". ووضع أمام كلّ غرفة من غرف السكرتارية لافتة تحمل عنوان عملهـا الوهمـى، وكلّ العناوين تحمل معانى فخمة وتوحى بتطوّر أدارى عملاق. قال لى دفع اللـه الحاج يوسف، الذى تولّى وزارة التربية و التعليم بعد منصـور: أنّـه فوجـئ بـأن منصور خالد رجل لا يتقن عملا فى أيّة مسئولية يتولاّها، وأنّه يخفى فشله وراء اللاّفتات الضخمة التى تغيّرت بها أسماء الأدارات فى وزارة التربية والتعليم. قال دفع الله: " وكلّما دخلت وراء اللاّفتة الضخمة أمام كلّ مكتب، أجد فراغا وخـواء وتخريبا لما كان موجودا "... عبارة دفع الله الحاج يوسف هذه هـى أدقّ وصـف لما فعله منصور خالد فى وزارة الخارجية، إذ لم تشهد الوزارة فى تاريخهـا كلّـه تفككًا، وانفراطا فـى عِقد التنسيق بيـن الأدارات، وتظـاهرا بالشـعارات الكاذبـة، واسـتهتارا بقيـم الـوزارة وتقاليدهـا، كمـا شـهدته فـى عهـد منصـور.

بدأ منصور تآمره ضدّ الخارجية باستقدام مدرّس طيب مسكين ليست له أية علاقة بوزارة الخارجية، كان يعمل مساعدا للملحق التعليمى فى باريس أسمه هاشم عثمان، وعيّنه نائبا لوكيل الوزارة! وهاشم هذا دجّنه منصور فى باريس فصار لا يتحرّك ولا يفكّر ولا يتنفّس إلاّ بأمره، وجعله منصور الرجل الثانى فى الوزارة بعده!

ومن مظاهر سوء الأدارة والخروج على أبسط قواعد العمل الصحيح للخارجية أن منصور كان يجوب أنحاء الأرض متصيّدًا المؤتمرات والأجتماعات والنّدوات الدّولية والأقليمية والمحلّية مدّعيا أن للسودان مصلحة فى كلّ واحدة منها. وهذا قد يحدث من بعض وزراء الخارجية، ولكنّ كلّ وزراء الخارجية فى العالم يعقدون الأجتماعات للتشاور مع رؤساء الأدارات المختصّة قبل السّفر، ثم يعقدون الأجتماعات التى يشرحون فيها بالتفصيل لرؤساء الأدارات ما قاموا به من اتّصالات وما حصلوا عليه من نتائج وما ينبغى أن تكون عليه سياسة السودان تجاه الدول التى يزورها الوزير. أمّا منصور فقد اعتبر أسفاره التى لا تنتهى أمرا خاصّا به لا بالوزارة. وفى المرّات النّادرة التى دعا فيها إلى أجتماع - وقد حضرت واحدا منها - لم يكن يسمح بتوجيه الأسئلة، ولم يكن يعطى أيّة تفاصيل.

هذه الأجتماعات التّنويرية هى عصب العمل فى الخارجية، إذ بدونها ينفصم التّناغم بين الأدارات المختلفة فى التّعبير عن الأرادة السودانية فى الشئون الخارجية. فحينما يزور سفير إحدى الدّول رؤساء الأدارات ينبغى أن يسمع نفس الصوت من الجميع. وفى عهد منصور أصبح رؤساء الأدارات يتهربون من لقاء سفراء الدّول. وعلى كلّ حال لم يضع منصور على رأس تلك الأدارات ألاّ أقلّ الدّبلوماسيين ثقافة وأكثرهم طاعة وانصياعا وقبولا للمهانة.

ومن مظاهر سوء إدارة منصور الحاقدة للخارجية ما حدث حين

استدعى منصور - من مقرّه الدائم خارج السودان - وكيل الوزارة ليلحق به فى لندن فاكتشف الجميع أنّ الرّجل الثانى بعد الوكيل ليس محدّدا فى الشئوون الأدارية ! فقد أقحم منصور هاشم عثمان المسكين فى وضع نائب الوكيل ولكن لم يحدد درجته الوظيفية !. وكانت النتيجة مشهدا لم تعرفه الخارجية من قبل ولا من بعد فى تاريخها. كنت أنا فى قمّة حالة التحدّى التى واجهت بها منصور، فقد أعدت تكوين أتّحاد الدّبلوماسيين رغم رفضه واعتراضه وانتخبت أمينا عامّا له.

فلمّا سافر الوكيل نشب خلاف بين رؤساء الأدارات حول من هو المسئول الأول فى الوزارة عند غياب الوزير والوكيل ؟ لم يستطيعوا إدارة الخلاف بينهم همسا أو من وراء الأبواب، وأنّما تخاصموا علنا داخل الحَرَمْلِك حتّى هرع الدبلوماسيون من كلّ الأدارات لمعرفة ما يدور! كان رئيس الأدارة يحمل لقب مدير عام، وحينما وصلت إلى مكتب سكرتارية الوزير وجدت هاشم عثمان وعيسى مصطفى سلامة وحامد محمد الأمين وآخرين فى منظر يثير الحزن والأسى وقد اكتشفوا أنّهم مجرّد قطيع من الأغنام يقوده راع سفيه أسكرته السّلطة، وسقطت هيبتهم فى أعين الجميع حتى ظهر الأنكسار فى عيونهم.

قلت لأحد الزّملاء بصوت مسموع للجميع: لماذا الخلاف على منصب المسئول الأول ؟ المفروض أن يكون من السّهل الأتّفاق على وضع مؤقّت بين الأخوة المدراء "العوام". وضجّت الوزارة بالضحك على جمع " العوام " بدل العامّين. وكان أكثرهم ضحكا هاشم عثمان الذى اكتشف فى تلك اللحظة خيبة وضعه فى الخارجية. وقد ظنّ البعض أنّ هذه الفوضى الأدارية كانت نتيجة جهل الوزير بأصول العمل الحكومى الذى لا يعرفه. ولكن الحقيقة غير ذلك؛ فالوزير رفض نصائح الوكيل المتكررة بوضع حدّ للفوضى الأدارية، وتعمّد تجميد الحركة الدبلوماسية المعتادة والترقيات وتحديد الدرجات الوظيفية للقيادات حتى يساوم كلّ فرد فى الوزارة علىٰ الثمن الذى يرتضيه الوزير نظير النّقل أو

الترقية أو الحقوق الثابتة، وظلت هذه سياسته حتى أبعده النّميرى عن الوزارة واطلق عليه لقب " الفاشل ".

وفى مجال سوء إدارة منصور خالد للخارجية هناك واقعة هى الأشدّ إيلاما ونُكْرا. تلك هى واقعة منتدى باريس. فى سنة ١٩٧٣ تحدّد موعد تقديم العون للأقتصاد السودانى فى اجتماع الدّول الصّناعية المعروف بنادى باريس. وعملت وزارات المالية والتّجارة والثروة الحيوانية والثروة المعدنية وجميع أجهزة الدّولة المعنية بالتنمية ليل نهار لأعداد دراسات الجدوى لمشروعات محدّدة بناء على اتّفاق مسبق، لعرضها على المنتدى الذى أبدى تعاطفا كبيرا مع السودان. تسلّم منصور الملفّ الكامل الذى سهرت عليه أجهزة الدّولة شهورا ليقوم بعرضه وتوزيعه على اجتماع باريس، وأخفاه عن قيادات الوزارة.

انتظرت دوائر الدّولة ورجال الأعمال نتائج ذلك الأجتماع بشغف بالغ. وذهب الوزير الهمام، صديق دول الصّفوة والنّخبة ليأتى لبلاده بنصيب الأسد من معونات تلك الدّول. ودخل منصور إلى اجتماع قيادات دول الغرب الأقتصادية، واحتلّ موقعه بينهم حتّى جاء دوره ليقدّم ملفّ السودان الذى كان الأجتماع متعاطفا معه ومستعدّا لجعله نموذجا لعطاء الأغنياء للدول النّامية. وفتح الوزير الهمام حقيبته الخاصّة ليكتشف أنّه نسى الملف فى مكتبه بالخرطوم!! وقذف منصور بمحتويات حقيبته أمام الوزراء بحثا عن الملف، وأنتظر الوزراء فى صبر أوروبى مؤدّب حتّى يقرر الوزير السودانى ما يريد أن يفعل. وطلب منصور تأجيل البحث فى إعانة السّودان حتّى الأجتماع القادم بعد سنتين أو ثلاث. كانت مأساة بكلّ المقاييس. وحينما بحثت سكرتيرة الوزير فى الخرطوم عن الملف، وجدته غارقا تحت خرائط المهندس عبدالمنعم مصطفى التى كان يعدّ عشرات البدائل منها للمنزل الجديد لمنصور الذى لا وقت عنده لمناقشتها إلاّ

أثناء ساعات العمل الرسميّة بالوزارة! ولم تتوقّف المصيبة عند ذلك الحدّ.

عاد منصور إلى الخرطوم والناس يتساءلون عن نتائج مؤتمر باريس بتلهّف وشغف. كان ملفّ المهزلة أمامي مع تقرير السفارة في باريس عن تأجيل النّظر في مشروعات السودان في اجتماعات نادي باريس، حينما نظرت إلى إحدى الصحف السّودانية وقرأت تصريحا بالخطّ العريض لمنصور خالد يقول : نادي باريس يمنح السّودان ١٥ مليون دولار !! لم أستطع أن أكيّف شعوري في تلك اللحظة. كان الأمر أكثر ممّا يحتمل القلب والضمير.

وخلال نفس الأسبوع، وكردّ فعل لذلك التّصريح الذي زعم فيه منصور أن الأمريكان عائدون إلى السودان بعد المقاطعة، أرتفعت أسعار إيجارات المنازل إلى عنان السّماء، وملأ أصحاب البقالات محلاّتهم بالمعلّبات انتظارا للأمريكان.

ومرّت الأيام.. ولم يحضر الأمريكان ولم تظهر الخمسة عشر مليون دولار، وأفلس بعض أصحاب البقالات الذين راهنوا على تصريحات منصور، ودون أن أدري ما هي العلاقة أنفجرت مظاهرات شعبان ١٩٧٣ .

أذكر أنّني زرت المهندس عبدالمنعم مصطفى في مكتبه ووجدت معه حسن أبراهيم مالك، فقلت له: خرائطك الملعونة أضاعت على السودان معونات كبيرة. فسألني الأثنان: ما هو موضوع الخلاف بينك وبين منصور خالد ؟ قلت لهما: بسيط، أنا لا أكره منصور. ولكنّه أكمل نموذج رأيته في حياتي لقول المتنبّي :

ولم أرَ في عيوبِ النّاسِ عيباً كنَقْصِ القادرينَ على التّمامِ

فقالا لي بلسان واحد: لقد كنّا نبحث عن وصف لمنصور خالد ينطبق على تركيبته الغريبة كلّ هذه المدّة فلم نجده. وقد وجدناه عندك الآن، وأخذا يردّدان البيت حتّى خرجت من عندهما. ولا أعرف كيف فسّر منصور عودته خاوي الوفاض من باريس لنميري بعد كلّ التأكيدات التي قدّمها قبل سفره، والتي أكّدها معه سفراء الدول الكبرى بالخرطوم، بأن الأتّفاق تامّ بين الدّول حول تقديم

قروض للسودان فى تلك الدّورة لنادى باريس. ولكن الواضح أن النميرى كان ما يزال يعتقد أنّ مدخله الوحيد إلى الغرب هو منصور خالد.

منصور + تاينى رولاند + دنكان ساندز = بداية الكارثة

قبل زيارة منصور المريبة لباريس بعد تولّيه وزارة الخارجية كنت أنا أيضا أظن أن لمنصور مداخل عادية إلى دهاليز السلطة فى الغرب غير الأجهزة التحتيّة والعالم السّفلى. ولكن واقعة معيّنة أقنعتنى بتدنّى مستوى علاقاته، وبالشرور المحدقة بالسودان على يد النّوعيّة التى بدأ منصور يستقدمها للمساعدة. قام منصور من باريس بزيارة سريعة مريبة هى الأخرى ـ لأنّها شخصيّة ولا تعرف الخارجية عنها شيئا ـ إلى لندن وبقى هناك حوالى ثلاثة أيام. قبل عودته بيوم وصل إلى باريس رجل الأعمال خليل عثمان قادما من لندن.

وفى مكتبى بالسفارة جلس خليل يحكى لى عن الأنجاز الكبير الذى حققه منصور فى اجتماعهما مع تاينى رولاند ودنكان ساندز! وجعل خليل يصيح بطريقته المهبوشة: " يا على خلاص أنتهى زمن الفقر بالنسبة للخارجية السودانية. بكرة حيغيّروا ليكم كلّ العربات الفرنسيّة التعبانة دى، السّتروين والبيجو والكلام الفارغ دا، حتركبوا الكاديلاك والليموزين والبونتياك وال.. وال.. ". وما زالت معى ورقة أمسك بها خليل عثمان وجعل يرسم لى صورا للحالة العقلية البائدة للعقل السودانى وهو يقول : " الأنسان السودانى يفضل يقرا ويقرا ويقرا لحدّ ما عقلة يبقى قدر كده ـ ورسم دائرة كبيرة تحتها شكل أنسان نحيف ـ وبعدين جسمه ما يقدر يتحمّل العقل الكبير دا فيقوم ينقلب، ويبقى راسة تحت ورجليه فوق ، ويشوف العالم بالطريقة دى ! " ورسم عدّة أشكال أخرى يشرح بها أفكاره، وأضاف: " نحن حنصلّح دا كلّه، خلاص، عهد البؤس والفقر انتهى. كنت أستمع إليه وأنا فى ذهول وهو يتحدّث بطريقته السريعة القلقة وبيديه

المتقافزتين فى كلّ اتّجاه، عن وعود تطوير للسودان على يدى تاينى رولاند ودنكان ساندز، ولسان حالى يقول :

إنْ كنتَ لا تدرى فتلكَ مصيبةٌ   أو كنتَ تدرى فالمصيبةُ أعظمُ

مَنْ هو : تاينى رولاند ؟

تاينى رولاند الذى ذهب منصور ليخطّط معه العمل الأقتصادى فى السودان هو باختصار شديد، أحطّ وأسفل رجل أعمال فى العالم الغربى بشهادة الجميع. وهو سَفّاح قوّاد مجرم تخصّص فى ابتزاز زعماء الأنقلابات الأفريقية عن طريق توريطهم فى مواقف مخزية وتصويرهم مع السّاقطات والشّواذ واستخدام العنف والتهديد بالأغتيال على أيدى بعض عناصر المخابرات فى جنوب أفريقيا وروديسيا العنصريّتين اللّتين كانت تربطه بهما علاقات قويّة، وقد نفّذ فعلا عددا من الأغتيالات ضدّ وطنيين فى بلاد أفريقية مختلفة وقفوا ضدّ مخطّطاته.

كان يملك معظم الأسهم فى شركة " لونرو " التى ابتزّت نظام عبّود فى بناء مساكن " خشم القربة " عند أنشاء " حلفا الجديدة ". وجعلت السودان يدفع غرامات هائلة حين أضطرّ لأيقافها عن العمل بعد اكتشاف الغشّ فى المنازل التى بنتها. وهو من أكثر أعداء العرب والأفارقة شراسة فى بريطانيا.

وكان آخر مظاهر عدائه وكراهيّته للعرب الحملة الشّرسة التى شنّها ضدّ محمد الفايد، والد عماد الفايد ـ دودى ـ صديق دايانا أميرة ويلز الذى مات، أو قُتل، معها. فقد اشترى رولاند صحيفة الأبزيرفر خصّيصا ليشُنّ من خلالها حملة عنصريّة حاقدة لمنع محمد الفايد من شراء محلاّت هارودز مؤلّبا الرأى العام البريطانى ضدّه لأنّه عربى ثم لأنه مسلم ثم لأنّه مصرى من الشعب الذى أذاق بريطانيا العظمى مرارة الهزيمة السّياسيّة والعسكريّة لأول مرّة فى تاريخها الحديث. بل ووجّه ضدّه هجوما واتّهامات شخصيّة محاولا تلويث سمعته، وكاد أن ينجح لولا المواجهة الشّجاعة التى تصدّى بها محمد الفايد لتلك الحملة

الشّرسة. ومع ذلك نجح رولاند في حرمان الفايد من الحصول على الجنسية البريطانية حتّى هذه اللحظة، فقد تكوّن رأى عام في الأجهزة الرسمية ضد ذكاء الفايد ونجاحه وقوّة شخصيّته واحتمالات تعاظم قوّته داخل المؤسّسات الأقتصادية البريطانية خاصّة في ضوء تعاظم الوجود العربي والأسلامي في العاصمة البريطانيّة. وسمعة تايني رولاند في انجلترا والعالم هي أنّه رئيس عصابة مافيوسيّة إرهابية، وليس رئيس شركة، وهو صديق وشريك لعدنان خاشوقجي، وسيقدّمهما منصور إلى جعفر نميرى لتنشأ بين خاشوقجي ونميرى صداقة حميمة فيما بعد.

مَنْ هو دَنْكان ساندز ؟

سبق أن أشرنا إلى دنكان ساندز في معرض الحديث عن مأساة حرب يونيو ١٩٦٧ وتبجّحه في حفل إحدى السّفارات العربيّة حول محاولة هزيمة الثورة اليمنيّة واحتلال صنعاء. ودنكان ساندز هو آخر وزير للمستعمرات في بريطانيا. وكان من ألدّ أعداء القوميّة العربيّة والتّحرّر الأفريقي. وقد وقف بصلف وقسوة ضدّ استقلال الشعوب الأفريقية وبصفة خاصّة ضدّ محاولات الأمم المتّحدة تغيير نظام الفصل العنصرى واضطهاد السُّود في روديسيا وجنوب إفريقيا. وبعد خروجه من الوزارة أصبح عميلا علنيّا لحكومات البيض في ذينك البلدين، يدير الأتّصالات ويدبّر المؤآمرات ضدّ مطالب الأستقلال لكلّ الشعوب. وفي عهده ذاقت شعوب اليمن الجنوبي وعُمان وإمارات الخليج الأمرّين من تعنُّت السياسة البريطانيّة. وجاء التّحالف بينه وبين تايني رولاند كنتيجة طبيعية للتشابه الكامل بينهما في الأفكار والمصالح.

علاقة منصور بالأدب والشّعر.

بعد عودتي إلى الخرطوم، وفي خضمّ مهازل الجوّ الفوضوى والأرهابي الذي أدخل فيه منصور خالد وزارة الخارجيّة، وبعد استتابة منصور للمجذوب،

وإجباره على إلغاء عبارات الثّناء على صديقه من ديوانه، وتوبيخه لمحمد الخليفة طه الريفى لنشره صورتى مع تعليق مماثل وإبعاده عن الصفحةالأخيرة بجريدة الصّحافة، تذاكرنا ـ المجذوب وأنا ـ كلّ تلك المواقف والعجائب، ففاجأنى بطريقته العميقة سائلا: هل سمعت منصور خالد ينشد الشّعر أبدا ؟ قلت: كلاّ. لماذا تسأل؟ قال: هناك أمر يحيّرنى هو المفارقة الهائلة بين كتابات منصور ولسانه. إننى أقرؤه فأجده يستخدم أسلوبا فصيحا، وأن كان متكلّفا ينزع إلى غريب المفردات وشذوذ العبارة، ثمّ أجده يستشهد بجيّد الشعر من المتنبّى وغيره، ولكننى حينما أجالسه لا أسمع منه كلاما فصيحا ولا شعرا ولا أدباً. وهو لا يجيد الخطابة بل لا يستطيع ـ كما هو الطبيعى جدّا بل الواجب بالنسبة لمن يكتب بهذا الأسلوب الممعن فى الفصاحة ـ لا يستطيع التحدّث بالعربيّة الفصحى أمام المنتديات وفى المناسبات. وهو لا يتطرّق فى الجلسات الخاصّة والسّهرات مع الأصدقاء إلى حديث الشعر والأدب، مما يدعو إلى الحيرة حول كتاباته المشبعة بفصيح العبارة وجيّد الشّعر... لعلّه يكتب فى الأحلام!!

تطابقت ملاحظة المجذوب تماما مع صورة منصور الأدبيّة واللغويّة كما عرفتها. فالفصاحة اللغويّة ليست طبيعة فى لسان منصور. والفصاحة، عربيّا ، إنّما هى فى اللسان. ولا أفهم كيف يمكن لأىّ إنسان أن يسوّد مئآت الصفحات بالعبارات البليغة والمفردات شبه المهجورة، والأشعار المتلاحقة، يأخذ بعضها برقاب بعض، ثمّ لا يجد كلّ ذلك شريانا واحدا يسرى به من راسه إلى لسانه؟

وهل من الطبيعى لأديب يكتب بمثل هذا الأسلوب عظيم البلاغة، شغوف بنشر المؤلّفات، أن لايكتب قصيدة واحدة من الشعر أو عملا إبداعيّا من أى نوع؟ هذه الأسئلة وتلك الملاحظات، ظلّت علامات استفهام بلا إجابة.

ثمّ جاءت مناسبة أخرى جئنا فيها ـ المجذوب وأنا ـ إلى هذه الملاحظات حين نشرت إحدى الصّحف مقابلة مع منصور قال فيها إنّه ينحدر

من أسرة يعتبر " مختصر خليل " فيها من كتب الصّغار. قلت للمجذوب أنّ مختصر خليل يعتبر من أمّهات كتب المالكيّة ، كتبه الشيخ خليل حفيد ابن أسحق الجندى فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، وعكف على شرحه جهابذة العلماء مثل الطّرابلسى والبساطى والنّووى، فمن هم أسلاف منصور الذين يعتبر مثل هذا الكتاب عندهم من كتب الصّغار؟ ضحك المجذوب وقال: مبلغ علمى أن المختصر هو غاية ما وصل إليه علماء نيجيريا من الفقه..وكثّر خيرهم! قلت له يا محمّد أوّلا أنا أريد، حقيقة، أن أعرف لأنّ رجلا مثل منصور لا يمكن أن يطلق مثل هذا الكلام على عواهنه، وثانيا أنا لا أحبّ التّشنيع على أحد بكلمات مثل فلاّتى، وعبد، وحلبى.. الخ.عبارات التّمايز غير المفهوم التى يستخدمها السودانيون. والحقيقة أننى محتار تماما فى أمر المواصفات المطلوبة لكى يعترف السودانيون لأنسان مّا بأنّه سودانى؟

قال المجذوب عابثا: وأنا مثلك تماماً. أعرف أغنية شهيرة تقول:

البَرنُو والفلاّتة

تَدُوسُهم الكَرّاكة

كرّاكة نمرة ثلاثة !

وحتّى هذه اللحظة، لا أعرف بالضّبط ما هى مواصفات الكرّاكة نمرة ثلاثة !

علاقة منصور بالمرأة .

حديثنا عن هذا الجانب ـ المجذوب وأنا ـ كان سببه ظاهرة تكاثر زيارات النساء الأجنبيات إلى السودان فى عهد مايو عموما وعلى يد منصور خالد خاصّة. وأبادر فأقول أننى لا أرى فى زيارات النّساء، من حيث هى، غضاضة ولا عيبا. ولكنّ كثيرا من تلك الزيارات كانت ذات صبغة سياسية بطرق ملتوية. وكان بعضها ينتمى إلى الأجهزة التّحتيّة والعالم السّفلى.

ولكنّ ذلك لا يقدح فى حقيقة أخرى ذات دلالة ومغزى، تعتبر إحدى

مميّزات منصور الشّخصيّة التي لا تجارى. وأعترف أنني لم أصادف رجلا أمضى سحرا على النّساء من منصور خالد! إنّه بهلوان حقيقي لا يشقّ له غبار.
وفي منصور ميزة تفضّله عندي ـ اجتماعيا ـ على معظم الرّجال السودانيين؛ ذلك أنّه لا يطيق جلسة أُنس أو سهرة أصدقاء تخلو من العنصر النّسائي، وهذه ظاهرة صحيّة يفتقدها معظم الرّجال السودانيين!

لقد أنشأ منصور خالد مئات العلاقات مع أجمل الجميلات من جميع الأجناس. وقد رأيت معه عشرات الصديقات ليست بينهنّ قبيحة أو متوسّطة الحسن، بل كلّهن ملكات جمال. ولكن الأمر الذى استوقفني هو أنّه ليس بين كلّ هذه العلاقات علاقة حبّ واحدة ! ليت شعرى... ما الذى كان يبغيه منصور من تلك العلاقات ؟ قال لى المجذوب أن منصور هو النموذج الأكمل للأنسان الآلى الحديث.. إنسان العصر الأسرائيلى.. عصر الرّوبوت!

منصور.. ناقدا لنظام نميرى ، وللنّخبة السودانية !

أخرج منصور خالد كتابين فى نقد نظام نميرى وفى مثالب النّخبة السودانية. وحرص على أن يضع نفسه ـ فى كتبه ـ موضع المراقب الذى كان همّه الوحيد هو دراسة الظاهرة دون أن يكون له دور فيها، أو المصلح الذى جاء داعياً ومُبَشّرا ونذيرا، فلمّا لم يجد آذانا صاغية رفض الأوضاع بكلّ كبرياء وشمم!

ولكن هل هذه هى حقيقة دور منصور؟. استخدم منصور سحر البيان لأغراق القارئ فى تفاصيل مملّة عن رأى فلان وقول علاّن فى مسائل فرعية هنا وهناك لأثبات براءته من دم الشعب السودانى المهراق.

والسؤآل هو: هل يمكن لشخص خدم فى أعلى المواقع فى نظام نميرى لمدّة ثلاثة عشر عاما أو تزيد، أن يتنصّل من دوره فى أخطاء ذلك النّظام ؟ هل يمكن

لمن تولّى الوزارة ، ثم منصب سفير السودان فى الأمم المتّحدة بتعيين سياسى، ثم تولّى وزاراتين مختلفتين، إحداهما وزارة السّيادة الرئيسية ثم استطاع بنفوذه وقوّة سلطانه أن يُفصّل لنفسه منصب مساعد رئيس الجمهوريّة تفصيلا، وقام خلال كلّ ذلك بتعيين أتباعه وأصدقائه فى الوزارة والمراكز العليا فى الدّولة من وقت لآخر... هل يمكن لهذا الشّخص أن يقنع النّاس بأنّه لم يكن إلاّ فى مركز المراقب أو النّاصح العابر؟

لا يحقّ لمنصور خالد بالذات انتقاد نظام نميرى لأنّ هذا النّظام بعد ١٩٧٢ هو من صنع منصور خالد أساسا. كما لا يحقّ لمنصور خالد بالذات أن ينتقد النُّخبة السودانية لأنه هو الذى قاد الطريق أمامها خنوعا للأنقلابيين من العسكر، وضرب المثل الفاضح فى طرائق استمالتهم بالمغريات ومواطن الضّعف فيهم. ولأنّ النّخبة السودانية لم تكن تعرف منصور على حقيقته فقد تبعه منها العشرات فى ضروب الملق والتّخنّث السياسى وإعلاء المصلحة الشّخصيّة على المصلحة الوطنيّة، حتى أصبح ذلك هو الطّابع العام لعلاقة النخبة بعهد نميرى تتسابق وتتبارى بلا حياء فى أساليب التّزلّف والهوان.

ولا يغرنّك ما تظاهر به منصور من أجتراء على نميرى بالنّقد المغلّف تحت حماية أصدقائه فى أجهزة الدول الكبرى بعد أن أبعده نميرى، فقد نجح منصور قبل ذلك فى توريط نميرى حتّى أذنيه مع تلك الأجهزة.

ومن ناحية أخرى فأنّ مفهوم منصور للصّفوة والنّخبة مفهوم مضلِّل. النّخبة فى القاموس السياسى الحديث ليست كلّ المتعلّمين ولا كلّ الموظّفين كما يوحى تناول منصور للموضوع. النّخبة هى الفئة الوطنية الواعية التى تتميّز بالطموح الوطنى نحو التّقدّم والرّفاهية لشعبها، وتتّصف بالأعتزاز الوطنى والمصداقية والكرامة الوطنيّة. والنّخبة هى القيادة الأجتماعية للبلد، المعترف لها بتلك القيادة. وهى التى تحمل تطلّعات مجتمع مّا وتعبّر عنها ثقافيّا وسياسيا واجتماعيّا. وبهذا

المفهوم فأن النخبة السودانية لم تتولّ القيادة فى السّودان إلاّ فى الديمقراطية الأولى والديقراطية الثانية وهى فترات قصيرة جدّا بحيث لا تصحّ محاسبتها من خلالها إلاّ لحاقد أو جاهل. أمّا فى عهود الديكتاتورية فمن المستحيل التّحدّث عن نخبة فى القيادة لأن النّخبة الحقيقيّة يمنعها الحياء والكرامة الشّخصيّة وكرامة الوطن ـ وأحيانا كرامةِ الأسرة ـ من الأنضمام إلى جوقة المهرّجين وطبول المنافقين الذين يزفّون بها من يرمون لهم الفتات من الأنقلابيين.

ومن عجب أن يوجّه منصور النّقد إلى نظام نميرى وإلى النّخبة المزعومة مركّزا فى كتابه " الفجر الكاذب " على القوانين التى استحدثت سنة ١٩٧٨ وما بعدها، ناسيا ـ بل متناسيا ـ التعديلات الفاضحة التى أدخلها هو شخصيّا سنة ١٩٧٥، بعد انقلاب حسن حسين، على دستور سنة ١٩٧٣، التى شرحها ودافع عنها وقدّم مبرّراتها للشعب السودانى من خلال التلفزيون فى برامج متّصلة اشترك فيها معه جعفر بخيت الذى كان معترضا على تلك التّعديلات، ولكنّه أُجبر على الدّفاع عنها بتآمر من منصور.

تلك التّعديلات التى قدّمها منصور ودافع عنها هى التى أفسدت النّميرى ونظامه إلى غير رجعة. فقد وسّع بها منصور سلطات رئيس الجمهوريّة إلى درجة أزعجت حتى بعض المقرّبين إليه، لأنّها كانت استفزازا صارخا للشعب السّودانى. فماذا كانت تقول تلك التعديلات ؟ وكيف كانت الغطاء الوحيد الذى سوّغ أصدار قوانين سبتمبر التى قُتِل فى ظلّها محمود محمد طه، الذى ذرف عليه منصور ـ ربيب الدكتاتوريين فى كلّ العهود والمراحل حتّى فى المعارضة ـ دموع التّماسيح ؟.

قال لى المجذوب الذى كان قد انضمّ إلىحزب محمود فى شبابه: لو آمن منصور خالد للحظة واحدة بكلمات محمود الخالدة فى حقّ الأنسان فى الحريّة، لما استكثر على شعبه حقّه فى حياة ديمقراطية ينعم فيها بأنفاس الحريّة، ولما

قضى حياته يبحث فى كلّ جيل عن دكتاتور جديد، كلّما أفل نجم طاغية كان يقاسمه السّلطة فى إذلال شعبه.

تلك التعديلات كانت تعطى رئيس الجمهورية سلطات إضافية فى المجالات الآتية :

١ - يصدر رئيس الجمهوريّة من الأوامر والتّوجيهات ما يكون له قوّة النّصّ الدّستورى!!! وهذا معناه أن هذه الأوامر التنفيذية التى قد يكون موضوعها أمرا تافها، لا تخضع للمحاكم ولا حتى للسلطة التشريعية، دع عنك السلطة التنفيذية .
٢ - تتولّى المحاكم العسكريّة محاكمة كافّة السودانيين! ولا يمكن استئنافها إلاّ لدى السّلطات العسكريّة العليا!!
٣ - من حقّ رئيس الجمهورية أن يصدر أمراً باعتقال أى شخص تحفّظيّا، لفترة غير محدّدة، دون أبداء الأسباب ودون تقديمه للمحاكمة !!

هذه هى فحوى التعديلات التى أدخلها منصور خالد سنة ١٩٧٥ على دستور ١٩٧٣ الذى يصفه القانونيون بأنّه كان دستورا معقولا فى ظلّ نظام دكتاتورى.

فهل يحقّ لأنسان أدخل مثل تلك التعديلات، ودافع عنها وشرحها وسوّغ مبرّراتها للشعب فى التلفزيون، أن يتكلّم ضدّ نظام نميرى ؟ أو ضدّ النّخبة المزعومة ؟ أو أن يتكلّم إطلاقا ؟؟

إنّ كتابات منصور خالد هى اختبار حقيقى لعقل الشّعب السّودانى العاشق للكلمة الجميلة. وحينما قال لى المجذوب أن منصور هو " ظاهرة خطيرة " فى حياتنا الحديثة، فأنّه لم يبالغ. ومهما بدا فى كلامى من تأفّف وضيق ، فأننى لا أنكر أنّنا مواجهون بظاهرة فريدة، ظاهرة فيها من الذّكاء والبراعة، ومن الأدب والفنّ، ومن المقدرات والمرونة الكثير، ولكنّها ظاهرة تنتمى إلينا ولا نستطيع أن نستفيد منها، وكثيرا ما تجلب إلينا الأضرار. أنّها تظهر ثمّ تختفى.. تظهر ثمّ

تختفى، كالريح الخبيثة، أو كالناموسة تحوّم - وتلسع - ثمّ تبتعد. ولكن أخطر ما فى هذه الظاهرة هو أنّها بدأت تتوالد، وأصبح لها "مدمنون " !

نقطة التحوّل فى المعركة... منصور والأسانسير!!

أمعانا فى إذلال الخارجية والدبلوماسيين أصدر منصور أوامره إلى عامل المصعد بأن لا يسمح لأحد بالدخول معه إلى الكابينة حينما يصل سيادته ! كانت الوزارة فى عمارة من ستّة طوابق، وكان المصعد كبيرا يتّسع لحوالى عشرة أشخاص ،و كان بطيئا إلى درجة أن العاملين بالخارجية كانوا يقفون فى احتشاد مزعج أمامه كلّ صباح وينتظرون دورهم لفترات قد تمتدّ إلى ربع ساعة أو أكثر.

كان عامل المصعد محسيّا شجاعا إسمه " السّر "، وهو فى نفس الوقت رئيس نقابة عمّال الخارجية، فقرر عدم الأمتثال لأوامر الوزير غير الأنسانية، وأدخل معه اثنين من المديرين العامّين وبعض الدبلوماسيين الذين كانوا ينتظرون أمام المصعد قبل وصول الوزير بفترة. فما كان من الوزير المثقّف المتحضّر إلاّ أن صعد إلى مكتبه واستدعى فضل عبيد وكيل الوزارة وأمره بفصل عامل الأسانسير فورا !

وفعلا استدعى فضل عبيد العامل وأبلغه بأن الوزير أمر بفصله لأنّه لم ينفّذ تعليماته، وأن خطابا بفصله من الخدمه سيصله خلال يومين. قرر العامل أن يلجأ إلى اتّحاد الدّبلوماسيين، فجاءنى يشكو الظلم الذى حاق به. كانت المسألة خارج أطار صلاحية اتّحاد الدبلوماسيين الذى رفض منصور الأعتراف به أصلا، فماذا أصنع للأنتصار لهذا المسكين؟

كان نميرى فى تلك الأيام - بعد مظاهرات شعبان العنيفة - يناشد الناس من خلال كلّ أجهزة الأعلام أن يصدقوه حينما يقول أنه قرر أطلاق الحريّات وأنّ أى شخص يمكن أن ينتقد النّظام من خلال اتّحاد القوى العاملة " الأتحاد

الأشتراكى ". قلت للعامل لماذا لا تشكو للأتحاد الأشتراكى ؟ قال: نحن لسنا أعضاء فى تنظيمات الأتحاد الأشتراكى وحينما حاولنا ذلك قالوا لنا أن المطلوب هو لجنة موحّدة تمثّل الوزارة كلّها، وأنتم فى اتّحاد الدبلوماسيين ترفضون الأتحاد الأشتراكى، وهو فعلا الجهة الوحيدة التى يمكن أن ألجأ إليها لرفع الظلم عنّى. كان منصور مهيمنا على الدّولة تماما إلى درجة أنه كان يطلب من بعض الوزراء - حينما تكون له حاجة، رسميّة أوخاصّة، عندهم - الحضور إلى مكتبه ليكلّفهم بما يريد. وكان وزراء آخرون يحضرون إلى الوزارة ليطلبوا تدخّله لدى نميرى لحلّ مشاكلهم. فكيف تنتصف لعامل المصعد البائس من وزير بهذه القوّة؟.

كان منصور يعرف أن قيام تنظيم من أى نوع تعترف به الدولة فى وزارة الخارجية، سيمنح الدبلوماسيين المقهورين صوتا مسموعا يكشف ما تعانيه الخارجية على يديه. وقد نجح فى منع إعادة تكوين اتّحاد الدبلوماسيين حتى عدت أنا من باريس. كان علىّ أن أزيح من عقول الزملاء وقلوبهم موجات الرّعب التى بثّها فيها صلف منصورخالد وتجبّره، واقنعتهم بعد معاناة شديدة بضرورة الأجتماع وانتخاب لجنة جديدة للأتّحاد.

ثمّ دعوت إلى اجتماع مشترك للجان اتّحادات الدبلوماسيين والأداريين والعمال، وعرضت عليهم فكرة أنشاء أتّحاد موحّد لجميع العاملين بوزارة الخارجية. وقد أعتبرالجميع ذلك الأقتراح فكرة جريئة جدّا فى ظلّ تقاليد التمايز المهنى، والطّبقى، بين تلك الفئات الثلاث. فى البداية لم يصدّق أعضاء اتحادَى الأداريين والعمال أننى جاد فى اقتراحى فترددوا. ولكن بعد أن تأكّدوا من الجدّيّة وافقوا بل تحمّسوا و اندفعوا يدعون إلي الفكرة. لم يكن منصور يعترف بأىٍّ من تلك الأتحادات، ولكنّه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا بعد أن استصدر جعفر بخيت قرارا من نميرى بعدم تعرّض الوزراء لعملية أنشاء النّقابات والأتّحادات لتكون

جزء من مكوّنات الأتّحاد الأشتراكى.

فور هذا الأتفاق ذهب العامل المفصول " السّر " ومعه عضو من اتّحاد الأداريين إلى الأتّحاد الأشتراكى وطلبا تحديد موعد لحضور مندوب عنه يوم إجراء انتخابات الأتّحاد الجديد. وذهبت أنا إلى مسجّل النّقابات لنفس الغرض. يوم الأنتخابات كان يوم عرس لجميع الأدارات ما عدا " حَرَمْلِك " الوزير الذى ضربت عليه الذّلّة والمسكنة فى ذلك اليوم.

فوجئنا بحضور شخصيّتين فى انتخابات الأتّحاد؛ الأولى كانت المندوب المشرف على الأنتخابات من جانب الأتحاد الأشتراكى: مهدى مصطفى الهادى، نائب جعفر بخيت، وقد قرر أن يحضر شخصيًا نكاية فى منصور خالد. والثانية هى عوضيّة أبوصالح، سكرتيرة وزير الخارجية، تلك الفتاة الشّجاعة التى كانت الشّخص الوحيد الذى ساهم فى الأنتخابات من حرملك الوزير متحدّية بذلك تعليماته المباشرة - قبل أن يهرب هو إلى خارج البلاد - بعدم الأشتراك فى الأنتخابات. وعندما عاد منصور سأل عوضيّة عن اشتراكها فى الأجتماع الذى أجريت فيه الأنتخابات، فكان ردّها: أيوه شاركت فيها، وكمان أدّيت صوتى لعلى أبوسن، رئيس الأتّحاد!! كان مصدر حماس عوضيّة هو فكرة الجمع بين اتّحاد الدبلوماسيين والأتحادات الأخرى، ولكن منصور لم يرَ غير الجانب الآخر من المسألة. وكان ذلك آخر عهدها بالسيادة على الدّخول الخاص للوزير.

ذهبت بعد انتخابى مباشرة إلى مكتب فضل عبيد وكيل الوزارة، وقلت له إننى لن أسكت إذا تمّ فصل العامل " السّر " وأننى أحمّله شخصيًا مسئولية هذا الأجراء الظّالم. وسأرفع الأمر إلى القضاء. قال لى فضل: ما رأيك فى أن تقابل الوزير وتتفقا على إنهاء الخلاف، وتخرجنى أنا من هذه المشكلة التى لم أعد قادرا على فهم أبعادها الحقيقية ؟ وحينما عاد منصور طلب منّى الوكيل أن أحضر إلى مكتبه. كنت أتشوّق منذ بدء الصّراع على كرامة الخارجيّة، أن أجد

فرصة أردّ فيها كرامة الدبلوماسيين بتحقير منصور أمام قيادات الوزارة. دخل فضل على منصور بناء على فهمه لأصول العمل الصّحيح، إذ من المفروض أن يستدعى الوزير هذا الدبلوماسى المتمرّد ويضعه فى مواعينه. ولكن منصور كان يعرف ما ينتظره عندى، فرفض استدعائى.

فى اليوم التالى أصدرت نشرة باسم اتحاد الدبلوماسيين تحثّ الدبلوماسيين على تجويد الأداء وتنتقد بعض أوجه القصور. ولأول مرّة أحسّ العاملون بالخارجية بأن تعالى الوزير وطغيانه كان يخفى وراءه عِنّة فى المقدرة على المواجهة. وبدأت الأصوات تعلو بالنقد والدعوة إلى العدالة والأنصاف. واستغرب الدبلوماسيون من الطريقة التى دار بها الصّراع عبر أكثر من سبعة أشهر. أذكر أن الزميل عبدالوهاب الأحمدى قال لى حينما سلّمته النشرة : أريد أن أسألك سؤآلا. قلت تفضّل. قال: خلال كلّ هذه الفترة، هل التقيتما أنت ومنصور؟ هل استدعاك للحديث أو أمرك بشيئ أو كلّف الوكيل بأن يبلغك بشيئ؟ قلت: لم يحدث. قال: هذا هو صراع الأفيال إذن ؟ قلت كلاّ هذه مصارعة بين الأنسان وفيل الأحراش!

كان البعض يتصوّرون أن الصراع بينى وبين منصور صراع شخصى، صراع إرادات. وكان البعض يرونه فى حدود موضوع كرامة الخارجية. ولم يتّضح لهم البعد السياسى للصراع إلاّ بعد التحليل الذى نشرته شفهيا داخل الوزارة عقب حادثة منع منصور إعطاء الأذن لطائرات الأعانة المصرية ـ الليبية المتّجهة إلى أوغندا، بأن المهمّة الحقيقية لمنصور بعد فشل انقلاب هاشم العطا كانت هى: عدم السّماح لأحساس سودان ـ نميرى بالأمتنان نحو مصر ـ السّادات ، بأن يتحوّل إلى صداقة حقيقية وتحالف مستمر. هذه الحقيقة كانت واضحة لى تماما قبل عودتى من باريس من واقع أشارات منصور ومن طبيعة اتّصالاته وعلاقاته مع بعض الأجهزة الأوربية. ومنع التقارب والتحالف بين

مصر والسودان، حقيقة مازالت حتّى الآن تشكّل جانبا محوريّا مـن دور منصـور الأقليمى فى المنطقة.

ولم يصبح التكامل بين السودان ومصر فى عهد النميرى ممكنـا إلاّ بعد أن ضعف نفوذ منصـور فى النّظام. وعقب أزمـة منـع الطـائرات المصريـة المتّجهـة إلى أوغندا ضاعف منصور جهوده لأفساد العلاقة فقام نمـيرى بقفل مقرّ شـركة المصنوعات المصريّة، وأسوأ من ذلك قام بسحب القـوّة السّودانية المرابطـة فـى قناة السّويس منذ هزيمـة يونيـو، وحينمـا وقعت حـرب أكتوبـر لـم تشـترك كتيبـة سودانية واحدة فى القتال! وبعد بدء المعارك حاول نميرى أنقـاذ مـاء وجهـه بـأن أرسل قوّة سودانية إلى مصر، فأمر الرئيـس السـادات بوضعها فـى منطقـة السدّ العـالى لأنّ سـير المعـارك فـى جبهــة القنــاة لا يســمح باسـتيعابها هنـــاك.

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

وقد تعاقبت زيارات منصور إلى مصر منذ انقلاب الجبهة الاسلامية بالسودان. وهو يأتى بأوراق اعتماد تضمن له حسن الأستقبال والضّيافة، ويتباحث فى أمور شتّى باسم أطراف عديدة، وظاهر الهدف هو كيفية درء خطر إرهاب الجبهة الأسلامية. ومع أن أحداً لا يطالبه، ولا يتوقّعه، بأن يجعل تطويرعلاقات التكامل بين السودان ومصر فى المستقبل من بين أجندته، إلاّ أنّه يعتقد أنّ لا أحد يدرك أن استكشاف الثغرات ومواطن الضعف لأستمرار إفساد العلاقات السودانية المصرية هو على رأس الأجندة. وهو ينظر إلى فساد علاقة الجبهة الأسلامية بمصر من منظور مختلف تماما عن نظرة بقيّة فصائل المعارضة السودانية؛ فتردّى العلاقات بين البلدين إلى الحدّ الأدنى، حسب مهمّة منصور، هو الوضع المثالى الذى تجب المحافظة عليه حتى بعد زوال نظام الترابى- البشير. من هنا، فقد تقدّمت جميع فصائل المعارضة بأفكارها لتطوير علاقات التكامل السودانى المصرى ما عدا منصور ومن يمثّلهم فى عصر العولمة.

بعد انقلاب الأحوال فى الوزارة وظهور الأتحاد الجديد كقوّة يحسب حسابها، أوقف فضل عبيد إجراءآت فصل عامل المصعد، بل أصبح الوكيل يتعامل معنا بكلّ ودّ ولطف.

ليلة الأتّحاد الأشتراكى.

وجدت دعوة نميرى إلى ممارسة النّقد وحريّة الرأى استقبالا طيّبا، وإن شابه الحذر، من النّقابات والأتّحادات. وأراد النميرى أن يؤكّد صدق نواياه فدعا إلى اجتماع عام تحضره جميع التنظيمات النّقابية فى دار الأتّحاد الأشتراكى، وطلب أن تستعدّ كلّ نقابة واتّحاد للتحدّث عن أوجه القصور فى الوزارة أو

المؤسسة التى تنتمى إليها. ذهبت إلى ذلك الأجتماع الذى احتشد له أكثر من خمسة آلآف نقابى. وحينما حاولت تسجيل اسمى ضمن طالبى الحديث تهرّب منّى المشرفون على تسجيل الأسماء لأنّ منصور خالد كان حاضرا ! رفضوا تسجيل اسمى حتّى آخر لحظة، حتّى مهدى مصطفى الذى كان يسجّل قائمة طالبى الحديث، رفض تسجيل اسمى مع أنّه كان دائم التّشنيع على منصور.

لم يكن أمامى غير اقتحام المنصّة الرئيسية التى جلس عليها نميرى، إلى يمينه منصور ومهدى مصطفى، وإلى يساره جعفر بخيت. توجّهت إلى مهدى مباشرة وصحت بصوت عالٍ: لماذا ترفض وضع الخارجية بين طالبى الحديث ؟ التفت نميرى وارتجف مهدى وتمتم: أ . أ .أ ثمّ بأشارة من نميرى قال: طيب، أهو كتبناه. تحدّث كلّ طالبى الكلمة، ولم يطلبوا مندوب الخارجيّة حتى شعرت بأنّهم لا بدّ أن يكونوا قد شطبوا اسمى من القائمة. وبعد تردّد واضح فى المنصّة، وبعد أن يئست وكدت أنصرف، وبعد أن شعر الناس بانتهاء الأجتماع وبدأوا يتحركون للأنصراف، سمعت صوت نميرى فى الميكروفون: الأخ على أبوسن. كنت آخر المتحدّثين. قلت للنميرى أننى سأتحدّث حسب ما طلبتم فى شئون وزارتى فقط.

تحدّثت عن سوء إدارة الوزير للخارجية، وعن فضيحة إعلان حصول السودان على قرض بخمسة عشر مليون دولار من دول نادى باريس وأعلنت أنّ هذه أكذوبة وأن ملفّات الخارجيّة نفسها تكذّبها، وأنّها كانت خداعا للشعب كلّفه الكثير. ثمّ قلت للنميرى : أنت شكّلت لجنة لوضع أسس السياسة الخارجية فى الأتحاد الأشتراكى برئاسة وزير الخارجية، وهذه اللجنة لا تضمّ دبلوماسيا واحدا فى عضويّتها، وهذا معناه أحد أمرين؛ إمّا أنّ الأتحاد الأشتراكى لا يعترف بأنّ الدبلوماسيين هم الأقدر على تقديم الحقائق التى تساعد على وضع أسس السياسة الخارجيّة، وإمّا أن وزارة الخارجيّة ليس فيها دبلوماسى واحد يؤيّد تنظيمكم هذا.

وعلى أيّة حال فأن هـذه اللجنـة وُلِدت ميتـة، وذلـك يشير إلـى سوء الأدارة فـى الأتحاد الأشتراكى نفسه.

مـع بدايـة كلامـى بـدأ النميرى يكتب ملاحظـات. وبسذاجتى المعهـودة... تفاءلت ! وهو تفاؤل لم يستمرّ طويلا فى مخيّلتى لأننى فى الحقيقـة كنت " عـايز أنتهـىّ".هـذه العبـارة زعـم لـى منصـور خـالد أنّهـا كـانت آخـر عبـارة نطـق بهـا عبدالخالق محجوب حينماً طلب منصور أن يستجوبه قبل قتله. قـال لـى منصـور أثناء زيارته المريبة لباريس: أحببت أن أعرف لِمَ فعل عبدالخـالق مـا فعل ؟. سألت منصور: هل طلبت استجواب فاروق حمدالله ؟ أجاب كالملسوع : لا . لا . لا.!

قبل اشتراكى فى اجتمـاع الأتحـادات والنّقابـات فـى دار الأتحـاد الأشـتراكى اتّصل بى بعض الأتحاديين الذين سمعوا برغبتى فى المشاركة. طلبوا منـى عدم الأشتراك لأنّ ذلك سيفسّر على أنّه تأييد للدكتاتورية. قلت لهم أننـى مصمّـم علـى كشف حقيقة نميرى. فأذا صدق وتحمّـل نقدى ونقـد الآخريـن لنظامـه، فـأنّ ذلـك سيعتبر مكسبا كبيرا لمستقبل الديمقراطية فـى البـلاد، وإذا غضـب واتّخـذ إجـراء ضدّى، فسيتّضح خداعه للشعب السودانى. أنا مستعدّ للتضحية، وأنتم لن تخسـروا شيئا، والشعب سيكسب معرفة الحقيقة.

شاءت الأقدار أن يقـع حـدث مفـرح فـى اليـوم التّـالى لليلـة الأتحـاد الأشتراكى، أبّـان تلـك التطـوّرات الكئيبـة. دخلـت علـى فضـل عبيدفـى الصبـاح، فوجدته ينصت إلى الراديو بشغف شديد. عند دخولى قال لى: المصريين عملـوا عملية عجيبة جدّا. قلـت مـاذا فعلـوا ؟ قـال: عبروا قنـاة السّويس وحطّمـوا خـطّ بارليف. وأخذ يشرح لى كيفية عبور القناة وتسلّق الحائط الترابى الهائل بالحبال.

<u>شعارات قرآنيّة للتهديد على حوائط الحَرَمْلِك !</u>

ممّا أضحكنى كثيرا ـ ولكنّـه ضحـكٌ كالبُكـا ـ إننـى حضـرت فـى اليـوم

التالى، فوجدت حوائط المكتب التنفيذى وقد امتلأت كلّها بلافتات كبيرة مكتوبة بالخطّ العريض تحمل كلٌ واحدة منها آية قرآنيّة تهديديّة من نوع (إنّهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا) و (فأن كان لكم كيدٌ فكيدون) و (وما كيد الكافرين إلاّ فى ضلال) و (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) وغيرها كثير، حتى أصبحت حوئط الحرملك مثل معارض الصحف الحائطية فى الجامعة أو حوائط مصلحة التنظيم بالخرطوم. هذا المكان هو الذى يدخله سفراء الدّول وكبار الزوّار من وزراء الخارجيات للأجتماع بوزير الخارجيّة السودانى. كان واضحا أنّ منصور فقد أعصابه تماما .

كانت كمالة إبراهيم أسحق تقوم ببعض الأعمال الفنيّة التى كلّفها بها منصور. سألتها عن صاحب الخطّ الجميل الذى كتبت به الآيات الكريمة. ضحكت وقالت: المعهد الفنّى طبعا. وأضافت: (لكين إنت ما بالغت يا ودّ أب سن، حتى عوضيّة تقيف معاك ضدّ الوزير؟) وضحكت الوزارة على حرب المنشورات القرآنية ضدّى م· الوزير!

هذه اللافتات الحائطية فجعتنى مرّة أخرى فى منصور، لأنّها كشفت لى أن علاقته بالحضارة والثقافة هى مجرّد قشرة لا تلبث ـ عند حكّة بسيطة ـ أن تكشف عمّا تحتها من جلدٍ سميك التّخلُف. وحينما سأله "قرنق" عن سرّ المصحف الدائم فى حقيبة أوراقه قال: أتفاءل به... مجرّد تفاؤل!!

زائر الليل !

وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتب فضل عبيد لأسمع آخر أخبار المعارك فى سيناء. ولكنّه بدل الحديث عن المعارك أخذ ينظر الىّ ، يهزّ رأسه هزّة الحزين المتحسّر. شعرت أنّ شيئا مّا سيحدث لى. نظرت حولى فى المكتب فرأيت لوحات زيتية رائعة مسنودة على الجدار. توجّهت نحوها، تأمّلتها وسألت: من الرسّام ؟ قال فنّان زائيرى عظيم، وقد أحضرتها معى من كنشاسا ، سأرسلها

لصانع البراويز. أحببت أن أختبر الموقف فقلت له: هلاّ أهديتنى واحدة منها، إنّها من أجمل ما رأيت. ؟ هزّ رأسه تلك الهزّة المتحسّرة وقال: خذ كلّ اللوحات ياعلى، هديّة منّى إليك، أنت تستأهلها.

فى تلك اللحظة تأكّدت أن علاقتى بالخارجيّة انتهت. أخذت اللوحات وذهبت إلى مكتبى وجمعت بعض أوراقى الخاصّة وعدت فى آخر اليوم إلى منزلى بشارع ٤١العمارات.

فى الساعة الحادية عشرة والنّصف قبل منتصف الليل سمعت طرقا على الباب. زائر غريب، قلت لنفسى، ترى من يكون؟ نزلت من الطابق الأول وفتحت الباب، فرأيت سيارة وزارة الخارجية التى يستخدمها الوزير. مرسيدس ضخمة سوداء . لم يكن داخلها غير السائق الذى حيّانى بحزن واضح وعلى وجهه نفس حسرة فضل عبيد ثمّ ـ بتردّد شديد ـ ناولنى مظروفا قال أنّهم أمروه بأيصاله إلىّ فى تلك الساعة. ودّعته وفتحت المظروف، لم تكن هناك مفاجأة.. كان ذلك قرار أحالتى على المعاش. صعدت إلى غرفتى ونمت نوما عاديّا.

حينما ذهبت فى اليوم التّالى لتسوية معاشى، شهدت من وفاء الزّملاء والزميلات من كلّ فئات العاملين ما خفّف عنّى كثيرا. رأيت الأحساس بالفجيعة فى وجوه الدبلوماسيين والأداريين والسكرتيرات والعمّال. قال لى عامل المصعد " السّر" : أنا السبب فى كلّ هذا، ليتك تركتهم يطردوننى ولا تذهب أنت. قلت له: ما حدث لى كان سيحدث بمشكلتك أو بغيرها، فلا تحزن. كنت أبتسم للعاملين الذين خرجوا من مكاتبهم يحيّوننى، وكنت أرى الدّموع فى كثير من العيون. وحينما ركبت سيّارتى عائدا إلى منزلى خطر لى قول المتنبّى:

رحَلْتُ ، فَكَمْ باكٍ بأجفانِ شادِنٍ　　　علىّ ، وكم باكٍ بأجفانِ ضَيْغَمِ
وما رَبّةُ القُرْطِ المَليحِ مكانُهُ　　　بأجزعَ مِنْ رَبِّ الحُسامِ المُصَمّمِ

ردود الفعل على القرار.

سرى خبر أحالتى على المعاش مسرى النار فى الهشيم :

فى أطار مجلس الوزراء: استنكر عدد منهم القرار، واعتبروه ضربة قاضية لمشروع نميرى لتحسين وجه " مايو". وأكثر الغاضبين المستنكرين كان "بونا ملوال " وزير الأعلام الذى ذهب فور سماعه الخبر ثائرا إلى القصر الجمهورى وطلب مقابلة نميرى. وجعل يصيح بأعلى صوته فى مكتب اللواء الباقر أحمد نائب الرئيس: (ما دمتم رفدتم على أبوسن بسبب كلامه فى الأتحاد الأشتراكى فلازم ترفدونى أنا كمان، لأنّى أنا قلت نفس الكلام اللى قالو أبوسن). حتّى الذين لم يكونوا متعاطفين معى ذهبوا إلى جعفر بخيت ونميرى وقالوا أن توقيت إبعادى عن الخارجية كان خاطئا، وأنّ الطريقة كانت غبيّة. وبعض الأشرار قالوا : كان المفروض أن يدبِّروا له مكيدة، وينسبوا أليه بعض الأخطاء والجرائم، ويشكّلوا له لجنة محاسبة تقرّر فصله من الخدمة وبذلك نجد العذر لدى النّقابات والأتّحادات التى أجفلت الآن وفقدت الثّقة.

وفى دوائر النقابات والأتحادات: أنكمش الأتصال مع الدولة وأجهزتها، وعمّ الخوف، وفشلت جميع جهود الدولة فى إقناعها بالتعاون بعد ذلك.

أمّا أحزاب المعارضة: فقد ساد بينها الرّضا والأحساس بالأنتصار. وجعل العم إبراهيم جبريل يباهى بأنّ الرجل الذى كشف زيف نميرى وكذبه وخداعه، إتّحادى صميم.

أمّا ردّ فعل نميرى شخصيّا فقد ظهر بعد ذلك بسنة كاملة تقريبا فى مقابلة صحفية مع مندوب مجلّة " الحوادث " البيروتيّة ، إبراهيم أبوناب، نشرت ـ بعد إبعاد منصور عن الوزارة ـ ضمن تقريرعن السودان بعنوان: النميرى يطيح بمراكز القوى. فى العدد رقم ٩٥٢ بتاريخ الجمعة ١٩٧٥/٢/٧ قال فيه:

(كنت أرصد ادّعاء البعض خارج البلاد بأن كلّ السّلطة فى أيديهم، وأنّ

رئيس الجمهورية لا يملك من أمره شيئا... أحد كبار موظّفى الخارجيـة قـام بنقد أساليب الوزارة فى إطار الأتحاد الأشتراكى الذى يفـترض أنّـه السلطة السياسية فى البلاد. وكان هذا النّقد أمام الرئيس وبحضور الوزير الذى راح ينتفض غضبا لهذا الخروج عن الأنضباط. وتبرّع الموظّف المذكور بتقديم الأثباتـات والوثـائق الخطيّة لأدّعاءآته ووافق الرئيس على رؤية تلك الوثائق. فما كان من الوزيـر إلاّ أن قام فورا بحركة واسعة لأعادة تنظيم وزارته، وقدّم أوراقها للرئيس الذى وقّـع عليها كلّها بحسن نيّة. واكتشف فيما بعد أنّه وقّع فيما وقّع على ورقة بطـرد ذلـك الموظّف. وخبّأ الأمر فى نفسه...! أوراق كثـيرة كمـا يبـدو، وقّـع عليهـا الرئيـس بحسن نيّة... تابعت الذى يتيح لى وقتى أن أتـابع. أجيئ كلّ صبـاح إلـى مكتبـى فأجد أوراقا لا يمكن لمتفرّغ أن ينظـر فيهـا، دعـك مـن واحـد مثلـى كغيرى مـن المسئوولين فى الشرق الأوسط وإفريقيـا علـى حافـة النـار يومهـم طويـل وليلهـم أطول.)

يتّضح من تصريح نميرى أنّ تسـلّط منصـور خـالد علـى الحكم كـان مـن القوّة بحيث يعجـز رئيـس الجمهوريّـة عـن تصحيـح قـرار يرفضـه هـو ووزراؤه وأجهزته السياسية والأمنية، وفوق ذلك هو قرار انتزعه منه منصـور بالمخادعـة والتمويه، كما يقول نميرى نفسه. فكيف وجد منصور مسوّغا للكتابـة ضـدّ مـايو التى كان يحتلّ فيها هذا المركز خلال أخطر مراحلها ؟ كتابات منصور حول هذا الموضـوع تعتمـد علـى مقولـة يردّدهـا هـو مفادهـا أن ذاكـرة الشـعب السـودانى ضعيفة، وأن شعبنا شعب طيب، يكفى أن تصوغ له دعاواك بأسلوب عربى بليـغ وتشغله بخلق معارك وهميّة دارت فى الصّحف وبقليل من " البَكش" فـى الأشـادة بفلان " الفذ" وعلاّن " الرّصين"، وبعد ذلك يمكنك أن تحشو أدمغة الشعب بكلّ التبْنِ والقش الذى فى جعبتك.

منصور يعلن أسباب قراره للصحافة .

كان منصور قد حاول تغطية قـراره الموجّـه ضـدّى أساسـا بأحالـة عـدد آخر من السفراء إلى المعاش، لم يكن بينهـم مـن تحدّث فـى السياسـة إلاّ أبوبكـر عثمان محمد خير الذى دسّت عليه أجهزة الأمن شخصا نقل عنه نقدا للنظـام لـم يعلنه فى أى مكان.

ذهب الصّحفيون يسألون منصور حول ردود الفعل السّـلبية لقـراره، ولمـاذا اتّخذه ؟ وخرجت الصحف فى اليوم التالى بتصريح رسمى فى الصّفحات الأولـى من وزير الخارجيـة يقـول إنّ أسباب قـراره بأحالـة الدبلوماسـيين للمعـاش هـى: السّكر، ولعب القمار، وعدم الكفاءة (هكذا)!

لم أكن بحاجة إلى الرّد على تصريح الوزير فقد استهجنه واحتقره كـلّ مـن يعرفنى ومن لا يعرفنى.

مع تصاعد ردود الفعل القويّة ضدّ إبعادى، قرّر نميرى تكليف جعفر بخيـت بالتحقيق حول قرار وزير الخارجية إحالتى للمعاش. اتّصل بـى مهـدى مصطفـى وحدّد لى موعدا مع جعفر بخيت. وجدت جعفر مهموما جدّا بما حدث، ولـم نكـن قد التقينا من قبل، فجعل الجلسة الأولى للتعارف. كـانت جلسـة طيّبـة. وجعفـر ـ عكس منصور ـ يخلق جوّا أدبيّا وشعريّا على الفور. فى آخر الجلسة قلت له: لـو أن نظامكم هذا أخذ بنصيحة الشيخ عبداللـه البنّـا لـلرئيس نميرى يـوم المصالحـة بينه وبين الناظر منصور العجب لما وصلتم إلى هذه الحالة. قال لى : ماذا قال ؟ فأنشدته بيتى البنّا موجّها خطابه لنميرى:

وكم نَفَرٍ يَرْجونَ وصْلَكَ أَحْجَمُـــوا حياءً ، ولا بعدٌ لديـــهم ولا صَدُّ
فَنَقِّبْ ، وقَرِّبْ تَبْرَهم، وانْبُذ الحَصى خذ العفو واصفح ، فالجفاءُ له حدُّ

أخرج قلمه وقال: أملِ علىّ هذه الأبيات، وأخْبِرني أيـن أجـد القصيـدة. فلمّـا فرغت من إملاء البيت الأول ووصلت إلى منتصف البيـت الثـانى، توقّـف وقـال:

بلاش البيت الثانى! قلت مستغربا: لِمَ تنزعج وكلّنا نعرف إنّك لست من الحَصَى؟ قال: أشكرك.. ولكن سينزعج الكثيرون!! ثمّ طلب إلىّ أن أعدّ تقريرا للرئيس عن وجهة نظرى حول أسباب ما حدث.

فوجئت فى مكتبة الأتحاد الأشتراكى، حيث جلست أكتب تقريرى، بعدد من كبار المسئولين به يطلبون منّى ـ همسا ـ أن أضمّن تقريرى تفاصيل وافية عن "مخازى " منصور فى باريس وأروبا. قالوا لى: أنت الوحيد الذى يعرفها حقّ المعرفة. قلت لهم:عندى من أسباب قصور الأداء والأضرار بالوطن ما يكفى لأقناع هذا النظام بخطر منصور وعدم جدواه فى المجال الدّولى. أمّا المخازى، فابحثوا عنها عند غيرى. السياسيون، عموما، فى الأتحاد الأشتراكى كانوا يخشون منصور ولا يشجّعوننى إلاّ همسا.أمّا الموظّفون فقد وقفوا معى بدون شروط أو حدود لأنّ القضيّة بالنسبة لهم أصبحت قضية نقابية ومهنيّة، باعتبار أن المتضررّ رئيس اتحاد نقابى. وتبرّعت " علوية " جارتى القديمة فى الملازمين بطباعة تقريرى على الآلة الكاتبة.

مارس منصور ضغوطا رهيبة على جعفر بخيت لكى لا يقدّم تقريرى إلى نميرى. ونجح! عقد صفقة مع جعفر، كما أخبرنى القوم فى الأتحاد الأشتراكى، ثمّ أجبر قيادات الأتحاد الأشتراكى على " تطفيشى " من عملية متابعة نتائج تقريرى. وحينما أقفل مصطفى عبّادى، رئيس الحرس، بوابة الدار فى وجه سيارتى لم أعد اليهم مرّة أخرى . تأكّدت أن الصّفقة بين منصور وجعفر هى نهاية القصّة. وسافرت إلى مصر، وتقدّمت للعمل بالجامعة العربيّة.

حتى فى مصر لاحقنى منصور. أرسل إلى السفارة بالقاهرة وأمرها بعدم الموافقة على تعيينى بالجامعة. وحينما أخبرت بابكر عوض الله بذلك أستغرب جدّا واتّصل بالسفير محمد ميرغنى وقال له: هذه أول مرّة فى تاريخ السودان تقوم فيها الحكومة بفصل موظّف من الخدمة ثم تتابعه فى الخارج لتحرمه من

لقمة العيش. قال له محمد ميرغنى: أوافقك ولكن ما باليد حيلة. هذه تعليمات الوزير المباشرة. وسأبلغك لتتحدّث معه حينما يحضر قريبا إلى القاهرة لعلّه يخجل!. قلت لبابكر إننى اكتشفت أنّ طاقم مكتب محمود رياض، الأمين العام للجامعة وزير خارجيّة عبدالنّاصر، من زملائى الدبلوماسيين المصريين بلندن. وقد حدّثوه عنّى حديثا طيّبا جدّا. قال لى سأذهب إذن إلى محمود رياض وأتحدّث إليه مباشرة. وفعلا ذهب بابكر. فهم محمود رياض الموقف على حقيقته فاتّصل بسفير السودان وسأله عن سبب عدم وصول موافقة بتعيين خبير تريده الجامعة العربيّة ؟ وفهم من أجابة محمد ميرغنى نفس ما فهمه من حديث بابكر واتّخذ قراره بتعيينى. الغريب فى الأمر أن "الموافقة" المطلوبة للجامعة العربية، ولجميع الهيئآت الدولية ليست موافقة بمعنى الترشيح أو التزكية، إنّها جملة واحدة هى: لا مانع لدى حكومة كذا من تعيين فلان.!!

لقد أهدرت جزءا كبيرا من هذا الكتاب للظاهرة السودانية التى عرفت باسم: منصور خالد. وكلّما هممت بالخروج من القصّة طالعنى وجه المجذوب المنكسر وهو يحكى لى قصّة استتابة منصور خالد له بشأن إهداء ديوانه.

سألنى المجذوب بعد حديثى إلى نميرى فى ليلة الأتّحاد الأشتراكى، وبعد إحالتى على المعاش: أين كان اتّجاه نظرتك أثناء حديثك فى تلك الليلة ؟ قلت: فى عينى نميرى ومنصور بتركيز شديد. قال: إذن فقد ذبحتَهما. أنا لا أعرف وجها كوجهك السّمح الطيّب الهادئ، يمكن أن يتحوّل إلى خنجر قاتل فى ثانية واحدة عندما تغضب.. و... وجوه الرّجال خَناجِرٌ .

قلت: كيف وقد أصبحت الآن مشرّدا بلا عمل ؟ قال: مثلك لا يخشى شيئا.. ما فعلتَه بنظام مايو أخطر بكثير ممّا فعله بك.. لقد أنهيتَ مصداقيّة نميرى. النقابات كلّها أجفلت من الأتّحاد الأشتراكى بعد إحالتك إلى المعاش، واتّضح للشعب السودانى أنّ النّميرى كاذب مخادع جبان. ماذا تعنى إحالتك للمعاش إزاء

ذلك ؟... لقد راهنت على أمر خطير يهمّ السودان كلّه، رهانا ليس كرهان منصورعلى سباق الخيول!. فى تلك الجلسة حدّثنى المجذوب حديث الصادق الصّدوق عن حكمة الحياة، وأنّ الله أراد بى خيرا، وأقسم أننى سأخرج من الخارجية إلى ما هو أنفع لى وأبقى، وأننى سأنطلق إلى عالم أكثر رحابة وأمنا. فهدأت نفسى واطمأنّت.

وخلال الحديث سألته ـ بمناسبة أشارته إلى منصور وولعه بالمراهنات ـ عن ظاهرة تفشّى لعب القمار بين كبار القياديين فى السياسة والحكم فى السودان؟ فقال ساخرا: الشعب السودانى شعب من الفنّانين. والقياديون فيه، خاصة أصحاب الطموحات السياسية، هم كبار الفنّانين. وهم مولعون بألغاء عقولهم ليشعروا بالحالة " الفنيّة" ! ولأنّ المشروبات الكحولية ليست كافية إلاّ للنشوة البسيطة التى تكفى المبدعين، فأنّ الفنانين العباقرة من القياديين السودانيين يلجأون إلى القمار لأنّه يحقّق الألغاء الكامل للعقل! نحن فى مسألة الحكم والسياسة بين نارين؛ جهل الطائفيّة وعصبة الهاربين من ذكائهم، وبين الأثنين تحالف غير مكتوب!

مع محمود رياض... فى الجامعة العربيّة

صدق حدس المجذوب؛ فقد وجدت فى العمل مع محمود رياض، الأمين العام للجامعة العربيّة، ووزير خارجية عبد الناصر قبل ذلك، متعة لا تعادلها متعة. خاصة وأنّه أسند إلىّ مهمّة كانت تمثّل تحدّيا للعرب جميعا ألا وهى مهمّة بناء التعاون العربى الأفريقى فى عصر ما بعد الأستعمار.

كلّفنى محمود رياض بأنشاء إدارة جديدة بالأمانة العامّة هى الأدارة الأفريقية، وطلب منّى وضع تصور عاجل لتنفيذ قرارات وزراء البترول العرب بتخصيص مبلغ مئتى مليون دولار لمواجهة معاناة الدّول الأفريقية من نقص البترول الذى نشأ عن الحظر البترولى العربى عن الدول المتضامنة مع اسرائيل فور اندلاع حرب أكتوبر، وهى الدّول التى تتولّى توزيع البترول فى كافّة أنحاء إفريقيا.

ومحمود رياض من الشخصيات العربية النّادرة ، ذكاء ، وكبرياء ، وحنكة، وشجاعة، ونزاهة، ومقدرة على القيادة، وتمرّسا بصعوبات العقل العربى والغربى والصهيونى. عملت معه أربع سنوات لم تحدث خلالها بينى وبينه مشكلة واحدة، ولا قامت صعوبة، ولا حدث جدل أو تآمر، ولا غيرة أو عراقيل. فتح لى المجال لأوظّف خبرتى وعلاقاتى فى أداء واجباتى فخرجنا ـ هو وأنا والعرب ـ بأروع النتائج فى إفريقيا؛ وهو الذى أوقف مؤآمرات المستعمرين فى إفريقيا بعد حرب أكتوبر، ووضع حدّا للمدّ الصهيونى، وكسب قادة إفريقيا إلى ساحة التعاون العربى الأفريقى، ونجح فى عقد أوّل وآخر مؤتمر قمّة عربى ـ إفريقى فى التاريخ حضره أربعة وستّون رئيس دولة إفريقية وعربية، وأرسى ميثاق التعاون العربى الأفريقى، ونظّم وقنّن أعمال اللجنة الوزارية العربية الأفريقية، واستخرج موافقة القيادات العربية على أنشاء المصرف العربى للتنمية

الأقتصادية فى إفريقيا، وصندوق تعويضات حظر البترول للدول الأفريقية، وصندوق المعونة الفنيّة العربية لأفريقيا، ووضع الأسس المنهجية الكاملة لكلّ ما تحقق للعرب فى إفريقيا بعد حرب أكتوبر، فهو بحق: منقذ العرب فى إفريقيا. ومع الأسف فأن الكثيرين لا يعرفون ذلك. وإنّه لشرف عظيم لى، وسعادة ما بعدها سعادة أنْ كان لى فى كلّ ذلك دور متواضع، وأنّ صداقة حميمة جمعت بينى وبين ذلك العملاق استمرّت دافئة ودودة حتى بعد أن ترك الجامعة، وتركتها، وحتى فارق هذه الحياة.

كان من القلائل الذين عملت معهم، فلم أشعر أن الذكاء يزعجهم، أو أن الخبرة تعقّدهم، أو أن احترام النّفس يكشف وضاعتهم، أو أن جودة الأداء تفضح عجزهم، أو أن التنظيم يربك طبيعتهم، أو أن الأدب والشعر يضيع وقتهم!!

سعِدَ لى المجذوب، وسعد بى، حينما بدأتْ هذه المرحلة من حياتى. كان يصرّ على أنّها نبوعته، وهو أبن سادات البشر!

كان مجلس الجامعة قد أجاز توصية لوزراء البترول العرب ـ بمبادرة من محمود رياض ـ بأنشاء صندوق القروض للدول الأفريقية بهدف تقديم عون فورى يعوّض الدول الأفريقية عن خسارتها بسبب الحظر البترولى. وتمّ الأتفاق على أن يترك أمر تحديد نصيب كلّ دولة إفريقية للأفارقة، بناء على معايير تتفق عليها الدول الأفريقية.

وهنا يظهر منصور خالد فى الصورة مرّة أخرى! كان هو الذى خطّط مع "ماليتشيللا" وزير خارجية تنزانيا زيارة الوزراء الأفارقة ـ الذين عرفوا فيما بعد بلجنة السبعة ـ إلى القاهرة للمطالبة بحلّ مشكلة حظر البترول العربى. وقد قبلت الجامعة العربية إقتراح الوزير السودانى والوزير التنزانى بترك مسألة تحديد أنصبة الدول للأفارقة بحسن نيّة. ولكن لجنة السّبعة هيمن عليها منصور وماليتشيللا وانفردا بوضع خطّة جهنّمية للسيطرة على المئتى مليون دولار! وقد كتما تلك الخطّة عن الدّول بالرغم من استخدامهما لخبرات الأدارة الأقتصادية بمنظمّة الوحدة الأفريقية فى وضع المعايير التى تم بمقتضاها تحديد أنصبة الدول فى صندوق القروض.

وبينما بدأت الدول الأفريقية تجأر بالشكوى، بل وهدد وزير كينى بمنع مياه النيل عن العرب، كان منصور وماليتشيللا يحاولان بألحاح شديد أن يقنعا محمود رياض بتحويل المئتى مليون إلى حساب خاص يتبع بنك التنمية الأفريقى، وتكون لجنة السّبعة، أى الرئيس ماليتشيللا ونائب الرئيس منصور، هى الجهة التى تتولّى توزيع الأنصبة على أصحابها عبر السنوات القادمة.! بل وبلغت بهما الجرأة درجة أقتراح أن يحدّدا هما الحدّ الأقصى الذى يسمحان للدولة المعنيّة بأن تسحبه من حقوقها الممنوحة لها من العرب !! وبالطبع أدرك محمود رياض الهدف الحقيقي لمنصور وماليتشيللا، فلم يوافق على طلبهماالقاضى برهن العلاقات العربية الأفريقية عندهما. قال لهما إن الغرض من هذا العمل هو أن

تتلقى الدول الأفريقية تعويضا " فوريّا " عن الأضرار التى تعانى منها بسبب الحظر البترولى، وليس هو وضع الأموال فى بنك وصرفها عبر سنوات. ولكنّما ظلاّ يراوغان ورفضا دعوة لجنة السّبعة إلى الأنعقاد، وتأزّمت الأمور بين الدول العربية والأفريقية إلى درجة خطيرة، مع استمرار منصور وشريكه فى رفض أمداد الجامعة بأنصبة الدول التى وعدوا بتقديمها.

عند تلك المرحلة، دخلت أنا فى الصورة. لقد ظنّ منصور خالد أنّه تخلّص منّى إلى الأبد، فأذا به يجدنى أمامه أمسك بزمام الأمور فى مواجهة أكبر مشروع شيطانى خطّط له فى حياته!

فى ضيافة عيدى أمين!

وبينما كنت أجلس مع محمود رياض فى مكتبه نحاول أن نجد مخرجا من الحرج، إذا بمدير مكتبه يعلن عن وصول سفير يوغندا بالقاهرة لأمر هام وعاجل. دخل السفير وسلّم رسالة للأمين العام من الرئيس الأوغندى عيدى أمين يطلب فيها من محمود رياض الحضور فورا إلى كمبالا ليشرح له ما يقوله ماليتشيللا ومنصور من أن العرب يحاولون إذلال الأفارقة بجعلهم يتسلّمون القروض منهم بطريقة مهينة!! وأضاف السفير أن مكالمة هاتفيّة من الرئيس عيدى أمين ستصل إلى الأمين العام. وفعلا لم يطل الأنتظار فقبل نهاية اليوم تحدّث عيدى أمين إلى محمود رياض وقال له: بصفتى رئيس دولة إفريقية شقيقة، أطلب منك رسميّا أن تحضر فورا إلى كمبالا لأمر هام!

فاجأنى محمود رياض بقوله: أستعد، سنسافر إلى كمبالا غداً. ولم يصطحب وزير خارجيّة عبدالناصر معه الحاشية والحشم. سافر معنا حارسه الخاص فقط. كانت رحلة مثيرة. كانت سمعة عيدى أمين قد بدأت تسوء على يد أجهزة الأعلام البريطانية بعد أن طرد الآسيويين حملة الجوازات البريطانية

وغمر بريطانيا بالآلآف المؤلّفة منهم. وكانت تلك هى الزيارة الأولى لمحمود رياض ولى وللحرس إلى يوغندا. فى الطريق من مطار عنتبّى إلى كمبالا بهرتنى خضرة البلاد وجمالها فتذكرت عبارة ونستون تشيرشل حينما زارها: Uganda is the largest garden in Africa يوغندا هى أكبر حديقة منزليّة فى إفريقيا. قلت فى نفسى: لقد ضنّ العجوز " الغتيت" على يوغندا بالوصف الصحيح. المفروض أن يقول: يوغندا هى أكبر حديقة منزلية فى العالم. وإنّها لكذلك. كانت عبارة تشيرشل قد استوقفتنى لبلاغتها منذ زمان، فاشتهيت أن ازورها. وها أنا أدخلها مع أبناء شعب يعرفون معنى خضرة الأرض وأهميّتها؛ فبينما ظهر الخشوع لعظمة الطبيعة على وجه محمود رياض، التفت إلىّ حارسه المبهور يحثُّنى على مشاهدة الخضرة الدّاكنة وقال: شوف الأرض دى! دا أنا أزرع الحديد هنا يقوم! قلت فى نفسى: يا له من خيال! ولكنّ المصريين ـ السودانيين هم الذين اخترعوا الزراعة، ولا أعرف لماذا نسيها السودانيون بعد الأحتلال الأنجليزى ثم الأستقلال؟.

فى كمبالا، ذهبنا فورا إلى مقابلة الرئيس. ويا لها من مفاجأة. الرجل الذى أخافونا منه إلى درجة الترويع، يتحدّث بهدوء ورقّة، مؤدّب متواضع. ليس فيه ما يزحم النظر إلاّ ضخامة جسمه الذى يحمل وجها طفوليّ الملامح والتعبير!! .

قال عيدى أمين لمحمود رياض: أنا لم أطلب حضورك فقط من أجل معرفة ما حدث بالنسبة لكلام ماليتشيللا ومنصور خالد حول رغبة العرب فى إذلال إفريقيا، أنا دعوتك أساسا لأطلب منك التوسّط بينى وبين السودان. نحن والسودان أشقّاء، والسودان يتحرّش بأوغندا استجابة لضغوط الدول الغربيّة التى تكرهنى لأننى أولاً مسلم، وثانيا لأننى طردت التجارالآسيويين الذين كانوا يمتصّون دماء الشعب بالأستيراد، ولا يبنون المصانع. يوغندا كانت بلدا إسلاميّا حتى دخلها الأنجليز. أنا أريد وحدة سودانية أوغندية، وأرجوك أن تقنع الرئيس نميرى

بالموافقة على مدّ طريق بين كمبالا وبورتسودان لكى تستغنى يوغندا عن موانئ كينيا وتنزانيا الذين لا تستقرّ علاقة يوغندا معهما أبدا.

أسهب عيدى أمين فى شرح مخاوفه من المؤآمرة التى تحاك ضدّه عبر عناصر معيّنة تابعة للغرب فى السودان، وطلب من محمود رياض بمزيد من الألحاح أن تتدخّل الجامعة العربية لدى السّودان ليتمّ التصالح والوفاق بين الدولتين. بعد ذلك تحدّث عن مسألة العون العربى لأفريقيا، فشرح له محمود رياض الموقف، وأكّد له أستعداد الجامعة لتسليم القروض إلى أصحابها فورا، وأن تحويلها إلى بنك التنمية الأفريقى وتعيين لجنة تديرها سيؤخّر وصولها إلى أصحابها. قال عيدى أمين: الآن فهمت غرض ماليتشيللا ومنصور، وسوف أشرح الأمر لـ " مْزِى " - يقصد جومو كينياتا - بالتلفون الآن. أما من ناحية يوغندا فسوف نتعاون معكم فى مساعيكم لأيصال القروض إلى أصحابها مباشرة ودون المرور بالسماسرة! وفعلا تحدّث عيدى أمين مع كنياتا.

مع الأميرة مس بَجَايا.. فوق مساقط النيل.

أحدثت زيارة الأمين العام للجامعة العربية إلى دولة فى قلب إفريقيا - وهى الأولى من نوعها - دويّا هائلا فى شرق إفريقيا. فقد أثارت، من ناحية،غيرة كينيا وتنزانيا، ومن ناحية أخرى أربكت خطط منصور خالد وماليتشيللا الذين علما بالخطاب الذى أرسله الأمين العام قبل مغادرته القاهرة إلى منظّمة الوحدة الأفريقية أحتجاجا على تأخير أرسال كشف توزيع المعونات مما زاد من قلقهما على الخطّة الجهنّميّة.

وصلنا كمبالا يوم الأثنين وكان المفروض أن نغادرها يوم الأربعاء على الخطوط الكينية عبر نيروبى. وبدأ سفيرا كينيا وتنزانيا يمهّدان السبيل لنزول محمود رياض فى نيروبى ودار السلام فى طريق عودته، وقبل أن يتلقيا أمرا

بتوجيه دعوة رسمية قال عيدى أمين لمحمود رياض: متى تغادر كمبالا؟ قال: غداً بالطائرة الكينية. قال عيدى أمين: هل يجوز أن يحضر وزير خارجية مصر وأمين الجامعة إلى يوغندا ويغادرها دون أن يشاهد مساقط النّيل ومنابعه؟ قال رياض: لا يجوز ولكن ليس لدىّ وقت، وإذا تأخرت عن طائرة الغد فليست هناك طائرة أخرى إلاّ بعد أربعة أو خمسة أيام. قال عيدى أمين: وماذا تفعل طائرة الرئيس إذا لم تحمل الأمين العام للجامعة العربية إلى القاهرة؟ هيا، هيا، لقد أعددت لكم طائرة هليكوبتر لتحملكم إلى مساقط النيل، وستصحبكم وزيرة الخارجية، مرافقتكم الرّسميّة. وخلال نصف ساعة كانت الهيليكوبتر تحلّق بنا فى الطريق إلى مساقط النيل الجميلة ومعنا مس بجايا، وزيرة الخارجية رائعة الحسن والجمال.

وخلال استعراضنا لنتائج رحلتنا وسط خرير المياه والمناظر الخلاّبة، اتّفقنا على أن أتوجّه أنا إلى إديس أبابا مباشرة لأبلّغ أحتجاجى على تأخير وصول ردّ من لجنة السبعة ع ى طلب الجامعة العربيّة بأرسال قرارها حول أنصبة الدول من صندوق القروض، وأحاول، فى نفس الوقت معرفة ما يدور والأسباب الحقيقيّة لتأخير وصول الرد.

كانت مس بجايا ساحرة حقّا. فى قسمات وجهها ملامح الأميرات التى تشهد بحقيقتها، فهى من بيت ملوك يوغندا، وبنت آخر الملوك " الكاباكا". كانت طويلة فارعة، ترتدى دائما فستانا أبيض طويلا مزركشا بالدانتيل، فى المناسبات الرسميّة، كما تفعل أميرات الزمن الجميل. سودانيّة الملامح، سنغالية القوام، أنجليزيّة الحركة، فرنسيّة الأيحاء، إفريقيّة العطاء، غَنُجوجٌ دافئة. ولست أدرى.. هل كان من قبيل المصادفات أن جعلوا دار نزولنا لصق دارها؟ أم كانت تلك إحدى نفحات القدر السعيد؟.. أيّاً كان مصدر الأرادة.. فقد كانت إرادة حكيم!

أنزلتنا الهيليكوبتر فى مطار كمبالا، فى نفس اللحظة ـ ويا لمحاسن

الصّدف ـ التي نزلت فيها طائرة منصور خالد الخاصّة التي أعاره إيّاهـا " تـايني رولانـد " ـ إيّاه ـ قادمـا مـن الخرطـوم فـي طريقـه إلـى دار السـلام، ليلحـق بماليتشيللا الذي أبلغه بزيارتنا إلى كمبالا والخطر الذي بدأ يحدق بالخطّة الجهنّميّة. أتجهتُ إلى منصور وسلّمت عليه، وكأنّ شيئا لم يكن.

سباق بالطائرات... ومعارك بالتلفونات!

ومنذ تلك اللحظة بدأ سباق محموم ـ بالطائرات ـ بيني وبينه، هدفه من ناحيته إخفاء آثار المؤآمرة، ومن ناحيتي الوصول الى الوثيقة والحقيقة.

كان نزوله في مطار كمبالا أضطراريا للتزوّد بالوقود. لم يقابله أحـد مـن المسئولين، ولم يطلب هو مقابلـة أحد، وذلـك مـن أغـرب التصرّفـات مـن وزيـر خارجية. عبّأ طائرة تايني رولاند بالوقود، وأقلع قبل أن نغادر نحن المطار!!

قرّرت أن أمرّ أوّلا على سفارة السّودان فـي نـيروبي لأنّ فيهـا السـفير الشّجاع مصطفى مدنـي. قلـت لنفسـي إنّ هنـاك أمـلا فـي أن يعطينـي مصطفـى صـورة مـن الوثيقـة، لأنّـه يعـرف أنّ الأمـر خطـير خاصّـة وأنّـه سـمع تهديـدات السياسيين الكينيين ضدّ العرب إذا لم تصل المعونة العربيّة فورا. ولكنني وجـدت مصطفى مدني خائفا، جزعا، متهرّبا، فأدركت أنّ منصور سبقني إليـه. وأدركـت مرّة أخرى مدى قوّة منصور وسطوته. كنت أتصوّر أنّ مصطفى مدني من القلّـة التي لا يتملّكها الخوف من الوزراء في الخارجيّة، فلمّا رأيت الخـوف فـي وجهـه عذرته،لأنّ منصور نجح في إخافة رأس النّظام جعفر نميري بسطوة الأجهـزة الأجنبيّة، فلماذا لا يرتعب منه السـفراء؟... دفعنـي وجـه مصطفـى المهـزوم إلـى مطار نيروبي مباشرة.

كانت تلك أوّل زيارة لي إلى إديس أبابـا. فخـلال عملـي الدبلوماسـي كنـت خبير الخارجية في الشئوون الأوربيّة، ولم أكن قد زرت أيّ بلد إفريقي أو عملت

فيه. توجّهت من المطار إلى فندق " وِبِىَ شِيبِللى "، ومنه مباشرة إلى مبانى منظمة الوحدة الأفريقية. لم يكن الأمين العان موجودا. طلبت مقابلة المسئوول فى غيابه فأحالونى على مدير الأدارة الأقتصادية. كانوا ينظرون إلىّ وكأنّنى قادم من كوكب آخر.. الجامعة العربيّة ترسل مندوبا إلى المنظمة ؟ هذا أمر لا يصدّق! أخرجت جواز سفرى وبطاقة الجامعة وصورة خطابنا إلى لجنة السّبعة.

فى البداية سألونى : لماذا لم تحوّلوا المئتى مليون إلى بنك التنمية الأفريقى حسب الأتّفاق ؟ فشرحت لهم رغبة الجامعة فى توزيع المبلغ بأسرع ما يمكن نسبة للضائقة البترولية، وأنّه ليس هناك اتّفاق بتحويل المبلغ إلى البنك الأفريقى شعرت أن بعضهم يعرف شيئا عن حقيقة الموقف ولا يريد الكلام، أو لا يستطيع الكلام.. فى الأمر شيئ غامض، فقد قال لى مدير الأدارة الأقتصادية أن الوثيقة التى جئت أطلبها مع وزير خارجية تنزانيا، وليس لديهم نسخة منها، وكان واضحا أنّه يكذب، ولكن ماذا أفعل ؟ قضيت نهار اليوم كلّه بالمنظّمة أحاول أن أجد من يعيننى، فل، أجد. عدت إلى الفندق مثقلا بالفشل والهزيمة. أتّصلت بزملائى فى السفارة السودانية، فقالوا أنّهم لا يعرفون أىّ شيئ عن وثيقة توزيع المعونة العربية، فمنصور ـ بالطبع ـ لم يشرك وفد السودان لدى المنظّمة فى خطّته الجهنّمية للسيطرة على المئتى مليون دولار.

وبينما أنا أشدّ شعرى فى محاولة لأن أجد مخرجا من هذه الورطة دقّ جرس التلفون من الأستقبال.. هناك شخص يريد أن يراك! نزلت فوجدت شابّا شكله صومالى كنت رأيته فى المنظّمة. أنتحى بى جانبا وهمس: إسمع! أننى أعرف تماما خطّة منصور وماليتشيللا، وهى خطة قذرة يريدان بها السيطرة على المنظمة وابتزاز الدول ونهب أرباح المبلغ. أنا أحضرت لك صورة من الوثيقة، ولكن لن أسلّمها لك إلاّ إذا وعدتنى بأن لا تخبر أحدا لأننى خبير فى الأدارة الأقتصادية، وأنا أكره هذين اللّصين! فوعدته بالأيمان المغلّظة وأنا بين

مصدّق ومكذّب، فأخرج الوثيقة. نظرت إليها فأذا بها تضمّ نصيب كلّ دولة بناء على معايير موضّحة، وتجعل لكلّ دولة جزء من نصيبها غير معلوم تصرفه كلّ سنة حسب ما يقرر مجلس الأشراف على الصندوق: منصور وماليتشيلا!! شكرته وودّعته، وصعدت فورا وحزمت حقائبى وطلبت الحجز لى بأول طائرة تخرجنى من أديس أبابا، فقد سيطر علىّ إحساس بأننى أملك كنزا لا يساويه كنز على وجه البسيطة، وأنّ منصور وماليتشيلا لو عرفا أننى حصلت على الوثيقة فلن يسمحا لى بالخروج من أديسأبابا حيّا. وأظنّنى كنت على حق فى ضوء ما فعلوه بالأدارة الأقتصادية بعد وصولهما متأخرين فى السباق الرهيب بالطائرات. ذلك الشاب الصومالى: فرح ورسما، سيعانى من خدمته لى.

خلال ساعات كنت أحلّق فى الجو عائدا إلى محمود رياض بالكنز الغالى الذى كنت أضمّه إلى صدرى... أخرجه ـ بحذر شديد ـ من حين إلى حين داخل الطائرة لأنظر أليه ثم أعيده إلى جيب البدلة، وأحتضنه!

منذ مغادرتى كمبالا دارت معركتان دون هوادة؛ إحداهماعبر العواصم بالتلفونات، والأخرى عبر الأجواء بالطائرات:

فقد انضمّ جومو كينياتا إلى عيدى أمين فى إجراء تحقيق مع وزراء لجنة السبعة الأفريقية بالتلفون، حول قصورها وإهمالها المشين الذى دفع الأمين العام للجامعة إلى الجضور بنفسه إلى بلد إفريقى مستفيد ليلاحق الوثيقة التى كان من المفروض أن تهتمّ الدّول المستفيدة بأرسالها إليه بأسرع ما يمكن. وفى دار السلام تظاهر جوليوس نايريرى بأنّه يحقّق مع وزير خارجيّته ماليتشيلا بناء على طلب كينياتا، حول أسباب التأخير، بينما كان منصور وماليتشيلا ـ بموافقة نيريرى ـ يجريان عشرات المكالمات مع عواصم أعضاء لجنة السّبعة لأجتماع عاجل يقرّر الأصرار على تحويل المعونة العربية إلى بنك التنمية الأفريقى بدلا من توزيعها مباشرة بواسطة العرب!

أمّا معركة الطائرات فقد بدأها منصور من الخرطوم بطائرة تاينى رولاند إلى دار السلام، ثم تبعته طائرات وزراء خارجيّة الدول إعضاء لجنة السّبعة فى سباق محموم هدفه أتخاذ القرار ثمّ الأتّجاه إلى أديس أبابا لقطع الطريق على مندوب الجامعة العربية ومنعه من الوصول إلى الوثيقة. ولكنّهم تأخّروا فى الوصول!

بمجرّد تسليمى الوثيقة إلى محمود رياض الذى استقبلنى بحرارة بالغة حينما علم بأننى نجحت فى الحصول عليها، تحادث تلفونيّا مع سفير يوغندا ليبلغ الرئيس عيدى أمين باستعداده لتسليم المعونة العربية إلى من يرغب فى تسلّمها. وأبلغه بأنّ شروط الأستلام هى أن يكون الشيك باسم حكومة البلد المعنى، وليس باسم الرئيس أو وزير الخارجية أو أى شخص آخر، وأن من يتسلّم الشيك لا بدّ أن يحمل أوراق اعتماد لهذا الغرض موقّعة من رأس الدّولة كأوراق أعتماد السّفراء.

البحث عن " نصّاب " سودانى باسم الجامعة العربية!

كان منصور وماليتشيللا وبعض أعضاء لجنة السبعة قد تمترسوا فى أديس أبابا، واستمرّوا فى إجراء الأتّصالات المحمومة ببقية الدّول الأعضاء لكى ترفض استلام المعونة من العرب مباشرة حفاظا على كرامة إفريقيا! وفى نفس الوقت طالب منصور بطرد فرح ورسما من المنظّمة بعد اعترافه بأنّه سلّمنى الوثيقة، على أساس أننى شخص انتحل صفة مندوب الجامعة العربيّة ، وأنّه لا علاقة لى إطلاقا بها. وبسبب تأكيد منصور على الفرية التى أطلقها صدّقه الجميع بمن فيهم فرح ورسما نفسه!! ولكن الأمين العام للمنظّمة قرر ـ قبل أن يطرد فرح ورسما ـ أن يرسل مدير الأدارة الأقتصاديّة إلى القاهرة ومعه فرح لكى يتأكّد ممّا إذا كانت المنظّمة قد وقعت فى فخّ نصبه لها نصّاب محترف كما أكّد منصور!... وصلتنا أشارة من المنظمة بوصول وفد منها، ورجاء استقباله.

لم نكن نعرف طبيعة الوفد ولا مهمّته، فذهبت أنا ألى المطار لاستقباله. وصلت متأخرا قليلا بعد هبوط الطائرة ودخول الركاب إلى صالة العفش. رايتهما يتلفّتان بانزعاج شديد، ويتفرّسان فى وجوه الناس. ولن أنسى منظر فرح ورسما حينما رآنى. ترك عفشه وأخذ يصيح بأعلى صوته كالمجنون: This is him.. This is him.. This is him هذا هو.. هذا هو.. هذا هو. حتّى التفتّ كلّ من بالصّالة إلى حالته الهيستيريّة وهو ما زال يصيح مخاطبا الشخص الذى معه: أنه حقيقى وليس نصّابا.. أنه حقيقى..وليس منتحلا.. إنه حقيقى، حقيقى، حقيقى! ثمّ حكى لى العذاب الذى أدخله فيه منصور وماليتشيللا بسبب تلسيمه تلك الوثيقة التىّ. وكيف أنهما شكّكاه فى نفسه وعقله!

أنتظرنا أسبوعا مشحونا بالتوتّر، ووقف محمود رياض ببسالة فى وجه محاولات جزائر بومدين الصيد فى الماء العكر كعادتها، بمحاولة تملّق المشاعر المعادية للعرب فى أفريقيا. وفى اليوم العاشر، وصل مندوب مفوّض من عيدى أمين لاستلام المعونة. وبدأ الأنهيار فى استحكامات منصور وماليتشيللا يتفاقم مثل كرة الثّلج. تقاطر مندوبو الدول الأفريقية على القاهرة بالعشرات وخلال فترة وجيزة تسلّمت كلّ الدّول الأفريقية "المعونة البترولية العربية " كاملة غير منقوصة بما فيها تنزانيا !

ثمّ كان علينا أن نبذل جهودا جبّارة، استغرقت سنتين كاملتين، لأصلاح التخريب الذى أحدثته أنانية لجنة السّبعة فى العلاقات العربيّة الأفريقية.

وقد أوضحت بعض تفاصيل ذلك فى كتابى " العرب وتحدّيات الحوار مع إفريقيا " الذى صدر عن مركز الدراسات الأستراتيجية بالأهرام سنة١٩٧٨. وكنت قد أعددت ذلك الكتاب باقتراح من الدكتور بطرس غالى الذى أسعدته نجاحاتنا فى إفريقيا.

إسدال الستار على الذكريات الأوروبية!!

في سنة ١٩٧٨ أصبح المصرف العربي للتنمية الأقتصادية في إفريقيا هو مركز الثقل في حسابات التعاون العربي الأفريقي. وبعد تجارب مرّ بها الشاذلي العيّاري مدير المصرف في محاولة تحريك المعنى السياسي لعمل المصرف دون توفيق، طلب إليّ أن أنتقل من الأمانة العامّة للجامعة إلى المصرف. أستأذنت محمود رياض، وعدت إلى الخرطوم لأبدأ مرحلة جديدة في تطوير التعاون العربي الأفريقي.

سألني المجذوب عن تجارب القاهرة وذكرياتها. وكما هو متوقّع سألني: هل استطعت إعادة بناء حياتك الأوربيّة في القاهرة؟ قلت له إنني أدركت منذ البداية أن مجرّد التفكير في إعادة تلك الحياة في بلد شرقي - عربي سيكون ضربا من الجري المعتوه وراء الأوهام المستحيلة. والفارق الأساسي بين المجتمعات الأوربية ومجتمعاتنا هو أنك تستطيع أن تتناول كلّ أمور الحياة من وجهة نظر ثقافية وفلسفية متسامحة مع كلّ أنسان - تقريبا - تجمعك به ظروف العمل أو الحياة الأجتماعية في أوروبا. أما في مجتمعاتنا فأنت تتحسّس طريقك بين أشواك الأستنكار، والتعصّب، والقوالب الجاهزة منذ قرون. الناس هناك يرتاحون لك حينما يشعرون أن لك زاوية خاصة تنظر من خلالها إلى الأشياء، والناس هنا يرتاحون لك حينما تتعالى صيحاتك إليهم بالأنضمام إلى القطيع.العشّاق والمحبّون هناك يتجاوزون البديهيات إلى سماوات أرحب على وسائد من ريش الملائكة، والعشاق والمحبّون هنا يصهرون عقولهم صهرا معظم ساعات الأنتاج في سبيل وضع خطة لقاء لا تنهشه العيون ولا تدميه التعليقات، ثمّ يذهبون إلى لقاآتهم بعيون زائغة تلفّها أدخنة الرّعب من المطاردات والأسلحة البيضاء.

قلت للمجذوب إننى نجحت بصعوبة كبيرة فى أن أسدل ستارا كثيفا بينى وبين ذكريات أيامى الخوالى فى أوروبا وأميريكا. كنت أطرد الذكريات بشدّة وعنف كلما ألحّت علىّ. وقد ساعدنى على ذلك واقع الحال والمناخ الأجتماعى الذى يحمل صيحات مختلفة وقسمات مختلفة، وبصمات مختلفة، تعلّمت كيف أشقّ طريقى خلال وعثائها إلى مواطن الجمال الخفيّة وراءها منذ عهد الصبّا والشّباب الباكر... أيام الدراسة الجامعية. ولكنّه جمال من نوع مختلف، يفوح أريجه بالهمسات، والآهات، واللفتات، والنظرات، والصمت الرهيب!

حياة القاهرة: الرسم، السينما، الموسيقى، وفضل السودان على البيضان!

فوجئت فى القاهرة، وقد عدت إليها محمّلا بتجارب السنين من العواصم الأوربية، بأنّها ما زالت تحمل رايةَ التحدى الطامح، وما زالت، كالأم الرؤوم، تضمّ إلى حجرها ثقافات الأمم. وجدتها حاشدة راشدة بالتنوّع الثقافى فى كلّ مجال. بل وجدت فيها تعويضا عن بعض جوانب النّقص الثقافية التى كنت أحسّ بها فى العواصم الأوربيّة!

وكان أكثر ما أدهشنى فى مجال الرسم والفنون التشكيلية، توافر خامات هذه الفنون وتنوعها بأكثر مما هو موجود فى لندن وباريس! ذلك أن القاهرة كانت ـ بعكس أوروبا ـ مفتوحة على الصين، أمّ الفنون وأدوات الفنون، من ألوان وريش وخامات مختلفة. إلى جانب ذلك توجد الخامات المصرية الموحية بآلاف الصور للتشكيل والتوظيف. وقد خلّقتُ أشكالا عديدة من هذه الخامات الموحية فى أوقات الفراغ الضنينة، ولكننى قلّما رسمت.

ثمّ كانت السينما والتلفزيون مثار دهشتى الثانية فى القاهرة. هنا يعرض التلفزيون وتعرض السينما أروع الأفلام فى تاريخ السينما الأمريكية والأوروبية، بينما تعرض تلفزيونات أوروبا المسلسلات والأفلام الحديثة فقط، وكثير منها غثٌّ

سخيف. وكان بى شوق شديد إلى مشاهدة أفلام رائعة شاهدتها فى الخرطوم والقاهرة أيام زمان، وحُرِمت منها فى التلفزيونات ودور السينما الغربية، فوجدتها بكثافة فى القاهرة.

ومن ناحية أخرى بهرتنى ظاهرة ما زالت تستحوذ على إعجابى. تلك هى " الثقافة السينمائية " فى مصر. وفى مصر أشخاص أعتبرهم مراجع عالمية للسينما الغربية وتاريخها. فطوال سنوات أقامتى فى أوروبا وأميريكا، لم أشهد نظيرا ليوسف شريف رزق الله أو دريّة شرف الدين، فى ثقافتهما السينمائية، وفى المقدرة التحليلية عند النّقاد السسنمائيين المصريين الذين تحاورهم باقتدار الخبيرة النادرة دريّة شرف الدين.

وقد عوّضتنى القاهرة عن نقص خطير آخر كنت أعانى منه فى العواصم الأوربية؛ تلك هى الموسيقىالكلاسيكية فى هدأة الليل... للساهرين، والمحرومين، والواجدين وجدا، والمتبتِّلين هياما، والمتفكّرين فى تصاريف القدر وأصل المجرّات! البرنامج الموسيقى فى إذاعة القاهرة ليس له نظير فى أوروبا وأميريكا، ولا أظن أنّ شعبا آخر قد تكوّنت فيه النواة التى تسمح بالأحساس بالحاجة إلملحّة إلى مثل هذا البرنامج الذى يبثّ الآن الموسيقى الكلاسيكية والخفيفة، أربعا وعشرين ساعة فى اليوم غير الشعب المصرى... وهى مفارقة مذهلة !

وفى هذه الأقامة الجديدة بالقاهرة اتّضحت لى حقيقة تعليق سمعته من الشيخ هاشم أبوالقاسم هاشم، شيخ علماء السودان، بينما كان يتذاكر التاريخ مع عمّى الشيخ عبداللاه أبوسن، قال: حينما كنّا طلابا بكليّة غردون ندرس الشريعة سألَنا أستاذنا المصرى الشيخ محمد شاكر، والد أحمد ومحمود محمد شاكر: مَنْ الأفضل... السودانيون أم المصريون؟ قال الشيخ شاكر: خيارُنا خَيرٌ مِنْ خيارِكُم... وعَوَامُّكم خيرٌ من عوّامّنا. وأردف الشيخ هاشم: أظن أن هذا أقرب

شيئ إلى الحقيقة فى المقارنة بين طرفى وادى النيل.

وفى هذه الأقامة الجديدة بالقاهرة انتصبت فى عقلى التفاتة حادّة إلى حقيقة أخرى تدعو ألى التأمّل، موضوعها هو سواد البشرة ودلالته الأجتماعية. الأنسان الأبيض فى الغرب يقرن سواد البشرة بالحقد والشرّ والجريمة وعدم الأمان. والأنسان الأسود هناك مدان بهذه الشّبهات حتى تثبتب براءته ألف مرّة ومرّة. أمّا فى مصر فالأنسان الأسود هو الصادق الأمين موضع الثّقة ومركز الكبرياء والقناعة والأطمئنان، وهو برئ دائما حتى لو ثبتت إدانته! وبينما أنا أتفكّر فى هذه المفارقة، استوقفتنى حكاية قرأتها فى " الأغانى" تؤكّد أن الملائكة فى الخيال العربى القديم كانوا غِلمانا سود البشرة يلبس الواحد منهم ثيابا خضرا، ويركب بِرْذَونَا أبيض. وها هى القصّة:

(كان سُرَاقَةُ البارِقِى من ظرفاء أهل العراق... فأسَرَه المختار بن أبى عبيد يوم جبّانة السُّبيع [انتقاما لمقتل الحسين بن على] . فجاء به الذى أسرَه إلى المختار، فقال: إنّى أسرت هذا. فقال له سراقة: كَذَب.. ما هو الذى أسرنى، إنّما أسَرَنى غلام أسود، على بِرْذَونٍ أبْلَق، عليه ثيابٌ خُضر، ما أراه فى عسكرك الآن، وسلّمنى إليه. فقال المختار: أمَا إنّ الرّجل قد عاين الملائكة... خلُّوا سبيله.. فخلّوه فهرب. وقال:

ألا أبْلِغ أبا إسحـــــق أنّى ... رأيت البُلْقَ دُهْمَاٍ مُصْمَتَاتِ

أُرى عينَىَّ ما لم تُبْصِراه ... كِلانا عـــالمٌ بالتُّرّهـــاتِ

كفرتُ بدينكم وجعلت نَذراً ... علىَّ قتـــالكم حتى المماتِ

[يعنى دين الشيعة. الأغانى.ج٩ص٣١٣٣أخبار كُثَيِّر]

فالقصّة والشعر تؤكّدان أن الملائكة فى الخيال العربى كانوا سود البشرة. وليس هذا غريبا، فأصل العرب حِمْيَرْ قحطان، وحمير سوداء ــ سمراء، وامتدادها هو الأمهرة فى أثيوبيا: حِمْيَر ـ أمْحَر، كما ينطقها التقراى. وفى

المُستَطْرَف من كلّ فنّ مستظرف:

فسألتها عن أصل مو   طنها فقالت: أمْحَرِى.

ولون حِمْير الأسمر ـ الأسود، يؤكّده أبوالفرج الأصبهانى فى كثير من القصص والروايات، فهو يروى ـ مثلا ـ عن أبى مُحلِّم وعن عمر بن شَبَّة الآتى:

(وأمّ عمر بن أبى ربيعة أمّ ولد يقال لها " مَجْد "، سُبِيت من حضرموت، ويقال من حمير.. بل هى من حمير. ومن هناك أتاه الغَزَل. يقال: غزلٌ يمانٍ، ودَلٌّ حجازى. وقال عمر بن شَبَة: أمّ عمر، أمّ ولد سوداء من حبشٍ يقال لهم " فرسان"، من جزائر فرسان باليمن. وفرسان قبيلة من تَغْلِبْ كانوا قديما نصارى ولهم فى جزائر فرسان كنائس قد خربت.) ويضيف أبوالفرج: (تلك كانت أمّ أخيه الحارث، وكانت نصرانية، وكان الحارث شريفا كريما ديّنا وسيّدا من سادات قريش. وأمّه ماتت نصرانية، وكانت تُسِرُّ ذلك منه، حضر الأشراف جنازتها فى عهد عمر بن الخطّاب، فسمع الحارث من النّساء لَغَطا، فسأل عن الخبر، فعرّف أنّها ماتت نصرانيّة، وأنّه وُجد الصليب فى عنقها، وكانت تكتمه ذلك. فخرج إلى الناس فقال: أنصرفوا رحمكم الله، فأنّ لها أهل دين هم أولى بها منّا ومنكم. فاستُحسِن ذلك منه، وعجب الناس من فعله)

وقد جمعت قصصا وحكايات كثيرة من هذا القبيل تؤكّد ذلك. تأمّل معى هذه العبارة من كلام الأغانى: (وامّ عمر بن أبى ربيعة، أمّ ولد سوداء، من حبشٍ يقال لهم " فرسان". وفرسان قبيلة من تغلب)... ألا يعنى هذا بوضوح أن كلمة " حبَش" كانت صفة لبعض العرب لا أكثر؟؟ ولسنا بحاجة إلى أن نقول من هم بنو تغلب، ومن هم الأغالبة، أجداد سيف الدولة " الغالبين الناس " كما مدحه بهم أبوالطيب المتنبى.

وتأمّل معى بقية القصة، وانظر كيف كان تسامح المسلمين فى عهد شيخ الأسلام ومفجّر أسباب النّزول، عمر بن الخطاب، وكيف أصبحنا فى ظلّ

المتاجرة بالدين؟

وأنا أزعم أن تغلب وغيرها من القحطانيين وصلوا إلى مصر قبل الأسلام بقرون عديدة، منذ الهكسوس، وأنهم حملوا معهم تقاليد التسامح العرقي وعمى الألوان الذى يتميّز به المصريون عن كافّة الشعوب إلى أرض الكنانة، كما حملوا معهم نطق حرف " الجيم " بالطريقة القحطانية الذى ما زال سمة مشتركة بين أهل مصر وأهل اليمن فقط، لا يشاركهم فيها شعب عربى آخر. وربّما كان الشعب اليمنى هو الوحيد الذى يشارك الشعب المصرى صفة التسامح العرقى وعمى الألوان.

زيارة محمد أحمد محجوب للقاهرة.

كان المجذوب يستمع إلى تأمّلاتى حول القاهرة فى صمت. وحينما أنتهيت من ابتهالاتى هزّ رأسه وقال: (ما خاتية غادة السمان كان قالت ليك أنّو المدن بتتكلم معاك. وانت أصلك من زمان بتريد المصريين ياخوى.) ولكنه ابتهج لحديثى عن زيارة المحجوب لمصر سنة ١٩٧٥-٦٧. لقد أثلج صدرى استقبال المجتمع القاهرى للمحجوب، ولم أشهد مثل تلك الحفاوة إلاّ لعدد قليل من المثقفين العرب. كان جناحه بفندق " شبرد" لا يغلق بابه ليلا أو نهارا، ولم يبق فى القاهرة شاعر أو عالم أو سياسى لم يزره. وكانت كلّ ليلة من ليالى إقامته أمسية شعرية فى منزل واحد من أصدقائه الكثر.

تعود معرفتى بالمحجوب إلى مصادفة طريفة سنة ١٩٥٨ فى منزل عمّى محمد أحمد أبوسن، وزير الشئوون الأجتماعية والأعلام فى حكومة عبدالله خليل، التى كان المحجوب وزير خارجيّتها. كان منهمكا فى حديث جانبى مع عمى فى غداء أقامه لبعض الوزراء. كنت ـ وأنا فى إجازتى الجامعية ـ أساهم فى تقديم القهوة والشاى إلى الضيوف. لاحظت أن المحجوب يتابعنى بنظرته من

مكان إلى مكان، ثمّ قطع حديثه فجأة وسأل عمّي: هل هذا أبنك؟ قال: هذا أبن أخى. قال المحجوب: سبحان الله! لو أنّه جاءنى وقال لى إنّه إبنى " سيّد" لصدّقته! يخلق من الشّبه أربعين!، فناداني عمي وعرّفني به وأضاف: وعلى دا كمان أديب وبيجيد ألقاء الشعر. ومنذ ذلك اليوم ظلّ المحجوب يذكرنى بتلك الحادثة.

ومع أنّه لم يسمع إلقائي للشعر إلاّ أننى فوجئت به يطلب إلى فى القاهرة أن أقرأ من ديوانه أمام أصدقائه فى الأمسيات الشعرية التى لا تتوقف. وفى أول يوم ذهبت إليه لتحيته أعطانى " بروفة " الطبعة العربية من كتابه عن الديمقراطية فى السودان التى أرسلها إليه الناشر لتصحيحها، وطلب منى مراجعتها وتصحيحها. كان غلافها أحمر اللون وكانت مليئة بالأخطاء المطبعية. ولكن ما صدمنى فيها كان هجوم المحجوب على عبدالناصر. كان الهجوم على عبدالناصر قد أصبح " موضة" عدد من الكتاب فى تلك الأيام. ولكننى لم أتوقّع ذلك من المحجوب. وفى اليوم التالى صارحته برأئي وقلت له بجرأة لم أستطع مقاومتها : هذا الهجوم لا يليق بك، فقد اشتركت مع عبدالناصر فى أنبل المواقف! قال محتدّا : " أيوه أهاجمه... مش عملاؤه سقّطوا حكومتى بانقلاب عسكرى؟" قلت فى إصرار: " حكومتك ياتها يا بوص! أنت كنت مستقيل ليك شهر لما حصل الأنقلاب.. وبعدين عبد الناصر ما كان وراء الأنقلاب دا " . قال ضاحكا : " ياخى روح! أنت بتتكلم كده عشان صاحبك بابكر عوض الله العميل الأنقلابى دا "

ولم أتحدّث معه فى السياسة غير ذلك. فقد كان يصرّ على أن أرافقه فى دعواته لدى أصدقائه دون أن أكون مدعوّا. وفى أحدى تلك الأمسيات أذهل المحجوب مستضيفيه بمدى معرفته ومتابعته للحركة الأدبية المصرية وما انطوت عليه حياة أدبائها من نُكَت وملح وطرائف. كان الحفل فى منزل سفير الكويت

"حمد الرّجيب"، وكان أديبا فنانا يجيد العزف على آلة " القانون" الصعبة. حضر ذلك العشاء نخبة من وجوه المجتمع المصرى أذكر منهم مصطفى أمين. قال بعض أصدقاء المحجوب أنّهم أعدّوا له مفاجأة بدعوة أقرب أصدقاء الشاعر الفقيد عبدالحميد الديب ـ وكان المحجوب يحب سماع حكاياته وأخباره ـ ولم يقولوا له من هو هذا الصديق، إلاّ أنّهم ظلّوا يتطلّعون إلى وصوله بشوق وتلهّف. وبعد فترة وصل رجل قصير شديد القصر يرتدى الملابس الأزهرية وجهه كوجوه الأراجوز، قدّموه إلى المحجوب الذى لم يشاهده من قبل: الأستاذ عبدالحميد قطامش. فأذا بالمحجوب يضحك مقهقها بصوت عال ويسلّم على الرجل، ويقول ـ وهو ما زال يقهقه ـ : أنت قطامش الشهير، صاحب حكاية المخبأ ؟.. أمتقع وجه الرجل وبدا عليه الحرج، بينما تصايح كلّ الحضور: وما هى حكاية المخبأ هذه ؟ أننا لم نسمع عنها من قبل. ما هى الحكاية يا شيخ قطامش ؟ قال الرجل: مافيش حكاية..أ..أأ.. أنا مش فاكر. كان الجوّ جوّ مرح وتهريج، فقال المحجوب:

كان عبدالحميد الديب وعبدالحميد قطامش يسيران فى الطريق حينما انطلقت فجأة صفّارات الأنذار بوجود غارة جويّة أيام الحرب العالمية الثانية، فجرى الأثنان نحو أقرب مخبأ من المخابئ المعدّة تحت الأرض لحماية المدنيين. ويبدو أن مفاجأة الغارة الجويّة فجّرت الغازات فى بطن عبدالحميد قطامش، فأخذت تخرج منه أصوات مدفعية هائلة، جعلت الناس يعانون داخل المخبأ الضيّق المزدحم أشدّ المعاناة! فقال عبدالحميد الديب فى ذلك:

أرأيتَ فِعلَ قَطَامِشٍ — فى مَخْبأٍ بالناس حافِلْ
سَمِعَ الصَّفِيرَ مُدَوِّياً — فَتَفَكَّكتْ مِنهُ المفاصِلْ
ما كانَ أشجَعَهُ فقد — لَقِيَ القنابِلَ.. بالقنابِلْ
ويحِى على أصحابِهِ — مِنْ قاتِلٍ هربوا..لقاتِلْ

ولم أشهد ضحكا وتهريجا من علية القوم فى حياتى كما شهدت فى ذلك اليوم.

ويبدو أن عبدالحميد قطامش كان هو ملك الترفيه والحكايات فى مجالس كبار الأدباء، وكان أكثر الناس معرفة بأخبار عبدالحميد الديب التى لا يملّها المجتمع الأدبى. ولكنّه أصبح فى تلك الليلة موضع سخرية وتهريج من أصدقائه، وتبكيت على أنّه أخفى عنهم حكاية المخبأ. فسألوا المحجوب من أين له هذه الحكاية الطريفة ؟ فقال: من عبدالحميد الديب شخصيّا.

أمّا أنا فقد شعرت بأننى فى موقف تاريخى أعتزّ به وأفخر. وقد حفظت تلك الأبيات فورا من المحجوب، ولم أكتبها أطلاقا حتى اليوم، فقد رسخت فى ذاكرتى رسوخ النّقش فى الحجر!

د. نوفل.. نادية رحاب.. وسفير تنزانيا!

لم يكن عملى فى الأمانة العامة للجامعة كله سمنا على عسل كما يقولون. فقد كانت فيها مدرستان. مدرسة محمود رياض، ومدرسة سيّد نوفل، وبينهما فرق شاسع. محمود رياض صاحب خبرة دولية، ورجل مواجهات وداعية تجديد وتحديث. وسيد نوفل حمار شغل فى مدرسة " محلّك سِرْ ". ومع أن سيد نوفل كان سكرتيرا للكاتب العظيم محمد حسين هيكل، مؤلّف " حياة محمد "، إلاّ أنّه لم يتعلّم شيئا من هيكل؛ لا التحليل، ولا التفكير، ولا الشجاعة. ثمّ كان بهذه الصفات المنعدمة هو النموذج الأمثل لخدمة الوفود العربية المتناحرة فى اجتماعات مجلس الجامعة حيث كان كل اجتماع ينتهى إلى قرار معلوم هو: أتفقنا على أننا مختلفون! يطبعه د. نوفل قبل الأجتماع بأيام!!

إنزعج سيد نوفل جدا من نشاط الأدارة الأفريقية التى أنشأتها. وخلق جوّا معاديا لها من معظم العاملين في الأدارة السياسية، لسبب واحد هو أن محمود رياض راض عنها. وكانت بالأدارة السياسية شابّة أسمها نادية رحاب، ذكية الذهن، متفتّحة المواهب، حديثة الفكر والتوجّه، تحاول الأنطلاق إلى مجالات

أرحب وعمل مفيد، بلا جدوى فى تلك البؤرة الميتة؛ الأدارة السياسية. ولأن الدكتور نوفل كان يكره كل صفات ومواهب نادية رحاب فقد قرر "ركنها" فى الأدارة الأفريقية الجديدة، وياله من قرار سعيد. لم يكن فى الأمانة العامّة كلّها من هو فى كفاءة وأخلاص ونزاهة نادية رحاب. وفى كل ما تحدثّت عنه من نجاحاتنا فى أفريقيا كانت نادية تقف إلىجانبى بكفاءتها وذكائها وإخلاصها وإدراكها العميق للمسئولية الوطنية والقومية حول التحدى الذى يواجه العرب فى إفريقيا. كانت شجاعة كأروع ما تكون الشجاعة فى وجه مؤآمرات سيد نوفل التى كانت رخيصة أحيانا.

وحينما انطلقت الأدارة الأفريقية انطلاقتها الكبرى بفضل التضامن الصادق الصامد بين نادية رحاب وبينى، أستقدم سيد نوفل صوماليا أسمه عبدالله كونجو، كان سفيرا للصومال بالقاهرة إلى الأدارة الأفريقية، وصوماليا آخر أسمه أسماعيل هُرّة، فشكلوا تحالفا ضدى أنا ونادية مستخدمين قادما جديدا آخر أسمه فتّوح الشريف كان يجيد الكتابة ولكنّه لا يعرف الموضوع، فارهقوه فى ملاحقتنا حتى مات يرحمه الله من شدّة التعب.

ثم كانت نادية رحاب بعد ذلك صديقة لى ولأسرتى وبنتىّ اللتين تسألان عن أخبارها حتى اليوم. وكانت هى خير ناصح أمين لى ولأسرتى فى كلّ صغيرة وكبيرة، وهى من أندر النساء، بل من أندر الناس، حسن خلق، ورجاحة عقل، وكرم، وشهامة، وهدوءً عند الملمات، وحسن تصرّف فى الشدائد، ومقدرة على التعامل الدبلوماسى مع كلّ الناس وفى كلّ المواقف. وهى زوجة النطاسى البارع، الدكتور عادل أمام عبدالمجيد سليل كرام الأسر المصرية، ابن أخت كمال حسن على رئيس الوزراءالأسبق، وقريب محمد، وإبراهيم أنيس وأخوانهم. وهو من أكثر أطباء القلب فى مصر علما، وبراعة فى الجراحة، وثقافة عامة. ووالده عبدالمجيد كان زوجا للأثريّة الأنجليزية الشهيرة، كاهنة الفرعونية

الحديثة، " أمّ سيتى"، التى قضت حياتها بين الآثار المصرية عشقا وهياما. وفى كليهما ألمح قطرة دم سودانى خفيفة، منحت سحرا خاصّا لأبنتيهما الحلوتين: شيرين و دينا.

كانت الأدارة السياسية، بصفة عامّة، مثل كومة من التِّبنْ والقشّ، يجلس فوقها سيد نوفل مستمتعا بما فيها من " حلاليف". وكان محمود رياض يقذف إليها أحيانا بعض الدرر واللآلئ مثل نادية رحاب، وأخريات. وكان نوفل يبذل قصارى جهده فى ركلهنّ إلى الخارج حماية لكلّ حلّوف عزيز وحلّوفة!

وقد كسرنا - نادية رحاب وأنا - صلف وعدوانية سفير تنزانيا الذى سلّطه ماليتشيللا ضدّ التعاون العربى الأفريقى، حينما أعددنا وثيقة لاجتماع اللجنة الوزارية العربية الأفريقية بالقاهرة سنة ١٩٧٥ وضعنا فيها نقاط الخلاف والأتفاق باللغات العربية والأنجليزية والفرنسية جنبا إلى جنب، كل بند فى صفحة واحدة. فوجد سفير تنزانيا نفسه فى موقف يستحيل معه التشويش على الأجتماع، فرضخ، ثم تحدّث ألى لأول ، ِة - وكان يهملنى تماما - وهنأنى على هذا العمل وقال: أنا أتساءل. لماذا لا يستطيع أولئك الأغبياء فى منظمّة الوحدة الأفريقية أن يفعلوا هذا الذى فعلته أنت؟؟ لماذا.. لماذا.؟؟ ثم أصبحنا بعد ذلك أصدقاء.



نادية رحاب



توقيع اتفاقيات القروض العاجلة لأفريقيا

سرير الخديوي!

حينما زارني المجذوب بالقاهرة أعجبه سرير النّحاس الضخم في حجرة نومي. ضحكت زوجتي وقالت له: صاحبك دا، أصحابه مسمّينه: الملك. لم تكن أسرّة النحاس مرغوبة في مصر في تلك الأيام. ولكنني عدت من باريس التي كان الأهتمام بالنحاس قد بدأ يعود اليها فلفت نظري جمال الفكرة، وكنت أعرف أنّ مصر هي أحد مواطن استخدام النحاس. طلبت من صديق مصري أن يصحبني في جولة للبحث عن سرير يعجبني بعد أن استأجرت شقّة بالمهندسين، اشتريتها فيما بعد، فأخذني إلى شارع ضيّق في غياهب "أمبابة".

كانت الأسرّة اللاّمعة معروضة فلم تعجبني. ولكن لفت نظري "شيَّاك" من سرير نحاس متأكسد متّسخ كلون الطحالب في طرف من أطراف محلّ بيع " أنانيك". فعرفت أنّه مطلبي. كان بالمحل شاب في حوالي العشرين، سألناه عمّا إذا كان السرير للبيع، وهل بقية أجزائه موجودة ؟ نظر إلينا نظرة استغراب وقال إنّه للبيع، وأدخلنا إلى مخزن داخلي مليئ بالنحاس المتّسخ، وأخرج لنا باقي أجزاء السرير. كان واضحا أنّه يختلف عن كلّ الأسرّة المعروضة. وفي المخزن العتيق رأيت سريرا آخر يشبهه فطلبت المقارنة بينهما، فأخرجه. وبعد " الفِصال" في السعر باعهما لي بأربعمئة جنيه، وهوضعف سعر الأسرّة الأخرى المعروضة. دفعت له "العربون"، ولأمر مّا طلبت منه بأصرار أن يكتب لي مكاتبة بالبيع غير وصل العربون. وفي الحال طلبت منه أن يحضر لي منظّف نحاس لكي يقوم بتنظيف السرير وإعداده، فاستدعى شابّا شممت منه، وأنا أحثّه على الأسراع في العمل، رائحة الكحول، وهي ظاهرة غريبة في مصر!، فوعدته بزجاجة معتبرة إن هو أنجز المهمّة بسرعة، فطار فرحا.

في مساء اليوم التالي ذهبت إلى المحل لكي أطمئنّ على سير العمل، فوجدت في الحوش الخلفي للمحلّ رجلا ضخما يجلس على كنبة، وأمامه الشاب

الذى باع لـى السرير، وبينهما منضدة عليها دفاتر وأوراق كثيرة، وقد تجهّم وجهاهما وبدت عليهما علامات الغضب. حيّيتهما فجاءنى ردّ التحيّة باردا يوحى بالشرّ. رفع الشاب رأسه وقال: هذا أبى، وقد طردنى من المحلّ لأننى بعت لك السريرين، وأنا الآن بصدد تسليمه المحلّ. قال الرجل: ولكن، من قال لك أن تفتح المخزن وتخرج هذين السريرين ؟ من قال لك أنّهما للبيع ؟ قال الشاب: أنا راجل، وأنا بعت، ولن أرجع فى كلامى. وقامت مشادّة بينهما، وأنا أجلس صامتا.. ثم دعا شخص من خارج المحل باسم الشاب فخرج إليه.

فى تلك اللحظة وقع أمر ارتجّ له كيانى؛ ألتفت إلى المعلّم الضخم المخيف وهمس: يا أبنى، دا أبنى الوحيد.. أرجوك.. أصلِحنا.. ما عنديش غيره! وقبل أن أستوعب ما يحدث عاد الشاب وهو يردّد: أنا راجل، وأنا بعت، ومش حارجع فى كلامى. مش خلاص أنت أستلمت المحل؟ أنا ماشى. فتوجهت إليه وقلت له: أنتظر. كيف تتحدّث إلى والدك بهذه اللهجة؟ والدك يحبّك ويريد لك الخير...ألخ..قلت ما فتح الله به علىّ من كلام وأنا فى ذهول وحيرة. ثم التفتّ الى الرجل وقلت: يا معلّم هذا أبنك، وهو لا يقصد أساءة الأدب.. و..و.. و..الخ..أىّ كلام. وأردفت: وأذا كان على السرير، فأنا لا أريده ما دام يهمّك إلى هذا الحدّ يا معلّم. وبينما بدأ الأبن يصيح: أنا راجل..وأنا... قاطعه المعلّم قائلا لى: خلاص، ما دام أنت تدخلت بيناً، وأنت من دولة شقيقة فأنا مستعدّ أسامحه.!! وبعد تبادل بعض العبارات بين الأب والأبن، هدأ الموقف، وخرج الشاب إلى واجهة المحل.

ألتفت نحوى المعلّم حنفى بجثّته الضخمة، وهو يلبس الجلاّبيّة والقفطان والعمّة على الطربوش، ويحمل عصا "" كريزة " مثل " الشّملُوخ" و " النبُّوت"، وقال: أنت عارف أنت أشتريت أيه ؟ قلت: سرير نحاس. صاح: لا... مش أىّ سرير نحاس! أنت أشتريت سراير الخديوى اسماعيل!. فى البداية ظننت

أن ألرجل يطمع فى رفع السعر، ويريد تضخيم المسألة. سألته: كيف عرفت ذلك؟ صاح: (أنا اللى شاريه بنفسى من المزاد المقفول لمَّ باعوا من عفش قصر الخديوى فى الزمالك، القصر اللى اشتروه أولاد لطف الله.. أيوه باعوه عشان النحاس كان بطِلْ.) قلت: هل تريد زيادة السعر؟ صاح: (عيب! دا احنا بعنالك خلاص. أسمع يابنى.. أنا راجل والحمد لله شبعان.. أنا عندى عشرين محل زى اللى أنت شايفة دا فى مصر. أنا تاجر أنتيكات كبير.. وحاحكيلك حكاية السرير اللى أنت اشتريته، ومبروك عليك، بس أفهم الحكاية بقى عشان تنام مرتاح! أصل المزاد دا كانوا أعلنوا عليه، وقالوا أنّه مقفول على الخواجات. الكلام دا فى أول الثورة. .. وبعدين أنا رحت لجمال عبدالناصر، الله يرحمه ويحسن أليه.. آه.. أصل أنا بقى من قرية بنى مُرّ اللى هو منها. دا بيتهم جنب بيتنا بالظبط.. كان راجل بن راجل، دى الوقت بيقولوا عليه حرامى.. طيب أقسم بالله أنّو لما جاء يزور أهله فى بنى مر، وهو رئيس جمهوريّة ما كانش فى بيتهم معالق وشوك وسكاكين للضيوف.. جُم استلفوها من بيتنا. دا يقولوا عليه حرامى ولادالكلب.. المهم رحت له.. آه.. أن كنت بخشّ له فى أودة النوم، حاكم أحنا جيران وحبايب.. قلت له يا ريّس، بقى تمنعوا المصريين أنّهم يشتروا أنتيكاتهم، دا كلام دا ؟ قاللى إيه الحكاية ؟ حكيتلو.. وفى ساعتها طلب وزير السياحة وقالو: أنتو مانعين المصريين من دخول المزاد ليه ؟ قالو: يا ريّس عشان المصريين ما يعرفوش قيمة الحاجات دى زى الأجانب، والنحاس بِطل فى مصر، والخواجات بيشتروا بأسعار عالية، والمصريين مش معاهم نفس الفلوس. قالّه: معليش، أختاروا بعض التجار المصريين المِقتدرين واسمحوا لهم يدخلوا المزاد. وأنا كنت واحد منهم. آدى الحكاية.. طيب والله والله، وما لك عليّ حِلفان، أنّ أنا ما كنتش بفكّر أبيع السرير دا دى الوقت خالص.لا دا وقت بيعه.. ولا مكان بيعه يا أستاذ، والله والله.. ما كنتش أديّهولك باربعتالاف جنيه مش أربميّة.... النهاية، طلع من

نصيبك. ومبروك عليك.. أنّما حقولك على حاجة. السراير دى نامت عليها الأمبراطورة أوجينى، إمبراطورة فرنسا، مراة نابليون الثالث، لما جات لافتتاح قناة السويس، وبعدين حبّت الخديوى بتاعنا خالس، أصله كان راجل دبّور قوى، ونامت على السراير دى تلات شهور.. لحدّ ما جوزها زعل وبعت لها.. أيوه، أعمل حسابك.. ما تتيّمش عليه حاجة كدة ولاّ كدة.. ويقهقه الرجل العملاق وهو يودّعنى، ويختم حديثه بالشكر على ما قمت به من إصلاح الحال بينه وبين حسن أبنه، ويعود ليؤكّد لى أنه أبنه الوحيد بعد أن مات أخوه الأكبر.

وقد أنعقدت بينى وبين المعلّم حنفى أواصر صداقة حميمة بعد ذلك، فكنت أزوره فى محلاته العديدة، واكتشفت أنه أمبراطور فى حدود منطقة وكالة البلح، يملك شارعا بأكمله. وكان يحكى لى عن الصعيد، وكيف أنه غارق حتى أذنيه فى عمليات أخذ الثأر. وحينما يضطر إلى الأعتراف بأنّه لا يستطيع العودة إلى قريته يقول بسرعة: (ولكنى مش قاعد ساكت.. أنا ببعت السلاح وببعت الفلوس عشان اللى وراى يكونوا مستعدّين!)

أمّا سريرى الخديوى وأوجينى فقد ملكا علىّ أمرى، وتحكّما فى حجم غرفة النوم التى أستخدمها، ولم أنم على غيرهما فى مصر منذ سنة١٩٧٥، وبينما أكتب الآن أنظر إلى أحدهما وقد احتلّ نصف غرفة طولها تسعة أمتار، وقد جعلت النصف الآخر للمكتب والكمبيوتر والمكتبة، غير أننى فارقت حفيدات أوجينى، ومرابع لهوى، وجميل عمرى، إلى غير رجعة..." وما عند الله خير وأبقى"، كما كان يقول عمّى الشيخ عبداللاه، حينما يرى المحاسن والمفاتن التى لا سبيل إليها.

هيكل يفشل مع جيني.. ومرشد سُياحي ينقذ سمعة العرب!

وفى القاهرة عادت لتزورنا الشاعرة الأمريكية الصديقة " جيني هارسون"، وكان المجذوب قد ألتقى بها أثناء زيارتها لنا فى الخرطوم سنة١٩٧٣. وقصّة جيني بدأت فى إطار المعركة الأعلامية الشرسة التي خاضتها الدبلوماسية العربيّة فى أوروبا بعد هزيمة سنة ١٩٦٧. بعد الهزيمة أصبحنا لا نعرف الناس إلاّ فى أطار المعركة الأعلامية. حتى العلاقات العاطفية أخذت شكلا سياسيا، وأصبح الأتفاق والأختلاف حول الحق العربي والعدوان الأسرائيلي معيارا لنجاح العلاقة العاطفية أو فشلها! ألتقيتها صدفة فى " ليستر سكوير" بلندن ومعها صديقتها، وكان معي الشاعر سيد احمد الحاردلو. تعارفنا وتجوّلنا فى شوارع لندن فى يوم صيفي جميل، ثم تعشّينا فى مطعم هندى، وسهرنا حتى الصباح. فتاة من مدينة صغيرة فى قلب تكساس أسمها " أماريللو". حملتها الأقدار من هناك مباشرة إلى ألمانيا لتعمل مدرسّة للغة الأنجليزية هناك. لم تسمع بالسودان من قبل، بل وجدت صعوبة فى تذكّر الأسم بعد ذلك فجاءت تسأل عن سفارة " سلطانة"! قالت لى أنها كانت ترى العالم هو أمريكا وأوروبا ثم مساحات شاسعة أخرى فى الخريطة لا تعرف لها أسما وليست لها أهميّة تذكر!

كانت ذكية ماهرة، أتقنت الألمانية والفرنسية، وعرفت أوروبا قبل أن تزور نيويورك! وحينما شرحت لها طبيعة الصراع العربي الأسرائيلي، أستولى الأمر على اهتمامها بصورة مدهشة، ثمّ قرّرت بعد فترة أن يكون موضوع رسالتها للماجستير دراسة عن الشرق الأوسط.

جاءت إلى لندن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع فقط. ولكنها عادت بعد ذلك أكثر من مرّة للزيارة، فقد بدأت تكتشف عالما جديدا لم تتصوّر وجوده. وبصفة خاصّة أكتشفت أناسا سود البشرة يختلفون عن السود فى أمريكا. ولكن صديقتها لم تعد معها بالرغم من سؤآل الحاردلو المتكرّر عنها. وعند إلحاحي فى معرفة

السبب قالت أن صديقتها قالت لها أن الحاردلو رجل طيب ودود، ولكن: He bites!!.

كنت قد عدت لتوّى من الخرطوم، مثقلا بالألم والحسرة على بابكر عوض الله الذى تنكّر لكلّ ما كان يربط بيننا، وأجبرنى على مغادرة الخرطوم بالرغم من أننى كنت فى أجازة، فى وقت كنت أحرص فيه على تجميع شتات ما خرّبه من أحلام مجموعتنا. كانت حالتى أشبه بنفس الحالة التى تكررت بعد ذلك عند أعدام عبدالخالق محجوب والشفيع وزملائهما. أقترحت علىّ جينى أن أقضى أجازتى فى ألمانيا.. ولم أكن أعلم ما كان ينتظرنى. خرجت من مطار فرانكفورت لأجدها فى انتظارى أمام سيارة " كاديلاك" قُرْمُزِيَّة من ذلك الحجم االمحيّر الذى يتباهى به الأمريكان. قالت لى أن حالتك لا تعجبنى، ولذلك قررت أن آخذك فى رحلة عبر ألمانيا ألى منطقة البحيرات بالنمسا. ولكن الفرق بين رحلتى التى أعددتها لك وبين أية رحلة أخرى هو أننى سآخذك عبر الطرق الريفية الصغيرة.. عبر السهول والمروج والغابات والقرى، ولن نعبر أيّة مدينة! وحينما دخلت السيارة وجدت فى داخلها بار كامل و" جردل" ملئ بمربعات الثلج الصغيرة، بداخله زجاجتان نضّاحتان تمدّان رأسيهما فوق الثلج كأنهما طائرا بطريق.

وأنطلقت بى عبر الريف الألمانى الجميل، والطبيعة الألمانية الباهرة. ولولا ما كان يعاودنى من هموم وأسى وغضب، لقلت أن تلك كانت هى رحلة العمر بحق. ولكن.. الشقى ما بيسعد! كما تقول فى السودان. رأيت من جمال الطبيعة فى تلك الرحلة ما لا يتصوّره عقل. وذقت من برّ الصداقة وحُنوّها ما يحيى موات الآباء والأجداد. واكتشفت أن فى ألمانيا وجوها غير مصنوعة من الحديد!

ثمّ انحرفت إلى طريق جانبى وقالت لى: سأدخلك مكانا لا يدخله ألاّ الملوك

والرؤساء وأغنى أغنياء العالم. تلفّت حولى فلم أرَ معمارا ولا دليلا على شيئ ملفِت، حتى وقفت عند بوابة مزرعة بداخلها تلّ عظيم مرصّع بشجيرات العنب، ودخلت مع الحرّاس فى حوار ساخن بالألمانية، كانت تشير خلاله من حين لآخر إلىّ وكأننى معنى بالحوار. وأجرى الحرّاس أتّصالات تلفونيّة، وبعد جدال وصل إلى درجة المشادّة سمحوا لها بالدخول.. وأنا ـ فى كلّ ذلك ـ مثل الأطرش فى الزّفّة! دخلنا إلى فيللا جميلة فى سفح التلّ العالى الذى يشبه شكل الهرم الأكبر ، ولكنه أكبر منه بحوالى ثلاثة أو أربعة أضعاف ، ثمّ نزلنا ودلفنا إلى داخل المبنى مع رجال ونساء الأستقبال.

فى القاعة الرئيسية وجدنا دفتر تشريفات، كالذى يضعونه فى القصور الملكية وفى السفارات عند المناسبات الجسيمة مثل موت ملك أو رئيس. فتحوا لنا دفتر التشريفات وأعطونى القلم لأوقّع. قالت لى جينى: أنظر إلى توقيعات من قبلك. نظرت فبُهِتّ.. الملكة إليزابيث..شارل ديجول.. جينراليزمو فرانشيسكو فرانكو.. ونستون تشيرشل.. جورج بومبيدو.. روكفلر..روتشيلد... وأنظر حولى فلا أرى سوى فيللا صغيرة عاديّة، ليس حولها معمار أو حضارة، سوى هذا التلّ الهرمى. وقّعت على الدّفتر دون أن أفهم أى شيئ، فقد قررت أن أترك جينى تنفّذ ما فى ذهنها دون تدخّل، وسأفهم فيما بعد.

ثمّ بدأت المجادلة مرّة أخرى حينما جاء عامل يحمل فى صندوق زجاجات داكنة. كانت جينى تطلب المزيد وهم يعتذرون. ثمّ التفتت إلى وقالت: أنت الآن فى المكان الذى ينتج أعظم نبيذ أبيض فى أوروبا كلّها، وأنتاجه محجوز للملوك والأمراء والرؤساء على مدى السنين، ولا يباع فى الأسواق. هذا المكان أسمه " تلّ الحمار" !! أنظر إلى شعاراته فوق الحوائط. نظرت فرأيت رسم التلّ الذى أمامى ينزل منه حمار محمّل بالعنب. وما زلت أحتفظ بشعار تلك الزجاجات بين أوراقى!... حينما خرجنا بالزجاجات التسع قالت لى جينى. لولا

أننى قلت لهم إنّك أبن ملك جزائر واق واق التى حكيت لى عنها، لما سمحوا لنا بالدخول ولا بالحصول على هذا النبيذ!

فى تلك الليلة رسمت صورة سريعة بالفولوماستر لجينى، فوجئت بأنها نشرتها فى ديوانها الأول، وفوجئت بأنّها كانت طبق الأصل، مع أننى رسمتها فى دقيقتين دون وعى. ثمّ واصلنا الرحلة فى اتجاه ميونخ التى وصلناها قبل الغروب فى أصيل صيفى رائع. وما كدنا ندخل مسكننا حتى نزلنا لنلحق " بمشية الغروب" فى بوليفارد جامعة ميونخ، ذلك الشارع الواسع الجميل الذى تحرسه الأشجار الرقيقة الحانية من كلّ فرع ولون، والذى يُكسِب من يدخله حالة من الهدوء الرومانسى الحالم... هدوء تذوب عنده الهموم، وتطلّ فيه فرحة الحياة من عيون المحبّين، الذين يصعدون فيه ويهبطون متعانقين متآلفين لا تشويش عليهم من البشر، ولا تثريب عليهم من السّماء. وأثناء مشيتنا الهادئة الحالمة كنّا نحمل فى أيدينا كوبين من عصير ذلك العنب الملوكى من تلّ الحمار.. يا له من عصير، وياله من حمار!.. والناس فى بوليفار ميونخ يعرضون أنتاجهم اليدوى الرقيق، وألعابهم المرحة البريئة، وأغانيهم الحلوة البديعة. أنّه لمسة من "سان ميشيل" فى باريس..ولكنها هادئة.

ومن ميونخ اتجهنا شرقا نحو منطقة البحيرات فى النمسا، ثم وصلنا إلى المكان الذى اختارته جينى لكى أغسل فى أمواجه الناعمة همومى.. قرية " موندسى". مكان ينسيك حقيقة أنّك فى الأرض. وبعد يومين من الهدوء الكامل، والرسم، والشعر على سفوح بحيرات الزمرّد الرابضة تحت سفوح جبال الخضرة البنفسجية الشاهقة الموشّاة بدانتيل الغمام، ذهبنا لزيارة منزل الموسيقار موزار فى مدينة سالزبورج، وهناك كانت نهاية الحلم الجميل! بعد زيارة منزل موزار، جلسنا على مقهى واشتريت " الهيراد تريبيون"، وفزعت من ذلك العنوان فى الخبر الرئيسى: "حريق المسجد الأقصى"، قبّة الصّخرة المذهّبة التى بناها صلاح

الدين الأيوبى، أحرقها اليهود تأكيدا لهزيمة العرب، وكشفا لعورتهم وعجزهم. ووسط ذلك المقهى لم أستطع السيطرة على دموعى، فبكيت بحرقة، وجينى تنظر إلىّ حائرة، مواسية، مندهشة من درجة معاناتى. فى تلك اللحظة قالت لى: الآن فقط عرفت ما يعنيه وجود إسرائيل بالنسبة لكم فى قلب بلادكم، وأعدك بأننى سأقف معكم بكلّ ما أملك من طاقة.

فقدت الرغبة فى الأستمرار فى الرحلة، وعدت إلى لندن. وقررت جينى أن تكون رسالتها للماجستير حول الشرق الأوسط. وحينما وافقت الجامعة على رغبتها، نصحوها بأن تذهب إلى بيروت لتبدأ من مدرسة " شملان". صارحتها بأن شملان هى مدرسة الجاسوسية الغربية فى الشرق الأوسط، وأن تركيبتها كلها معادية للمشاعر الوطنية فى بلادنا، وقلت لها: من يريد أن يعرف العرب ومشاعرهم الحقيقية، ورأيهم السياسى الذى يعبّر عنهم حقيقة، ومدى تطوّرهم الأجتماعى والسياسى والعلمى، فلا بدّ ان يذهب إلى مصر. رأى العرب هو ما تجدينه فى مصر، وليس فى شملان بيروت.

ذهبت جينى، وعادت إلى مترددة حول الذهاب إلى القاهرة أو بيروت. وهنا بدأت أتشكك فيما إذا كانت طفلتى البريئة قد وقعت فى براثن أجهزة أهلها المخيفة. فقررت أن أجعل الأختيار ما بين القاهرة وبيروت مرتكزى فى الحكم عليها. قلت لها: إذا كان أختيارك هو الذهاب إلى مدرسة الجواسيس، فهذه نهاية علاقتى بدراستك. فما هو قرارك ؟ قالت: أنا أثق بك، سأذهب إلى القاهرة رغم أنهم يكرهوننا هناك كما قالوا لى.

أقترحت عليها أن يكون موضوع رسالتها مقالات " بصراحة" التى كان يكتبها محمد حسنين هيكل فى الأهرام، وأعطيتها خطابا إلى هيكل شرحت له فيه معاناة الدبلوماسية العربية فى لندن، وأن جينى نموذج للأنسان الغربى البريئ الذى يمكن أن نكسبه. وكان الرعب يملأ نفسى من أن تكون تجربة جينى فى القاهرة

سيئة، فتكره العرب.

وحينما عادت جينى من القاهرة، لم يكن هيكل هو الذى أنقذ سمعة العرب معها، وإنّما كان الذى قام بذلك مرشد سياحى شهم عظيم أسمه " عبدالعزيز الجابرى".! وقد حيّرنى أنّ هيكل تعامل مع جينى بتشكّك وتردّد، وهو الذى يدعو إلى إدارة الصراع مع أميريكا بطريقة مختلفة شجاعة، صحيح أنه سمح لها بالعمل فى مركز الأهرام، ولكن انطباعها عنه لم يكن إيجابيا، وكان ـ بالقطع ـ بعيدا عن دبلوماسية الشجعان الواثقين كما توحى به كتاباته.

أما المرشد السياحى بالهلتون، عبدالعزيز الجابرى، فقد وفّر لها من الحماية والرّعاية، والكرم العربى الأصيل، ما جعلها تعود إلى أوروبا وفى ذهنها بطل واحد أسمه عبدالعزيز الجابرى. وأسرة الجابرى أسرة معروفة فى منطقة الهرم ونزلة السّمان، وهى أكبر أسرة فى المنطقة. لقد أخذها عبدالعزيز إلى زوجته وبناته الذين أحبّوها وأحبّتهم ولبست الجلابية الفلاّحيّة، وجلست على الأرض، وأكلت على الطبلية، حتى أطلقوا عليها لقب " البدويّة التكساسية" ! وقد عانت جينى من مؤآمرات الأجهزة الأمريكية وعملاء الصهاينة حتى كادت تفقد حياتها. ولكنها صمدت، وما زالت صامدة.

وفى أبريل سنة١٩٩٧، ـ وأنا أكتب هذا الكتاب ـ عادت جينى ـ التى بلغت الخمسين ـ لزيارة مصر، وأسرة عبدالعزيز الجابرىللمرة الرابعة أو الخامسة، ولزيارتى، واكتشفنا أنّها أصبحت من أعضاء " الدّيانة الهرميّة "، الذين يتّخذون من أهرامات الجيزة " كعبة" يحجّون أليها، ويزعمون أنّ الأهرامات كانت عبارة عن " دِشْ " هائل للأتّصال بالكواكب الأخرى، وأن الفراعنة كانوا على اتّصال بمركز الكون!!

حكاية بهيّة.. الشُّكريّة.. المصريّة!

ليس من بين أصدقائي من كان يحتفي بقصص وحكايات الشكرية، ويعتبرها تاريخا من التاريخ، أو قَبَساً من نُورِ الذِّكر، مثل المجذوب. وحينما حدثته - أثناء زيارته للقاهرة - عن بهيّة الشّكريّة المصرية، جعل يأسى على تاريخ السودان، وقال ما يشبه قولة الشاعر- الرئيس، ليوبولد سِنجور: مع موت كلّ إفريقي، يموت تاريخ.. لأنّ التاريخ الأفريقى شفهى غير مكتوب!! وحكاية بهيّة تشبه الأحاجي، والأساطير.

إبّان ثورة سنة ١٩٢٤، كان " أحمد العربى " جنديا فى الجيش المصرى. وقد أشترك فى المعارك وجرح، فأخذه ضبّاط الجيش المصرى إلى داخل معسكرهم، ثمّ لما تقرّر خروج الجيش المصرى من السودان، بعد مقتل سير لى ستاك، لفّه ضابط مصرى صديق فى " مهماته" العسكرية، ودخل به إلى القطار وكأنه من ضمن عفشه، حماية له من جنود الأحتلال الأنجليزى الذين كانوا يرقبون أنسحاب الجيش المصرى عن كثب. وحينما وصلوا إلى القاهرة قال له صديقه المصرى أن مصر نفسها أصبحت تحت الأحتلال الأنجليزى، ولا سبيل إلى سلامته إلاّ فى الأرياف. كان أحمد العربى على معرفة بشيئ من الفقه والدين بطريقة " الفقرا " السودانيين - وهو أول، وآخر " فقير " شكرى أسمع به فى حياتى!! فأصبح " شيخا " فى الرّيف المصرى، يجوبه من أقصاه إلى أقصاه، وأصبحت له مكانة وسمعة طيبة، وهو يخفى سرّه عن كلّ الناس. وانقطعت صلته بالسودان تماما، ولكنّه ظلّ على صلة بأهل صديقه الضابط المصرى فى الأرياف، يزورهم من طرف خفى من حين لآخر، دون أن يعرفوا حقيقة قصتّه، خوفا من جواسيس الأنجليز المنتشرين فى كلّ مكان. ثمّ تزوّج من أسرة صديقه الضابط المصرى، وأنجب من زوجته بنتا أسماها " بهيّة ". ولكن... بعد ميلادها بأشهر أصابته علّة شديدة، ولما شعر بأقتراب النهاية كتب ورقة لابنته يحكى فيها

قصتـه، ويعرّفها بنفسـه وأصلـه وقبيلتـه، وذكـر فـى الورقـة، إلى جـانب والـده وأخوته، أسماء معاصريه من زعماء القبيلة، آل أبوسن.

وتكبر بهيّة بين أخوالها وخالاتها، وتصبح مع مرور السنين ونسيان الورقة، فتاة مجهولة الأصل، خرجت من صلب شيخ سودانى لا يعرف أحد من أين جاء، ولا كيف جاء. وكانت أمّها قد تزوّجت من خطيبها السابق، أبن خالتها، الذى حرموه منها حينما طلبها الشيخ أحمد العربى، صاحب الكرامات الذى لا يردّ له طلب. وخلال تعليمها وتحركها فى المجتمع كانت بهيّة تشعر أنّها وحيدة، بلا أخ أو أخت، مجهولة بلا أهل أو نسب.

زاد عذابها مع نموّ عودها، واكتمال أنوثتها، وأصبح أمر الزواج مشلكة واضحة وهى فى المرحلة الثانوية. فمن الذى سيتزوّج فتاة لا يعرف أحد أهل والدها. وبينما كانوا يستعدّون للأنتقال من الأرياف إلى الأسكندرية، وجدت الأم الورقة التى تركها زوجها السابق، والد بهية فى قاع " سحّارتها " العتيقة، وسلّمتها لبهية التى جعلتها همّ حياتها. ولكن.. أين هو السودان؟ وكيف تصل فتاة بمفردها ألى من تسأله عن هذه الأسماء التى فى الورقة.. ثم ما هو الضمان أن يكون أهل أبيها ممن سيشرّفها الأنتماء اليهم ؟ أسئلة كثيرة، لم تجد أجابة عليها حتّى أكملت دراستها الثانوية، ثمّ التحقت بمدرسة عليا للتمريض وعملت " حكيمة مدرسة " فى إحدى مدارس البنات بالأسكندرية.

ثم بدأت تسمع أخبار السودان مع نموّ الحركة الوطنية، وحرصت على متابعتها وهى خائفة قلقة. هل أهلها فعلا موجودون ؟ هل هناك من يعرفهم ؟ حتى قرأت فى الأهرام فى أحد أيام سنة ١٩٥٣أن زعماء السودان وصلوا إلى مصر لمفاوضات تقرير المصير، وأن أحد هؤلاء الزعماء أسمه: محمّد حمد أبوسن. وبينما كانت تحاول أن تطير إلى القاهرة جاءتها مفاجأة أخرى بأن الوفد قادم إلى الأسكندرية.

في قصر رأس التين، مقرّ إقامة الوفد، دخل أحد موظّفي الأستقبال وقال للشيخ محمد حمد أبوسن أن فتاة بالخارج تريد مقابلتك، وتقول أنّها أبنة عمّك.! ذهل شيخ العرب.. أبنة عمّي أنا في الأسكندرية؟ هل هي سودانية ؟ قال الموظّف: لا أنها مصرية. وزادت حيرة شيخ العرب وكان معه صديقه الشيخ محمّد أبراهيم فرح، ناظر الجعليين، الذى أصرّ على الخروج معه إلى الأستقبال لاستبانة الأمر.

وفي الأستقبال رأى فتاة مصرية تلبس فستانا أنيقا، تتقدّم نحوه في حياء وتحييه. وبعد السلام المتشكك المستريب من شيخ العرب، مدّت الفتاة الورقة التى تركها والدها وقالت: أنا بنت الراجل إللي كتب الورقة دى. قرأ شيخ العرب الورقة، وظهرت علامات الدّهشة والأستغراب على وجهه، فمدّها للشيخ محمد ابراهيم فرح الذى نظر الى شيخ العرب منتظرا تعليقه على هذه الورقة الغريبة. قال شيخ العرب لبهيّة أنه يعرف جميع إعمامها المذكورين فى هذه الورقة، وهم من الفروع المعروفة فى الشكرية، ولكنه لا يعرف والدها ولم يسمع به. واعترف لها بأن كاتب هذه الورقة يعرف جميع آل أبوسن، ويذكر أهله بوضوح. ولكنّه طلب منها أن تمنحه فرصة حتى يعود إلى السودان، ويسأل آل العربى عن والدها.

وفعلا، أرسل شيخ العرب بمجرّد عودته إلى القضارف في طلب أعمامها من البطانة وسألهم عما إذا كان لهم أخ أسمه أحمد لم يعرفه هو؟ قالوا أنّ أحمد كان أخاهم الأكبر، وأنّه مات فى أحداث الخرطوم سنة الحرب بين أولاد البلد والأنجليز. فأخرج الورقة وقرأ عليهم ما فيها. كانت بالنسبة لأهل البطانة مفاجأة من نوع غير عادى. فليس فى البطانة مفقودون. هناك يعرفون مصير كلّ حى، متى مات، وكيف مات، وأين دفن ؟ ومن يغادرها فلن تنقطع صلته بها ما دام على قيد الحياة. وفى نهاية الحديث أبدوا رغبتهم فى أن يشاهدوا أبنة أخيهم.

حينما أزمعت السّفر إلى مصر سنة ١٩٥٤، كلّفنى عمّى محمد حمد أن أبلغ رسالة إلى الشكرية ـ المصرية بهية، بأن كلّ ما ورد فى ورقة أبيها صحيح، وأن الأمر متروك لها إذا رغبت فى زيارة أهلها، والجميع يرحّبون بزيارتها.

لن أنسى وقع هذه الرسالة على بهية وأهلها آل نصير. خاصة اللواء عبدالمجيد نصير وزوجته فاتنات هانم، وأولاده مصطفى ومحمد وجميل ومنير وفيفى. لقد طاروا فرحا لبهية التى وجدت أهلها، وجعلونى موضع تكريمهم وأعزازهم بصورة أذهلتنى، خاصة حينما أخذونى إلى بلاج " جليم " حيث وجدت نفسى الوحيد الذى يتفرّج عليه الناس لأنّه " لابس هدومه فى البلاج !! ".. كان الجميع بالمايوه والبيكينى.

قضيت مع بهيّة ووالدتها الرائعة وآل نصير أسبوعين فى الأسكندرية ظلاّ يُدِرّان فى حلقى طعما فريدا للذكريات حتى هذه اللحظة. وبسبب ذلك الطعم كان حرصى الدائم على أن يكون لى سكن فى الأسكندرية، وفى سيدى بشر بالذات حيث كانت " فيلا نصير " ولكننى حينما حققت ذلك فى التسعينات كانت موضة البلاج قد أصبحت هى الأستحمام بالجلاّبية!

عدت إلى السودان ومعى بهيّة الشكرية ـ المصرية. ومن الخرطوم توجّهنا فورا إلى القضارف، حيث حضر أعمام بهية وأبناء عمّها من البطانة ليروا أبنة شقيقهم. كان منظرا فريدا ذلك الذى شاهدته فى ديوان الشيخ محمد حمد. أناخ فرسان البطانة أبلهم أمام الدّار، ونزلوا محتقبين سيوفهم، وفى أيديهم كرابيج سفر الأبل، طوال القامات، عليهم وعثاء السفر. وقفوا فى حوش الدار ولم يجلسوا، فى أعينهم ترقّب الحائر المستريب، وحنين عودة الغائب الغريب. ولم أرَ منظرا كيومها، حينما ظهرت بهيّة بفستانها الأنيق ولونها الأبيض الممكيج، ليقول شيخ العرب لكلّ " أخى سفر، جوّاب أرض، تقاذفت به فلواتٌ، فهو أشعث أغبرُ" : هذه أبنة أخيكم أحمد رحمه الله. نقلت نظرى بسرعة بين وجه بهية ووجوه

أعمامها وأولاد أعمامها. فوجئ كلٌ منهما بالآخر، وبالرغم من نظرات الحنين، كان التواصل مستحيلا. حتى مدّ الأكف وطريقة السلام كانت بمعاناة شديدة. وحينما عادت بهية إلى داخل الدار، رأيت نظرة الحزن فى وجوه فرسان الشكرية، تظللّها حيرة الحياة. ولولا حنكة وحكمة ذلك العظيم الفريد محمد حمد أبوسن لأفلت الموقف. جاء أبناء عم بهية بفكرة الزواج من بنت عمّهم، إن أمكن، ولكن المنظر بدّل كلّ شيئ. وجاءت هى بفكرة أحتمال الأرتباط بهم، ولكن المنظر أوقف كلّ شيئ.

كان علىّ أن أبلغ عمّى برسالة من مناقشات أهل بهية فى مصر فحواها: إذا كان لبهية أيّة حقوق فى أرض أو مال، فسيكون من العدل أن تأخذ نصيبها لأنها وحيدة. وفى نفس تلك اللحظة نقل عمى الرسالة إلى أعمام بهية. فكان ردّهم: أما الأرض، فلها أن تحوز من أرض البطانة ناحيتنا ما تشاء. وأمّا المال، فمالنا هو الأبل والبقر والضأن. ولن نبخل عليها، فاحكم يا شيخ العرب بما ترى. وحينما أدركت بهية أن أرض ا' طانة ليس فيها مدينة تشبه حتى القضارف، دعك عن الأسكندرية، اكتفت بالنصيب الذى قرّره لها أهلها، وبالمنزل الذى ورثته عن الرجل الشهم الذى منحها طمأنينة الأنتماء، الشيخ أحمد حمد أبوسن، الذى تزوّجها برّا بها وإحسانا إليها.

وما زلت أعجب كيف اختارت بهية ترك منزلها ووظيفتها ومدينتها الفريدة، لتعيش فى القضارف.! ليس هذا فحسب، وإنّما أخذت معها أخاها من أمّها، الطفل " مختار " وسودنته هناك إلى غير رجعة، وهو الآن سودانى ومتزوّج من سودانية وأولاده فى مختلف المراحل المدرسية.

وقصّة بهية ومختار، نموذج لطبيعة تركيبة شعب وادى النيل، وهى نموذج من ملايين النماذج التى لم يتح لها أن يكتبها التاريخ.

سنة١٩٧٩، زرت القضارف. منزل بهية ما زال يمتاز بلمسة حضارية.

ومع ذلك، أين هى مما كانت فيه ؟ قلت لها: أشعر أننى جنيت عليك حينما أصطحبتك إلى السودان. ما رأيك ؟ أريد أن أصلح غلطتى. سأقدّم لك تذكرة طائرة هدية منى لكى ترجعى إلى مصر وتعيشى مع " فيفى " التى تزوجت وطلقت، وما زالت فى فيلا نصير. وافقت، وجاءت إلى مصر، بالثوب السودانى هذه المرّة، وبعد أشهر عادت ألى القضارف. قالت لى: لم أستطع مفارقة أهلى بالقضارف!!

وقد سعدت، بعد طول أغتراب فى أوروبا، أن أكتشف أن مدام فاتنانت كانت ما زالت على قيد الحياة فى أواخر الثمانينات، مع ابنها جميل، وكان استقبالهم لى بنفس الحب والوفاء الذى عرفته وأنا فى سنة أولى حب.. فى الخمسينات! وما زال صديقى منير نصير وزوجته سعاد وأبناؤهما على ودّ باق دائم.



مع بهية وأهل اسكندرية



صورة التخرّج

مع التدهور... تذكّرنا المشروعات المرفوضة.

أثناء زيارة المجذوب للقاهرة أحتجنا إلى إرسال خطاب إلى شخص لا أذكره، لم يكن موظفا، واحترنا كيف توصل اليه الخطاب، فذكّرني المجذوب بأفكار كنت اقترحتها من خلال اتّحاد الدبلوماسيين، مستشهدا بها على خيبة الأمل فى نظام نميرى والذين خدموه من وزراء " النخبة" المزعومة. وقد ناقشت تلك الأقتراحات مع وزراء كنت أظنّهم من المنتمين إلى العصر الحديث، إذ لم يكن باطن نظام مايو المتخلّف قد بدأ يتقيّأ ضلالات النوبات والطار، والمدّاحين، ومشعوذى الأقاليم الذين زحفوا كالأفاعى إلى شوارع الخرطوم، بخرقهم الزيتية المزيّتة، ومسابحهم البهلوانية المضلّلة، وشعورهم المنكوشة القذرة، وصيحاتهم الكريهة المنكرة.

بلاد... بلا عناوين!!

كان المشروع الأول أقتراحا بتسمية جميع الشوارع فى العاصمة القومية وفى عواصم الأقاليم، مع وضع أسمائها على لافتات واضحة، وأعادة ترقيم البيوت بحيث يمكن أيصال الرسائل أليها بالبريد العام أو الخصوصى أوباليد. وقد سخر أحد الذين ناقشت معهم هذا الأقتراح وقال لى: أنت تأثّرت بحياتك فى أوروبا، هل تريدنا أن نضيع الآلآف المؤلّفة من الجنيهات فى صنع " يفط " للشوارع ؟ هذا نوع من مضيعة الوقت والمال. ونحن كده كويسين من غير عناوين ولاحاجة. وما زلت أعجب كيف لم يفكّر الشيوعيون الذين تفترض فيهم الحداثة، فى هذا المشروع ولم يتبنّوه. ولكن، مع الأسف، حتى الشيوعيين فى السودان أصبحوا " بَلَدى " خالص!

بناء مجمّعات للحكومة... وتغيير ساعات العمل.

والمشروع الثانى كان اقتراحا بتخصيص قرض من القروض الأجنبية، وكانت متاحة وكثيرة، لبناء مجمّع من أربع عمارات ضخمة تنتقل إليها جميع

دوائر الحكومة فى العاصمة، وعمارة واحدة مماثلة فى عواصم الأقاليم، وجميعها قابلة للزيادة بالطبع. على أن يضمّ كل مجمّع مطاعم وكافيتيريات ومصلّيات ودورات مياه، وأن يكون مكيّفا تكييفا مركزيّا، ويشتمل فناؤه على جراجات واسعة. وعند اكتمال بناء هذه المجمّعات يتمّ تغيير ساعات العمل للموظّفين بحيث تصبح من التّاسعة حتى الخامسة، مع منح ساعة للغداء، وإلغاء "ساعة الفطور" القبيحة التى تفشّت وأصبحت قانونا غير مكتوب بعد رحيل الأنجليز من السودان! وكان الهدف من هذا المشروع أمران:

الأول: خلق بيئة ومناخ صحّى وحضارى للموظّفين لكي يقبلوا على عملهم ويحبوه. وتوفير جوّ يسمح بتطوير البحث العلمي والدراسات فى الوزارت المختصّة. وعلاج القصور المشين فى المبانى الحالية للوزارات والأدارات الحكومية حيث يعانى الموظفون معاناة شديدة فى سبيل وجبة أكل أو مكان مناسب لقضاء الحاجة. وأخيرا، وليس آخرا، توفير المشقة على المواطنين الذين يقضون السّاعات، بل الأيام، فى الجرى المرهق من وزارة إلى وزارة، ومن مصلحة إلى مصلحة. ثم توفير الفرص الممتازة لاجتماعات التنسيق بين الوزارات، التى كثيرا ما تفشل أو تقطع بسبب بعد الشقّة بين الوزارات.

والثانى: توفير المساحات الشاسعة التى تحتلّها الوزارات والأدارات الحكومية بمبان بائسة، يضيفون إليها كلّ عام مبانى أشدُّ بؤساً وأقبح شكلا. وبيعها للمواطنين بشرط بناء عمارات عالية تساعد على ضبط التّمدّد الأفقى للعاصمة وعواصم الأقاليم. ولو حسبنا ما أنفق على ترميم وتوسيع وتجميل تلك الخرائب المسماة وزارات ومصالح منذ أن قدّمت أقتراحى حتى الآن لوجدنا المبلغ كافيا لأقامة كلّ تلك المجمّعات. وما زلت أرى أن هذا الأقتراح قابل للتنفيذ، ونحن فى أمسّ الحاجة اليه.

بناء مجمّع الأذاعة والتلفزيون.

سبق أن أشرت إلى هذا الأقتراح، بجعل دار الأذاعة والتلفزيون دارا عظيمة ضخمة ترمز إلى وحدة البلاد وتخدم هذه الوحدة خدمة وافية مقتدرة. لأنّها في النهاية أقوى أدوات الوحدة وأعظمها تأثيرا.

بناء شقق للدبلوماسيين العائدين.

ووسط هذه الأقتراحات " حشرت " اقتراحا ببناء شقق تخصّص للدبلوماسيين العائدين من الخارج من الذين لا أهل لهم ولا بيت في العاصمة، لرفع المعاناة المريرة التي يجدونها عند نقلهم إلى الخرطوم، يستأجرونها حتى يجدوا لهم مسكنا. وقد تحمّس الدبلوماسيون لهذا الأقتراح. ولكن منصور خالد رفض مجرّد النّظر فيه.

إضاءآت... ذكرناها.

وكانت زيارة المجذوب للقاهرة فرصة أستعدنا فيها ذكريات ندوات ولقاآت منزلنا بحيّ الملازمين في أمدرمان في الستّينات، حيث كنّا نقرأ الشعر ونستطعم منه خرائده وفرائده. ألقيت عليه أبياتا من شعره تعجبني في كلّ ليلة، وهو كعهدي به دائما لا يقول أكثر من عبارة واحدة: أنت أكثر الناس إحساسا بشعري.

بتول

يا حبيبي متى أَقِرُّ على حـــالٍ وقلبي قلّبتـــه قد يخــونُ
وفؤآدي، أما علِمْتَ فؤآدي جَذْبَةٌ دامـــرِيّةٌ وفُتــونُ
ريشَةُ طارقٌ ويطمح أن يلـــمسَ معنى الحيـــاة حيث تكــونُ
أكذا تكذبُ الحياة وفي عينـــيك وعدٌ من الحيـــاة أميـــنُ ؟
الهوى لا عدمتُه لذّة العيــــشِ وكأسٌ خِـداعُها قـد يُعيــنُ
ويغُرُّ النّفوسَ بالأمنِ والمـــوجُ تهـادَى على ذُراهُ السّفيـنُ

ظُلُماتٌ على يديها سهـولٌ مُذْعِنـــاتٌ رخيــة وحـــزُونُ

وحياتى على شِراعٍ وما يد رى، ويمضى بنا الهوى لا اليقينُ

وجهُهُ مُعرِضٌ وفى النَّظَرِ المخــــفوضِ إقبال عاشقٍ وحنينُ

رُبَّ دمعٍ كتمتُهُ وهو مــرٌّ ودمـــوعٌ هــى الزُّلالُ المعيـــنُ

<u>الصديق القديم</u>

ويا خِلِّى القديمَ قتلتَ صبرى وأذْهَبْتَ البقيّةَ من وفــاتى

حسبتُك لى هوى وأخا رحيما يشاطرنى الحياة بلا ادّعاء

ويعلمُ حينَ أُغضبُه اعتذارى ويعلمُ حين يُغْضِبُنى حَياتى

صبرتُ عليه لاينمو ويزكُو ويُظْلِمُ حين أمنحه ضيــائى

<u>سقوط</u>

كم نافرٍ يخشى عيونىَ مُجْفِلٍ أمسى فَرَاشةَ كُوبىَ المقـــدوحِ

يا أعصمَ الجبلِ المنيـعِ لقيتُه فى السّفح يسأل عن سفينة نوحِ

الهيتُهُ عن نفسه وســـرقتُها وخضبتُ ريش دلاله بجروحى

آوى إلىَّ فما علمتُ، أراقَـــهُ سِحرى الملوّنُ أم يخاف نزوحى

<u>بستان فقير</u>

مارستُ حظّى طويلا وما رضيت بيأسى

....

وعاد أمسىَ..لا أشــــــتهى صداقــةَ أمسى

والذكريات شمـــوعٌ قـامت تُضيئُ برَمْسِ

ولستُ أصبر عـجزاً فالصبر خِذْنُ التّأسّى

ولستُ أشكو زمـاني أشكو حبيبى ونفسى

منير.. والليل.

شربتُ ففى رأسى دوىٌ مجنّــــحٌ ... وفى بصرى أشباحه والمجـاهلُ
وأمشى، وما أمشى، فراقصتُ سكرةً ... تُفرقُنى فيـــها بجمسى زلازلُ
تَداركنى بالكأس كالنجم قاصيا منيرٌ، ... ورأسى فى يد الليـــل مـــائلُ
ينادى منادٍ فى رؤى السكر صــائحٌ ... بعيدُ الصدى أجراسُه والمشــاعلُ
خذ الكأس واشرب بل تــزوّد فربّما ... رحلنا، فهذا الليل بالأرض راحلُ

هجير.

أرى الوغدَ محمولا ورجلى مَطيّةً ... تَلِجُّ على درب من البؤس أحولِ
وتسخرُ منّى الشّمس أرجو سحابةً ... فأصحب خمّــارَ السّرابِ المُخبِّلِ

الطبيب

سَعَلَتْ حين جرعتُ الكأس رَغوتُها ... ضوءٌ هَشيمٌ بأَحنائى.. وصحراءُ
الأرض تُسقِطُ تحت الليـــل سُرّتَها ... ولَيدُها الصّبحُ فى الأفــاقِ بكّاءُ
ثدىٌ من الشّفقِ المسلــوبِ تعصيرُه ... يدٌ تحــوم وراء الشّمس عميـاءُ
يا ربّةَ الكأس من عطرٍ وزخــرفةٍ ... هل خلفَ حُسنِك ياحسناء حسناءُ

المسحور!

لم أجد غير لذّة العيش فى حســـّى فمن لى بلذّة فى النفوسِ
الرؤى فى العيون أسألها عنــــها فتنضو ثيابَها فى الكؤوسِ
يا صبيّا سجدتَ فى صحوة العمر عطوفا على الكتاب النفيسِ
سحرت قلبَك الشموعُ الرشيقاتُ فأمسيت من شيوخ المجوسِ
ولَعى بالحياة دينى وما شأنـــــى بيوم وراء تلك الرموسِ
ألمحتنى بَنَانَها الخفِرَ المعقـــــودَ سلمى تقول: يوم الخميسِ

الفتاة والبن!

عَدَلَتْ هِدْمَها، وألمح كالـــدَّومِ حِقاقاً جهِلْنَ معنى التَّوقِّـــى

وقَلَتْ بُنّها، وتنفضُ ما تَقْلى، تُذرّيه فى أناةٍ وحِذقِ
وشجانى صدىً تَرَنَّمَ فى الهــاونِ لحناً من ابتشارٍ وصفقِ
نَفَسُ الحبّهانِ من فمك البـــرّاقِ يا طفلتى يرفُّ ويسقى
واللّبانُ الذكيّ روّى الفنـــاجينَ رقاقا من ابتهاج وخفقِ
وتسلّلت من قيودى المريـــبات وأحمدت فى صفائكِ رقّى
لكِ عندى مكانةٌ هى محر اب صلاتى على صباى وعِتقى
أنتِ أعيطتِنى أماناً وضيّـــعتُ فى ليلة المدينة صِدقى
وشفانى لديكِ من وَضَرِ الخرطوم طُهرٌ وصحّ للحسن عِشقى
أترى تذكرين ضيفا تبركـــت به وهو مطرق مثلَ شِقٍّ

لوسى

تلك لوسى فجنّبانىَ لوســى ربّ كأسٍ تديرُ أعتى الرؤوس
شعرها العسجدى ينثال كالشـــلال، ينصبُّ فى قرار النفوس
وشفاهٍ كأنها الكرز المعطـــار تندى على شبابى اليبيس
وخدود أرقّ من بهج التفـــاح، من جوهر الحياة النفيس
صحوة الفجر ملء عينيك والأهـــداب خدر لما بها من شموس
خلف روحى مشارق الصبح مُذْ كـــان وعينى تعلّقت بالرموس

في الخرطوم... عودة أجواء أكتوبر.

بعد عودتى إلى الخرطوم سنة١٩٧٨، أصبحت اللقاءآت بينى وبين المجذوب متباعدة بسبب أسفارى الكثيرة، ولكننا أحسسنا معا بعودة أجواء ثورة أكتوبر ١٩٦٤ إلى الخرطوم، وكنت أطلعه على بعض ما كنت أقوم به من نشاط.

أحمد السيد حمد يقبل نصيحتى له بالأستقالة... ثم يتهرّب.

كان الشريف حسين الهندى قد أرسل إلى فى القاهرة رسالة مع بابكر كرار يهنئنى فيها بموقفى من نظام نميرى وخروجى من الخدمة الحكومية كأحد ضحايا النظام، ويعرض على الأنضمام إلى المعارضة فى ليبيا. ورددت عليه بأننى لاأستسيغ فكرة التفرّغ للعمل السايسى فى تلك السن، وأفضّل أن أكسب عيشى عن طريق العمل، وأن أسعى إلى اكتساب مزيد من التجارب والخبرات وأنا معارض للنظام على أيّة حال، فلم يعد إلى الأتصال بى مرّة أخرى. كان ذلك مفهوما ومتوقّعا بالنّسبة لى. فقد اشتبكنا، الشريف حسين وأنا، فى مناقشات طويلة وأحيانا مريرة حول سؤآل أساسى كنت أثيرة دائما فى أجتماعات اللجنة التنفيذية العليا للحزب الوطنى الأتحادى بعد ثورة أكتوبر، وخارج الأجتماعات، فحواه: **هل يستطيع الحزب الوطنى الأتحادى أن يستمرّ فى مركز الحزب الشعبى الأول فى السودان بنفس الأفكار والطريقة التنظيمية التى كان يدير بها المعركة ضدّ الأستعمار؟**

ومن أغرب ما أذكره أن الشريف حسين، وحتى مبارك زروق وغيرهما، كانوا يعتقدون أن هذا الحزب تسيّره قوّة سحرية جبارة، تأخذ موقعها الثابت فى قلوب الجماهير، وأن أيّة محاولة لتنظيمها أو تقنين أفكارها ستضعفها. بل أن مصير مثل تلك المحاولة هوالفشل المحتوم. وقد أختصمت أنا مع قيادة الحزب حول موضوع صالح محمود اسماعيل، وتوقفت عن حضور الأجتماعات،

وفى لقاء لى مع الشريف حسين وهو وزير للمالية، ذكّرته بما كنت أقوله وحملته مسئولية الفوضى التى بدأت تزحف على الحزب والحكومة.

ولكن.. مع ظهور دلائل الفساد فى حكم نميرى، بدأت أشعر بضرورة التحرك لأعادة الديمقراطية، عسى أن نكون قد أستوعبنا الدرس.

أتصلت بالحاج مضوى محمد أحمد وانتظمت معه ومع بعض الأتحاديين فى العمل، وكنا نتصل من حين لآخر بالسيد محمد عثمان الميرغنى، بصعوبة شديدة.

وفى أوائل عام ١٩٨٣ ذهبت، بمبادرة منى إلى د. أحمد السيد حمد، فى مكتبه بمجلس الصداقة، وقلت له: هل سبق أن قلت لك أن نظام نميرى آيل للسقوط؟ قال: لم يحدث. قلت: الآن جئت لأقول لك ذلك. لقد كنت أبحث طوال السنوات السابقة عن مؤشّر معين فى الشارع السودانى رصدته فى ثورة أكتوبر فلم أجده إلاّ هذه الأيام، هو مؤشّر يؤكد أن هذا النظام قارب نهايته. قال لى: ما هو هذا المؤشر؟ قلت: هو أستعداد المواطن العادى للموت فى مواجهة هذا النظام. قال: هذا أمر غريب، لماذا لا نشعر نحن بهذا الشيئ؟ وما هو الدليل على وجوده ؟ قلت: لا تعشرون لأنكم منفصلون تماما عن الشارع الحقيقى، أما الدليل فهو أننى أنا شخصيا أشعر بأننى سئمت الحياة فى ظلّ هذا النظام، ومستعد لمحاربته حتى الموت. قال: ما دام الأمر كذلك، فأنا أصدقك، وأثق فى تقديرك للأمور دائما. ماذا تريد أن تقترح علىّ ؟ قلت: أريدك أن تستقيل فورا لسبب هام. لم يعد هناك من يستطيع رئاسة حزب أتحادى موحّد غيرك. فقد فقدنا جميع القادة وآخرهم الشريف حسين الهندى. وأنت مقبول للجميع.

فكر أحمد السيد قليلا، ثم وافقنى على تحليلى وعلى فكرة الأستقالة، ووعدنى بأن يستقيل بمجرّد عودته من رحلة إلى الصين. وبعد العودة قال أنه سيستقيل بمجرد عودته من العلاج فى لندن. ولكنه مع الأسف لم يفعل، ولو كان

فعل لأنقذ الكثير.

إصدار كتيّب عن الترابي.

في نفس عام عودتي إلى السودان أصدرت كتابا صغيرا عن د. حسن الترابي ضمّنته بعض الرسائل التي كان قد أرسلها إلي وأنا طالب بالجامعة في مصر وهو في لندن يعدّ للماجستير والدكتوراه. وكان محور الكتاب سؤال طرحته هو: هل الدكتور حسن الترابي، سكرتير الأخوان المسلمين، هو استمرار طبيعي لحسن الترابي كاتب هذه الخطابات؟ وبالبحث تبيّن أنه شخص آخر تماما في عهد نميري. ولا بدّ أن أضيف الآن أن حسن الترابي صاحب " ثورة الأنقاذ " هو أقرب إلى كاتب الخطابات منه إلى منصّب النميري أماما للمسلمين وخليفة لربّ العالمين. وكما سبق أن أشرت فقد صادر الترابي ذلك الكتاب من المطبعة، وما زالت لدى نسخ منه كنت قد أخذتها من المطبعة في اليوم السابق للمصادرة، كتبت علي إحداها إهداء وأرسلتها ـ بسذاجتي المعهودة ـ إلى حسن الترابي في منزله بمنطقة الوابورات ببحري، وهو نائب عام!

أدب المقاومة.. تبادل الرسائل مع عزيز التوم.

ذات يوم، وقد ذاع خبري في المصرف العربي كمعارض لنظام نميري، أحضر إلي الزميل صديق حمد، الضابط السابق، قصيدة أتفق مع صديقه الشاعر عزيز التوم على ضرورة أيصالها إليّ، كتبها عزيز بعد قرار نميري بأعدام الأعناب وسفك دمها فوق أمواج النيل الرّاحل أبداً.

قرأت القصيدة العصماء، ثمّ كتبت إلى عزيز التوم الرسالة التالية: –

الأخ العزيز......[كان من المستحيل ذكر اسمه]

لك من التحايا أعطرها، ومن الأعجاب أكمله. ولقد أتاح لنا الصديق الصدوق......[كان من المستحيل ذكر اسمه] فرصة الأطلاع على رائعتك

الفريدة فى وداع البلاد لابنة الكرم، وسليلة الدّوالى القدسية، من حدايق بابل وإشبيلية.

ولقد أُعجبت بما قرأت أيّما إعجاب، وعجبت، فى ذات الوقت، كيف يكون لدينا شاعر فحل مثلك، لا تلهج به ألسنة إعلامنا " الفصيحة " صباح مساء. وكيف يجوز لأمّة فيها أمثالك أن يجور عليها الزمان ؟.

ألحديث ذو شجون.. وأنا لا أريد لشجونى أن تتمادى بى إلى حيث لا أريد.. حتى أتشرّف بلقائك، وأتجاذب معك أطراف الحديث.. إن أذنت.

ولقد قرأت قصيدتك مرّات عديدة فعنّت لى فيها بعض الأفكار، وأنا أزعم المعرفة بالشعر ونقده - فرأيت أن أحدثك عن أفكارى هذه وأقترحها عليك.

والأقتراح الأساسى يتعلّق بترتيب أبيات القصيدة. وقد أعدتُ ترتيبها على النحو الذى تراه " مرفقا " ـ بلغة المكاتب ـ ! والسبب فى هذا الترتيب للأبيات هو ما بدا لى من تداعى المعانى داخل القصيدة. وأنا أشعر أنّك قد توافقنى على هذا الترتيب، وأعرف أنّه لم يُتَح لك من الوقت ما يسمح لك بإلقاء نظرة تنقيحيّة على عملك الفنّى. فالقصيدة ما زالت "حارّة " ، وما زال وهج نفسك، وحرقة أنفاسك فى المخاض تشعّان منها.

وفى هذا الترتيت الجديد جعلت المجموعة الأولى تضمّ الأبيات المتعلّقة بوصف هذه الحسناء منذ ميلادها، ونشأتها، وتَجْلِيَتِها، وتَعْرِيَتِها، وما ينكشف فيها بعد ذلك من سحر ولهيب.

ثمّ جعلت المجموعة الثانية تضمّ الأبيات التى تحكى عن تلك الوقفة الدراميّة التاريخية المهولة ، حينما استبيح دم تلك العروس الزاهية ، وديس عليها بالأقدام ، وأُلبِسَتْ لِباسَ الذُّلّ والمهانة ، وسُفِحَت شرايينها فى النيل الخالد ، فسالت مع الموج ، وسالت خلفها المشاعر والأحزان.

وفى المجموعة الثالثة جمعت أبياتا جاءت مثل العظة والحكمة ، كما

يأتى الأستغفار بعد المآسى والكوارث والفقد الجلل.

وفى المجموعة الرابعة جمعت الأبيات التى يتحدّث فيها الشاعر عن علاقته الخاصة بالعروس، ثمّ استحضاره موقف " بشّار بن بُرد " ، وجريان حديث التُّقى ذلك المجرى.!

وفى المجموعة الخامسة، أخرجت ذلك البيت اليتيم ليكون قصيدة قائمة بذاتها!!

ولك منّى الأعجاب كلّه.

واسلَمْ.

أمّا القصيدة فها هى:-

عروس النيل

صفراءُ حيّا اللهُ لمعَ حَبَــابها	رقصتْ نجومُ الليلِ فى أكوابها
صفراءُ صافيةٌ يكاد زجــاجُها	من صفوهِ ينساب بين حبــابها
وُلِدت مع الأزهار فى أكمــامها	ونَمَتْ ونَثْرُ الطَّلِّ فى أهدابــها
وإذا الصباحُ الصَّحْوُ حيّا كرمَها	خزنتْ شعاعَ الشمس فى أعنابها
وإذا النّسيمُ الرَّخْوُ داعب غصنها	جعلت عبير الزّهر من أطيـابها
حتى إذا ينعت تولّى أمـــرَها	ذو خبرة يجلو فتونَ شبــابها
ومشت مُرنَّحةَ الدّنان يُديـــرها	ساقٍ يدور بها على خطــّابها
عُصرت لليلة متعةٍ مشهـــودة	أن العروس مُنىً بغير ثيـــابها
تتعدّد الأوصاف فى ألوانـــها	كتعدّد الأسماء فى أنســابها
الرّاح من أسمائها، والليل من نــ	ـدَمائها والخمر من ألقابها
هاروت دسّ السحر فى قطراتها	وأشاع ألوانا على أترابـــها
نار المجوسيين فى أحشـــائها	ولظى المجوسيات فى تلهـابها

ذابت هموم الناس فى رشفـــاتها وتعبّد الشعراء فى محرابـــها

***

صفراءُ راحلةٌ بكى لفراقـــها أحبابها وبكت على احبـــابها

البابليّةُ يوم قيل لها أرحـــلى ذهبت ليالى الأنس يوم ذهـابها

المُحسنون الوصفَ من شرّابها والقارضون الشعرَ من طلاّبـها

والمازِجونَ خيالهم بخيــالها والكأسُ بين أنامل وخضـابها

باتوا وقد رحلت رحيلَ فُجـاءة ما كان ضمن حسابهم وحسابها

باتوا بيات الظامئين وأصـبحوا يسعون خلف شميم مسك ترابـها

وقفوا بشطّ النيل يوم وداعـها فى لوعة لعذابهم وعذابـــها

سالت وسال النيل وأمتزجـت به والموج مندفع على اعقـــابها

عادت لبابلَ فى ثياب مذلّـــةٍ ما كان أكرمها على أثوابـــها

ولَرُبَّ نازحةٍ أضاف لِشَجوها مُرُّ الشَّكاةِ, الغدرُ من أصحـابها

***

أنّ الألُى سجد الرّجال لبأسهم من بأسها سجدوا لدى أعتـــابها

تعطيهمُ إلاّ الحقيقة فيـــهمُ والوهمَ من حُلو المنى وكِذابــها

تمضى القرون وما تزال فتيّةً سمراء يجرى الناس خلف سرابها

يهفو اليها القوم إلاّ أنّـــه شتّان بين كتابهم وكتـــابها

***

البابليّة طالما ســـــامرتها ونعمت فى ليل الهوى برُضـابها

طارحتها شوق المحبّ ووجدَهُ وجمعت ما بى فى اللهيب وما بها

أنّ الرئيس أبى علىّ وِصـالَها وأقام حرّسا على أبوابـــها

وإذا الرئيس أبى أبيتُ وطاعتى لا ترتقى الشُّبُهاتُ فى أسبـــابها

هذا زعيمى قد رضيت بحمكه وشريعةٌ ما كنت من أربـــابها

أنّ الزعامة فى الرّجال مهـابةٌ   والأسدُ تملك أمرها فى غــــابها

***

نبحت كلابُ دويلة مأجــورة   وأنا الذى يكفيك نُبْحَ كلابـــــها

وقد أرسل ألـىّ عزيـز التـوم رسـالة رقيقـة يوافق فيهـا علـى الـترتيب الجديد للقصيدة وعلى تعديل بعض الكلمات، وعلى الأسم المقترح للقصيدة، وقـال لى مجاملا إنه لو جلس عامين ليحاول أنجاز هذا التعديل لما استطـاع.

وختم رسالته ببيت جديد من نفس وزن القصيـدة وقافيتهـا يثنـى فيـه علـى اقتراحى ويقول:

وهل اللآلئُ وهى فى أصدافها   مثلُ اللآلـئِ فـى يـدى نقّابهـا ؟ وكـان عزيـز التوم يوزّع هذه القصيدة شفهياً حسب الظـروف؛ فـأذا وجـد المجـال حـراً أنشـدها دون أبيات التقيّة، وإذا طالبه بها سدنة النظام أنشدهم معها أبيات التقيّة.

ألغام ليبيا البحرية.. تفسد خطّة التوفيق.

فى أوائل عام ١٩٨٤ كانت علاقات نظام مايو مع مصر متوتّرة إلـى حد مّا، وكانت سيئة مع ليبيا، وكان التوتّر بين مصر وليبيـا قـد بـدأ يخـفّ قليـلا. فرأينا أن الفرصة مناسبة لأجراء اتصال بمصر و ليبيا لكى تتفقا على عـدم إدارة أى صراع بينهما داخل السودان، وأن تمنحـا فرصـة للشـعب السـودانى للتخلّص من نظام نميرى دون أن تناصرا الحكومة أو المعارضـة. عرضـت الفكـرة علـى الدكتور بطرس غالى فى الطائرة، ونحـن عـائدان مـن أديـس أبابـا فوافـق عليهـا ووعد ببحثها مع المسئولين فى القاهرة. كنـت فـى طريقـى لحضـور اجتمـاع فـى طرابلس فعرضت الفكرة على وزير الخارجية على التريكى الذى تحمّس جدا

حينما علم أن هناك ترحيبا مبدئيا من مصر، ووعدني بعرض الفكرة على القذافى فى نفس الليلة. وفى اليوم التالى قال لى أن الأخ العقيد موافق تماما على الفكـرة، ويطلب منك ترتيب اجتماع مع الجانب المصرى لتـأكيد الأتفـاق علـى عدم إدارة أى صراع في السودان بين الدولتيـن. ركبـت ا لطـائرة عـائدا إلـى السـودان عن طريـق القـاهرة، وقـد غمرتنـي فرحـة بأحتمـال تعاون مصـرى ليبـى فـى جميـع المجالات وليس فى الشأن السودانى فقط، وانتعشت مشاعرى الوحدويـة التـى لـم تمت قط. وفى نفس يوم وصولى انفجرت فضيحة السفينة الليبية التى بثّت ألغامـا بحرية فى مداخل قناة السويس. وحمل الأعلام المصـرى النّبـأ مـع هجـوم كاسـح على تظاهر ليبيا بالمصـالحة وهى تدبّر المكـائد القاتلـة. لـم أحـاول الأتصـال بـأى شخص حول الموضـوع، فقد أنهدم أساس الخطّة.

مأزق الحركة الأتحادية... والورثة العاجزون.

شهدت الأنتفاضة نموذجا كلاسيكيا لحالة " انقطاع الراس" لدى الأتحاديين. ومن بليغ كلام السودانيين عبارة " فلان راسه مقطوع" ! وهى تعنى أن الأنسان فقد المقدرة على الأختيار و تحديد الأتجاه. فبينما كان بعض القادة فى قلب المعركة، كان البعض فى سنكات.

وكان من أشق الأمور على أن اجد نفسى محاطـا مـن كـل اتجـاه بقيـادات الصفّ الثالث والرابع وقد تربّعت فى قمة الهرم، وهرب المثقفون والمستنيرون من أعضـاء الحـزب. كـان الأتحـاديون مجموعـات، وكـانت كل مجموعـة تحيط بشخص ورث الزعامة من أحد القادة الذين فقدناهم، وراثة ليس فيها حق بل كلها باطل. ولم تكن المشكلة فى وراثة الدم عند القيادة الدينية لـو انّهـم ورثـوا العقـول الواقعيّة . ولم تكن المشكلة فى وراثة النضـال عند القيادة السياسية لو أنّهم ورثـوا الثقافة وتقديـم المقتدريـن. وقـد اتّضـح لـى منـذ وفـاة الشـريف حسـين الهنـدى أن الطريقة الوحيدة لأعادة الأنسجام بين القوى الأتحادية هى فى أعادة أنشاء الحـزب

الوطنـي الأتحـادى حتـى تستقيم الصـورة مـن جديد وحتـى يمكـن إعـادة توحيـد الكيانين السياسى والطائفى على نفس الأسس، ذلـك أن حسـين الهنـدى كـان آخـر رجال الصفّ الأول الذين كـانوا ـ مثـل أسـماعيل الأزهـرى وعلـى المـيرغنى ـ مستعدّين لقيادة الأتحاديين والختمية فى حزب موحّد.

أما البقية الباقية أبّان الأنتفاضة، فكان فيهم أربعة رجال ينظـر أليهـم علـى أنهـم فـى مقدّمـة الوارثيـن: الحـاج مضوى و محمد عثمـان المـيرغنى وزيـن العابدين الهندى وأحمد السيد حمد.

أما مضوى: فقد كان طموحه يفوق أمكانياته. والقصة التاليـة تلخّص هـذه الحقيقة. سألته: هل تطالب برئاسة الحزب؟ قال: نعم. قلت: رئيس الحزب هو فى النهاية رئيس وزراء البلد، فهل ترغب فى أن تكون رئيس الـوزراء ؟؟ قـال دون تردد:(ولم لا ؟ طبعا ممكن... انتو المثقفين معقّديـن وتـابعين للطائفيـة المتعفّنـة. أنتو مستعدّين تقبلوا ودّ الميرغنى رئيس للحزب وللوزارة. وما بتقبلونى أنا ، مع أن ا لخلوة اللى تخرّجت منها زى الخلوة اللى تخرّج منّها هو إذا ما كانت أحسن. قلت: الخلوة ؟ قال: أيوة الخلوة. ولاّ بتفتكرها كانت مدرسة ثانوية زى ما بيقولـوا ؟ قلت طبعا مدرسة ثانوية، الناس كلها عارفة. قال: أسأل عبد القادر شيخ إدريس " أبوهالـة"، استاذ خلـوة ـ مدرسـة الأشـراف، المـدرس الوحيـد اللـى طلـع علــى المعاش من غير ما يترقّى مرّة واحدة. كان شيخ الخلوة) فيئست من حالته.

وأما م. ع. الميرغنى فكانتً أمكانياتـة تفوق طموحـه. وعلـى كعس والده والأزهرى، الذين كانا حريصين على قيادة الأتحاديين والختمية معـا، ورث هو فكرة العداء الأبدى بين الأتحاديين والختمية، فأصبح هدفه هو تخليـص الختمية من الأتحاديين، ثم تخريب صفوف الأتحاديين.

وأما زين. الهندى: فأنّه ينتمى إلى طبقة الشعراء الفنانين الزهّاد، أكثر مما ينتمى إلى السياسة. وهو رجل نقى الضمير صادق الوطنية جزل اللسان

والبيـان، ولكنـه فيءعـالم السياسـة تحكمـه قـاعدة فلسـفية واحـدة هـى: " لا فـائدة.. لافائدة من أى عمـل.. لافـائدة مـن أى نشـاط. فكلـه إلـى زوال.. وتبقـى لحظـات المتعة الجميلة".. أنه فنان حتى النخاع وكفى.

وأما أحمد السيد حمد فقد كان جديرا به أن يتصدّى لمحاولـة قيـادة وتوحيـد الأتحـاديين بعـد الإنتفاضـة لـولا رفضـه لاقتراحى بالأستقالة مـن نظـام نميرى، ثم انغماسه فـى مسيرة الـرّدع. وأظـن أن أحمـد السـيد رفـض اقتراحى بالأستقالة والتصدى لقيادة وتوحيـد الأتحـاديين لأنّـه أصـلا قد وطّـن نفسـه علـى التبعيّة منذ زمان بعيد، وقد عرف فى نفسه أنه غير صالح للقيادة.

ومن بين كلّ القيادات التاريخية فى تلك الأيام، هناك رجل واحد كان يمكن أن يغير من حالة الأنهيار التـام لـو أنّـه أختـار أن يلعـب الـدور الـذى كـان منطقيا بالنسبة له. ذلك هو محمد الحسن عبدالله يس. فمحمد الحسن دخل الحزب الموحد " الأتحادى الديقراطى" كممثل للأتحاديين. بل كان من أهم العنـاصر التـى اعتمد عليهـا الأزهرى فـى أنجـاز الوحـدة. ولكنـه قبيـل الأنتفاضـة اختـار موقـع الأنحياز الكامل للقيادة الطائفية. ولو أنه اختار أن يمثل الجانب الآخر فى تحـالف مع القيادة الطائفية فلربما أستطاع خلق قدر أكبر من الأحساس بالتوازن.

فى ضوء كلّ تلك الحقائق كان لا بدّ لى من القيام، مع آخرين، بأعلان عودة "الحزب الوطنى الأتحادى " بعيدا عن كلّ تلك الأسماء. ولكن، كيف حدث ذلك ؟

فى أواخر سنة١٩٨٢ تأكدت من نوايا م. ع. الميرغنى. صحيـح أنـه كـان فى كلّ تحركاته أحذر من قنفذ، إلا أنّه كان يتعمد الأبتعاد عـن الأتحـاديين بصفـة خاصة. وكان من السهل قـراءة مـا فـى عقلـه. فزعمـاء الأتحـاديين كلهـم مـاتوا، وأصبحـت الفرصـة مواتيـة لزعيـم محـدود الطمـوح، مهـزوز الثقـة بـالنفس، أن يخلّص الختمية من الأتحاديين، وأن يعتمد على ضعفاء النفوس من الأتحـاديين فى

تخريب مجموعتهم، فقال قولته الشهيرة:(أنا ما حأكرر غلطة السيد على اللى سمح للسياسيين أنهم يتزعّموا الختمية.)

بعد ذلك اقترحت على مجموعتنا أن نعلن العمل بأسم الحزب الوطنى الأتحادى، وقدمت لهم أسبابى. فتظاهروا بأنّهم أقتنعوا بالأسباب، والحقيقة أنه كان من العسير على خبرتهم العقلية والثقافية أن تستوعب الأبعاد السيكلوجية لموت القادة الكبار للأتحاديين فى نفس القيادة الحليفة، وما يمكن أن ينشأ فى ذهنها من أطماع، بالأضافة إلى أن حاج مضوى وحسن حمد أعتبرا أن الموضوع سيغضب الرئيس أزهرى فى قبره.. فتأمّل.!

وظللت فى كلّ الأجتماعات أكرر أقتراحى وهم يماطلون حتى كانت ليلة السابع عشر من مارس سنة١٩٨٥ حينما اجتمعنا فى جنينة حاج مضوى خارج الخرطوم فى الحادية عشرة مساء، وكانت رياح الثورة قد بدأت تهبّ بقوة على العاصمة. فى ذلك الأجتماع اتخذنا قرارا أقسمنا عليه وهو أن يكون اجتماع مضوى مع زين. الهندى وم. ع. الميرغنى فى اليوم التالى آخر أجتماع، فأذا فشل يعتبر الحزب الوطنى الأتحادى معلنا، وحددنا الموعد أسبوعا لاجتماعنا القادم حيث يتم الأعلان. الأجتماع القادم كان فى منزل حاج مضوى بالخرطوم ثلاثة، حيث انكسر حاجز الخوف تماما من نظام نميرى. فى ذلك الأجتماع أبلغنا مضوى بفشل مساعيه مع زين العابدين ومحمد عثمان، فطالبت بأعلان قيام الوطنى الأتحادى فورا، فجاءنى ردّ باطل من حاج مضوى:(بيلومونا، بيلومونا يا شيخ العرب.) فتحركت لأخرج، فتصايحوا: انتظر.. انتظر. فصحت وأنا أغادر الأجتماع:(أذا أنا انتظرتكم، الشارع ما بينتظركم.) ولم أعد إليهم بعدها، وأنما حاولوا هم اللحاق بى وبعلى محمود حسنين، بعد أن يئسوا من نظرية أحتلال الحزب من داخل بيت الميرغنى كما كان يقول لى حاج مضوى، وكنت أقول له: لاداعى للأحتلال، فلننظم أنفسنا، وننتخب قيادة جديدة لنا ثم نعود

إلى الأتحاد معهم.

خرجت من ذلك الأجتماع إلى نادى الأساتذة بجامعة الخرطوم، حيث كنت خلال عامى ١٩٨٣-٨٤، ألتقى بانتظام مع القيادة التى بدأت تتبلور للعمل الثورى. وبدأت نشاطا مكثّفا معهم.

بعد أيام من النشاط عانيت من ذبحة صدرية الزمتنى سرير المستشفى ثلاثة أيام عدت بعدها إلى المنزل، والعمل من هناك. وفى ليلة ٣/ أبريل/١٩٨٥- اليوم المحدد للمظاهرة الكبرى والمواكب ــ كانت الضغوط من أجهزة الأمن قد تضاعفت ضدّ قادة نادى الأساتذة وحوصرت بيوتهم، فاتفقت مع أبن عمى د.عدلان الحاردلو، على أحضارهم ليبيتوا على سطوح منزلى بشارع ٣٥ بالعمارات، حيث كنت أقلّ شبهة منهم. وفى الصباح أخذتهم فى سيارتى وتوزعنا على المظاهرات. ذهبت إلى مسيرة شارع القصر حيث جاء موكب المحامين.

وقد تعوّد الناس أن يتحدثوا عن دور النقابات والمنظمات السياسية والأحزاب والجيش فى الأنتفاضة، ولكنهم لا يتحدثون عن دور الشرطة. وأنا أشهد بأن الأنتفاضة لم تتأكد ألاّ حينما شعرت مواكب المتظاهرين بأن ضباط وجنود الشرطة قرروا عدم التصدّى للمتظاهرين. حينئذ خرج من كان مترددا وتسرب الرعب إلى قلوب رجال جهاز الأمن.

أمام المستشفى فى شارع القصر كانت هناك مجموعة من شبّان الأمن يحملون مقابض الفؤوس الغليظة ويقفون صفا أمام الجماهير. وجدت المناضلة الشجاعة علوية الفاتح البدوى ومعها بعض صديقاتها وسط الجموع. قالت لى: ماذا تفعل هنا وأنت مريض بالذبحة، وتكاد تموت ؟ قلت: إذا كنت حاموت، أحسن أموت هنا. ثم اقترحت عليها أن نقنع الأولاد الذين يوجهوننا بالهراوات أن يتخلّوا عن مهمتهم، ثم بدأت أخاطب الأولاد قائلا: أنظروا حولكم، هؤلاء هم آباؤكم وأمهاتكم، فهل ستضربونهم ؟ ظهر عليهم الأرتباك، فاذا

بعلوية تهجم عليهم بشجاعة وهى تنهرهم: ياولد بلاش قلة أدب. تعالوا هنا، زحّوا كدة، وأخذت تدفعهم، فقلت لها: الأفضل أن يقف أبناؤنا هؤلاء وراءنا على هذا الحائط، وفعلا أفسحنا لهم طريقا فذابوا فى بحر الجماهير. ثم تقدّمت نحو سيارة قائد القوّة الأمنية فى وسط شارع القصر لأقول له نفس الكلام، ولكننى فوجئت بوابل من الرصاص من الأسلحة الأوتوما تيكية ينهمر فوق رأسى، وبثلّة من الجنود تجرى نحوى فأيقنت أننى لا بدّ هالك. ولكننى فوجئت بهم يتجاوزوننى ويهجمون على الجماهير التى أفزعها دوى الرصاص فدخلت بيوت الجيران التى فتحوها عن طيب خاطر. لم أجر أمام الرصاص، ليس شجاعة منى، ولكننى كنت ممنوعا من الجرى والحركة العنيفة، فخشيت أن أموت، فاصبح شهيدا، بدلا من أن أشهد نجاح الثورة، والمشاهدة أولى من الشهادة.!

وفى نفس الليلة حضر لزيارتى فى منزلى د. تيسير محمد أحمد على، ود. محمد الأمين التوم، وأحضرا لى مسودّة ميثاق الأنتفاضة التى اتّفقوا عليها مع الصادق المهدى لأقوم بتوقيعها باسم الحزب الأتحادى الديمقراطى. فلاحظت غياب بند هام هو الدستور الذى ستحكم به البلاد فى الفترة الأنتقالية، فاقترحت النص على دستور ١٩٥٦المعدل١٩٦٤، وملاحظة أخرى نسيتها الآن، ولم أوقّع. وفى المساء عادا ألى وقالا أنّ الصادق وضع يديه على رأسه حينما ذكرا له ملاحظتى وقال: كيف نسينا الحكاية دى ؟

وانتصرت الثورة. وفى الليلة السياسية الأولى للأنتفاضة تحدثت فحققت هدفين عزيزين على: الأول هو أن أدعو مئات الآلاف الذين اصطفوا أمامى فى الميدان الشرقى للجامعة، إلى الوقوف دقيقة وقراءة الفاتحة على روح الشهيد محمود محمد طه. فوقفوا وقفة مهيبة كانت استفتاء حول الشعور الحقيقى للناس. والثانى هو إعلان قيام الحزب الوطنى الأتحادى.

ثم ذهبت إلى على محمود حسنين وعرضت عليه فكرة الأشتراك معى فى

تبنّى الدعوة إلى الوطنى الأتحادى، وأن يكون هو رئيس الحزب فوافق، وأنشأنا حزبا نموذجيا كان هو الأكثر تأثيرا داخل التجمّع الوطنى لأنقاذ البلاد. فقد تقدّمت باسم حزبنا للتجمع بمشروعات القوانين التالية:

ـ ميثاق الدفاع عن الديمقراطية. (وافقوا عليه ووقّعوه فى أحتفال كبير بأمدرمان)

ـ قانون معاقبة سدنة مايو، ومعاقبة الفساد. (تملّصوا منه)

ـ قانون تنظيم الأحزاب (رفضه حزب الأمة والأتحادى الديمقراطى، والشيوعى)

ـ ميثاق الشرف الحزبى. للأتفاق حول المسائل القومية، وجعلها فوق المزايدات الحزبية.

(وقد تملّصوا منه.)

ـ ميثاق الشرف الصحفى والأعلامى. (تملّصوا منه)

ـ قانون إلغاء قوانين سبتمبر (رفض الحزب الشيوعى المشاركة فى تقديمه، ورفضه حزب الأمة والأتحادى الديمقراطى)

مؤآمرة المهندس عوض الكريم.. وخاله.

بذل رجال الأتحادى الديمقراطى جهودا جبارة لمنع ظهور الوطنى الأتحادى. ومع أننى كنت الممثل الوحيد للأتحاديين مع القيادات النقابية وأساتذة االجامعة، ومع ان دورى فى إعداد ميثاق الأنتفاضة كان كبيرا، ألاّ أننى فوجئت بعقد اجتماع للتوقيع على الميثاق لم يخطرونى به، وبعد أن وقّعوا لاحظت شطب أسم الوطنى الأتحادى، فسألت المهندس عوض الكريم، الذى كان سكرتيرا للأتحاد لماذا شطبوه ؟ فحاول التهرّب، وأخيرا اعترف لى بأن د. عثمان عبدالنبى مندوب م.ع. الميرغنى هو الذى أصرّ على شطبه، فلما ثرت وطالبت بتفسير لهذا التصرّف قال لى إن عثمان عبدالنبى خاله، ولم يستطع رفض طلبه!!

هذا التصرف الغريب هو حالة سودانية طبق الأصل، وتكمن وراءه نفس العقلية التى شكلت الحكومة الأنتقالية المهزلة. وهو الذى قاد إلى فشل التجمع الأول. أنها حالة الأسترخاء العقلى والألتزامى التى يعانى منها المثقفون السودانيون، والتى تتهدد أداءهم الآن وهم فى الشتات هروبا من حكم الجبهة الأسلامية.

آخر اللقاءآت...

لم ألتق المجذوب فى عامه الأخير ألاّ على عجل. كنا على موعد؛ أن يكمل هوبناء بيته، وأن أكمل أنا بناء بيتى ثم نعيد الجلسات ونجتر الذكريات. وفى آخر جلسة لنا، وقد تيسرت بصعوبة وسط اسفارى وانشغالى المرهق، كان شديد المرح. وقد تذاكرنا ثلاث حكايات مرحة مع مناسباتها:-

محمود محمد طه... وفايزة عمسيب.

كانت المواجهة بين الأخوان الجمهوريين ونظام نميرى فى أوجها، وفى التلفاز حيث جلسنا كانت تدور تمثيلية فيها فتاة أشار اليها المجذوب وقال: هذه الفتاة أحدثت بِبِضْعِها ثورة ضدّ الأستعمار! قلت كيف.. ومن هى؟ قال: هذه هى الفتاة التى كانت فى عاصمتكم ياشيخ العرب، والتى أرادت أمها أن تختنها فاعتقلها عمك عمدة رفاعة بأصرار من المفتّش الأنجليزى، فقام الشيخ محمود محمد طه بالثورة فى رفاعة... عاصمتكم يا شيخ العرب... أما اسمها فهو " فايزة عمسيب"! قلت للمجذوب - أغيظه – لى رأى فى تلك الأحداث ربّما لا يعجبك وأنت قد كتبت قصيدة حولها. قال: نسمع يا شيخ العرب. قلت أن تلك الأحداث تنطوى على مفارقة غريبة، وهى أن المستنيرين فى السودان كانوا يؤيدون الحملة القوية ضدّ الخفاض الفرعونى، والقانون الذى يجرّم من يرتكبها . أما التقيديون، ومنهم نظار القبائل ورجال الأدارة الأهلية، فكانوا يقاومون تلك الدعوة إلى ترك الخفاض. وما رأيناه فى أحداث رفاعة غريب؛ لأن عمى العمدة عبدالله محمد عوض الكريم، عمدة رفاعة، نفّذ رغبة المثقفين بمعاقبة مرتكبى المخالفة

القانونية، فتعرّض لكثير من السخرية من أهله السنّاب، ثم تعرّض لثورة المثقفين والمستنيرين فى مدينة رفاعة ومظاهراتهم. أليس عجيبا أن يتّخذ المثقفون من الخفاض الفرعونى القبيح قضية يدافعون عنها، ويتّخذونها سببا لقيام المظاهرات ضدّ الأستعمار ؟ ثمّ، أليس ملفتا للنظر أن الأدارة الأهلية وقفت إلى جانب تيّار الوعى، بينما وقف المثقفون إلى جانب التقاليد البالية، بل وسفكوا الدماء دفاعا عنها ؟ قال المجذوب بعد أن أستمع إلى صامتا: لكين والله مرافعة يا شيخ العرب. الكلام مابغلبك.

ردّ الأعتبار إلى محمود محمد طه

ولقد تمنّيت أن لو عاش المجذوب ليشهد الأحتفال الضخم الذى أقمناه عبر أسبوع كامل بنادى الأساتذة، تخليدا لذكرى الشهيد محمود محمد طه، وكان احتفالا ذا طابع "سنّابى" إذ قدّم متحدثّيه د. عدلان الحاردلو أبوسن، وكنت أنا أوّل المتحدثّين. وقد شعر كلانا بانتماء محمود الكامل إلينا، وأنتمائنا إليه، فكرا وروحا وبلدا وتقاليد، فقد كان الشهيد يلبس الثوب، كأهلنا. وكان استهلالى لحديثى بعبارة قالها " فولتير" هى : (أنّ مَنْ يقول لك: لا بدّ من أن تؤمنَ بما أؤمن به، وإلاّ لعنك الله... لا يلبث أن يقول لك: لا بدّ من أن تؤمن بما أؤمن به.. وإلاّ قتلتك!!) فأقبل كلّ من فى الجامعة إلى الأحتفال بسبب التصفيق الحاد المدوّى الذى أذهلنى. وقد حفظت تلك العبارة وأنا فى المرحلة الثانوية، فتأمّل. وقد قام د. مروان حامد الرشيد بدور بارز فى تنظيم تلك المظاهرة الثقافية الفريدة.

وليس فى إعجابنا بمحمود محمد طه غرابة. فأهلنا كانوا يحبّون العلم والعلماء دائما. وقد نشأت العلاقة الحميمة مع المجاذيب حبّا للعلم. وما زلت أذكر ألتفاتة صادقة أمينة من الرجل الشجاع المهندس أحمد الطيب بابكر حينما حضر لتقديم واجب العزاء فى الشيخ عبداللاه أبوسن. فقد قرأ الفاتحة، وقبل أن يجلس

خطب فى الناس قائلا: أريد أن أشهدكمَ على أننى قلت هذا الكلام فى حق الشيخ عبدالاه: كنت طالبا صغيرا وقد نجحت فى الأمتحان وتأهلت لدخول كلية غردون، ولكن والدى لم يكن يملك مالاً يشترى لى به ملابس أدخل بها الكليّة، فصرف النظر عن إدخالى الكلية، فحضر شيخ عبداللاه وكان صديق والدى، فتألم جدا لحالتى، وقال لوالدى: أترك الأمر لى. ثم أخذنى معه إلى السوق واشترى لى ملابس من الدرجة الأولى، وكانت الملابس فى الكلية درجات؛ أولى، وثانية، وثالثة. فدخلت الكلية وكأننى من أولاد الأغنياء، ولم يتخلّ عنى شيخ عبداللاه حتى تخرّجت وعلّمت أخوانى. هذه شهادة للتاريخ أمام الله.

الشاعر الحلمنتيشى، خليل عجب الدّور.

ثم جاءت سيرة الشعر الحلمنتيشى الذى أنتشر بين طلاب الجامعة، فطلب إلى المجذوب أعيد عليه أبياتا من شعر ذلك العبقرى المضيّع، شاعر القضارف خليل عجب الدور:-

زراعة الحريق بالقضارف.

وسِرتُ مُبتدِراً للزّرع فى نَفَرٍ	من المساليتِ هم نصف الثلاثينِ
مِنْ كلّ مَنْ أسمه موسى بن ابكَرٍ	ولد إساغةَ أو عيسى بن هارونِ
ولُقمةٍ من دقيق الدّخن دافئةٍ	ألذّ فى الأكل من قرّاصةِ الفينى
صنعتُها بيدى فى الصاج لينةً	كأنّما صُنعت فى دوكة الطينِ
مُلاحُها ويكةٌ لايوقةٌ وبه	ملحٌ أُجاجٌ وفيه فَصٌ عطرونِ
هذا الملاحُ لذيذ كالطبيخ لنا	يشتاقه الكلّ من حينٍ إلى حينِ
فأن عدمنا هناك الزّادَ لا عجبٌ	فكلنا يأكل الحمَيض كالتينِ
وإن ظمئنا شربنا الماء من حُفَرٍ	فيها الدّغاليب أضعاف الملايينِ
إنى هناك نحيلُ الجسم من تعبٍ	ممزّقاتٌ قبيحاتٌ دلاقينى
معفّرُ الوجه حافٍ غيرُ منتعلٍ	وحاسر الرأس فى شكل المجانينِ

بين ديك ودجاجة.

ودجاجةٍ صاحت بأعلى صوتــــها تهوى سِفادا عاجلا من ديـــكِ
أبصرتها انتفضت وأبدت بيـــــننا نبرات صوتٍ فى الصّباح ركيكِ
فأذا بديكٍ جاء ينفض عُرفــــــه مُرخى الجناح يحوم كالصعلوكِ
ولقد جرى من خلفها فأذا بها تبكى فقلت لها: ومـــا يبكيـــــكِ ؟
قالت أخاف الدّيكَ قلت لها اصبرى أن البكا والجرى لا ينجيــــك
لم تمض بضع ثوان حتى شِمـــتُها من تحته تركت كياكَ وكيــكى
ولقد تقابل عجز كلّ منهمــــــا مع عجز صاحبه بلا تشبيـــكِ
فهناك ألقى الدّيك أخبث نسمـــــةٍ فكأنها ممزوجةٌ بفنيـــــــكِ
وانحطّ عنها وهو منهوك القـــوى يمشى بطيئ السير غير وشيـك
عجبى له ديكا وياعجبا لـــــــها كيف استلذّت من فساء الديــك.

وجع رقبة، ووجع عيون، ووجع بطن، ووجع ضرس!!

ألمٌ بفِقْرَه..

وعينٌ فيها عَبرة..

صبّ نوحٌ فيها قطرة..

من فتيل الأجزخانه.

+++

ضرسٌ فيه صُفره..

ودماءٌ مُستمرّه..

شقّ فيه السّوسُ حُفره

مثلَ خُرم الكُستُبانه.

+++

بطنٌ فيها عُصرَه..

تتلوّى كلّ مرّة..

لم تُطق هضما لكسره..

كلّما هاجت.. سخانه.

+++

أمعن الدكتور نظره..

فى فمي.. وأجـــال فكره..

فأذا شيئ كـَ.. بُذْره

قال لى خذه أعانه.

+++

قلت نوحٌ تلك حَشْرَه..

لن أبارح قيد شعره

فاعطنى بالله إبره..

كفلانٍ وفلانه.

كان المجذوب شديد الأعجاب بخليل عجـب الـدّور، وكـان يسـمّيه: الشـاعر الكميرا، لمقدرته الفائقة على الوصف والتشبيه. وقد قضى خليل جزء من صباه مع الشيخ عبدالله البنّا فى أمدرمان، وكان شيخ البنا يهجوه مداعبا فيقول:

خليلٌ عجبُ الدّورِ   شبيه الوجه بالثور

خليلٌ شاعر باتـــا   شبيه الوجه بالباتا !

رثاء محمّد حاج حسين لصديقه الحي!

وبعد الضحك مع خليل عجب الدور جاء وقت البكاء. فقد حدّثنى المجـذوب عن صديق له قال أنه كان فاتكا وزير نساء، خدم معه فى الشرق وفـى الجنـوب،

ثم أصبح جارا له فى العاصمة، فكان نعم الصديق فى وفائه ونجدته وإمتاعه. ولكنه أصيب فجأة بداء الخَرَف. فأصبح لا يميّز بين الناس ولا يهبّ لنجدة صديقه أو لأنسه وأمتاعه، وأنّما لزم الصمت، وذكرنى بالشاعر الظريف محمد حاجّ حسين حينما رثى صديقا له لم يمت، ولكنه أصبح حيّاً كميت، مثل صديقه، وطلب إلى أن أكتب له الرثاء:-

لى صاحبٌ هو بعض نفسى..

لا يطيب بغيره أُنسى..

عاشرته طوال عمرى.. فلم يمتحن صبرى..

مَهيب القيام إذا وقف..

سليطٌ اللسان إذا قذف..

فارسٌ لا يُشَقّ له غبار..

يلِجُ المفاوز والغِفار..

نسجُ وحدِهِ بلا منوال..

نسجُه لم يخطر على بال..

+++

فلمّا تقادم العهدُ..

وقلّ عندىَ الرّفدُ..

وأثقل كاهكلى بالمعاصى..

وشابت منّى النواصى..

فترت همتَه.. وتعثّرت نجدتَه..

فكأنّه لم يكن ذلك المغرور.. مُلهَم الفسوق والفجور..

ومن كان إذا وطأ الثرى.. فكأنّما يطأ الورى.

+++

فيا مَن تعلّقت همّته بالثريّا..

بتّ محسوبا عليّا..؟

+++

قد فارق القوم..

واستسلمَ للنوم..

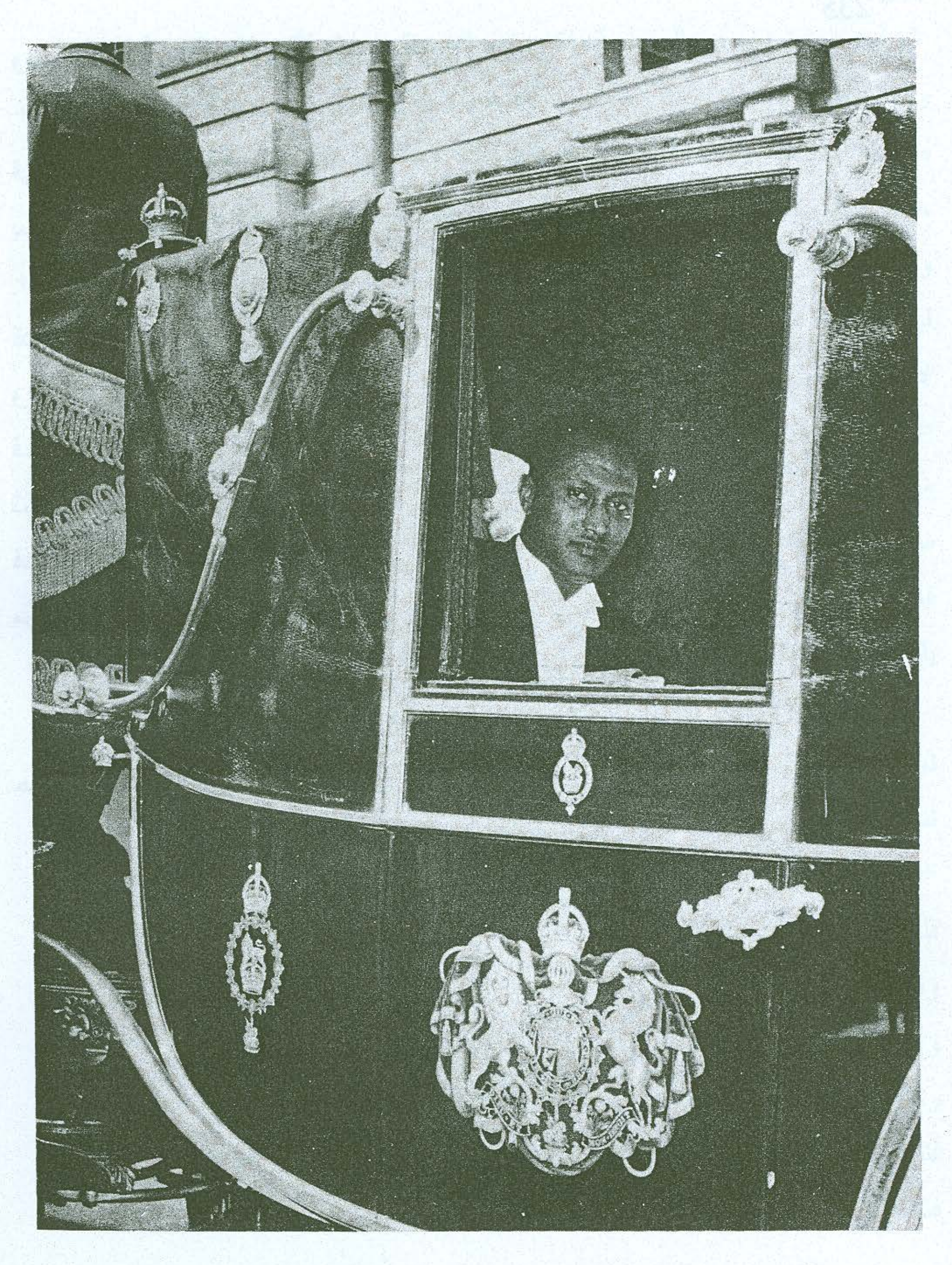
فـأذا صحا.. فقضاء حاجه..

ثمّ يعود أدراجه

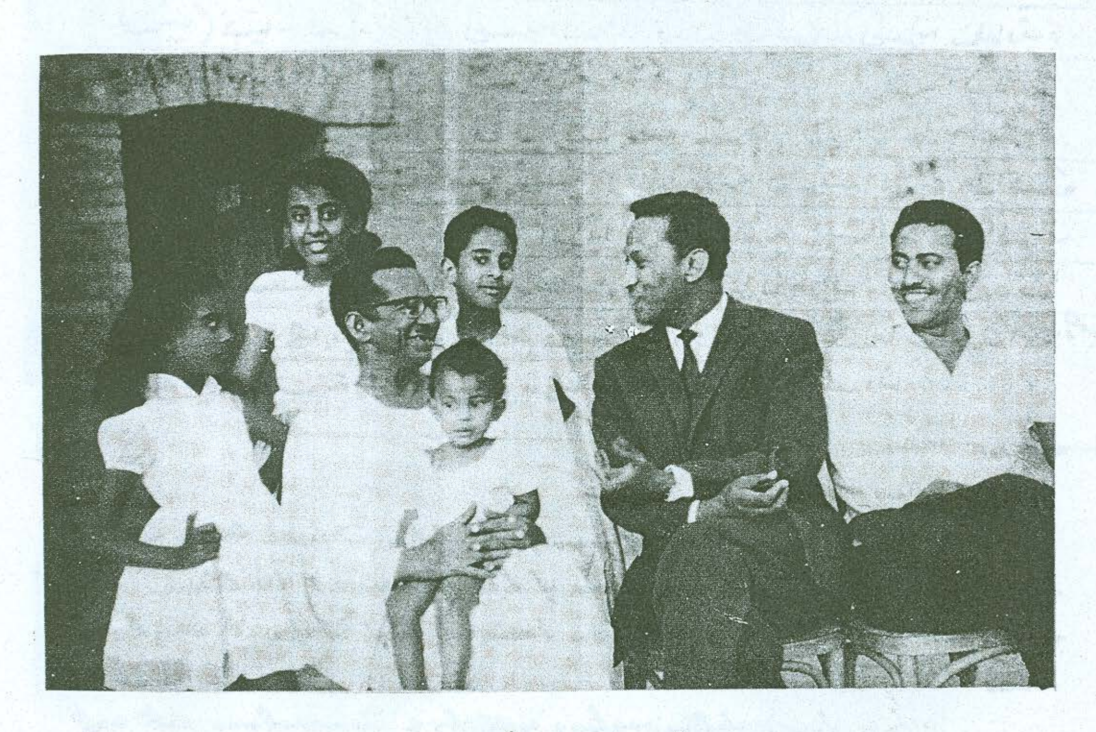
فسبحانك اللهمّ قولك الحق..

مَن تعمّره نُنَكِّسهُ فى الخلق.

ثم هام المجذوب فى نشوة، مشيدا بالكاف واللام، وأمتـع الأصدقـاء بحديثـه حتى أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



داخل العربة الملكية فى الطريق إلى قصر باكنجهام.



مع المجذوب وأسرته

لا .. سوف أبعث لك قصائد حتى تترجمها لروزماري ..

الجنوبيون في السودان لهم الآن صوتاً جديداً بليغاً ... صوت الذين يشعرون بالظلم
ويريدون العدالة ... وهذا الصوت الجديد هو صوت الثقافة .. وكما تعلم فكل مثقفيهم
شديدو الإحساس بالآخرين حريصون على علاقتهم الإنسانية الرفيعة بهم .. ومن هنا
نشأ الشعور لا بالفخر ... الشعور بالواجب والهم ...
إن الصوت الجديد قوي وواضح .. ولكن الآذان لا تسمعه خصوصاً في الأقاليم فهنا
الأقاليم يحكمون طبقة الأفندية .. ولهم صوت ... ولكن طبقة الأفندية (أي الشباب
المحدثين) فتيان يعرفون أين يضعون السودان في الداخل .. وأين يضعونه من الحوادث في
الخارج .. ولكن الأقاليم في وقتنا الحاضر تحكمها الزعامات ... ونواب الأقاليم
لا يستطيعون مناقشة الأفندية ولهذا يجب تعليمهم في أقرب ما نستطيع ..
والتكتلات الإقليمية حركة أخرى جديدة ولكنها خطيرة تعرض الثورة على السياسة
المتحمسين في المركز ... نحن على أبواب ثورة حقيقية .. وستتغير وجه السودان
... وولادتها صعبة جداً .. ولكنها غير خطرة .. وإن خشيت الأخوان .. ولكنهم بدؤوا
بداية سيئة .. إنها بيوت ... مالهم قصر هنا ... ولهم قيمة عندما يجيئون أعدائهم
الأصليين من سنة (الطائفية) .. هذا الهم مهم لأنه يطلبه الناس ..

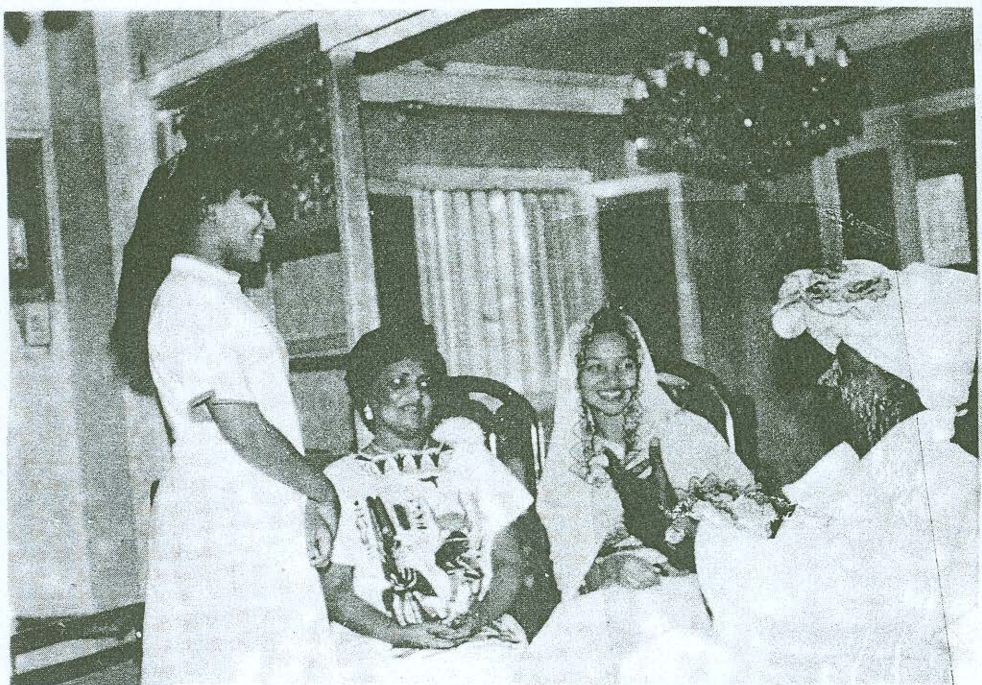
~~Dearest Rosemary,~~

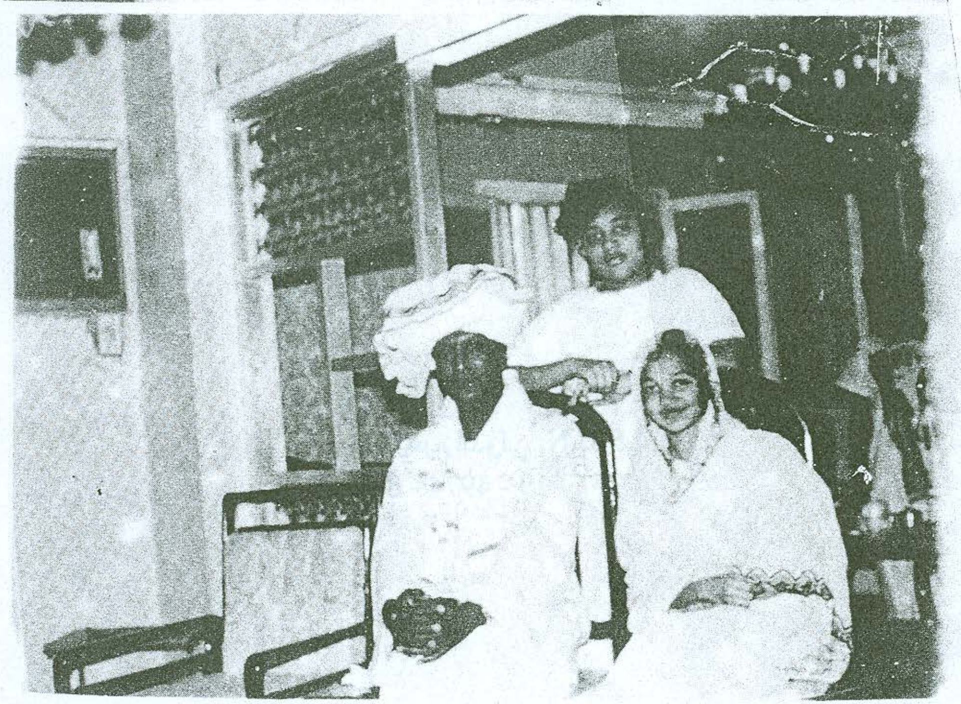
How do you do?

Before the receipt of your first letter, I had been visited now and then by a queer sense of having missed the train. I had no Idea of the kind of the train I missed and where it went to. I was living in a void.

While I was determinating you, by a tremendous act act of perception invited me to write to you. You felt I am an old friend of yours. By that kind act you, my sweet Rosemary, had thrust yourself back into my past and settled there and got me out of a terrible nightmare. You are very close to me and I do believe you are noble and good and I adore you for these rare qualities. Keep me in your thoughts please. Don't let me out of them please. I need you. You are my saviour. My Guardian Angel.

نموذج من خط المجذوب بالعربية والأنجليزية





مجتمع الخرطوم بالقاهرة سنة ١٩٩٧

مع أسرة الأستاذ طه إبراهيم فى انتظار العودة الرابعة إلى الخرطوم

رقم الإيداع ١٤٧٠٥ / ٩٧
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977 - 19 - 4974 - 8

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري